رواية

سارة ميسا

حُب

ترجمة :
محمد الفولي

أثر

مكتبة

حُب

حُب / رواية

سارة ميسا

ترجمة: محمد الفولي

الطبعة الأولى 1443 / 2022

ردمك: 978-603-91686-2-1

رقم الإيداع: 1027 / 1443

UN AMOR © Sara Mesa, 2020

Originally published by Editorial Anagrama S.A.

c/o Indent Literary Agency

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

26 6 23 مكتبة

t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

مكتبة 1225

حُب

رواية

سارة ميسا

ترجمة: محمد الفولي

I

مكتبة
t.me/soramnqraa

لدى حلول الليل، يسقط ثِقلُ اليوم كله عليها، وتكتشف من فرط ضخامته أنها مضطرةٌ إلى الجلوس لالتقاط أنفاسها.

الصمت في الخارج ليس كما توقّعته، بمعنى أنه ليس صمتًا أصلًا. ثمّة ضوضاء بعيدة تبدو كأنها صادرة من أحد الطُرق السريعة، رغم أن أقربها إقليمي ويقع على بُعد ثلاثة كيلومترات. علاوة على ذلك، ثَمَّة أصوات أخرى مسموعة: صرصرة، نباح كلاب، بوق إحدى السيارات، وزعيق جار يجمع ماشيته.

كان البحر ليُصبح خيارًا أفضل، لكن تكلفته أعلى وبعيدة عن متناولها. لماذا لم تتحمل وقتًا أطول مما تحمّلته بقليل؟ لماذا لم تدّخر أكثر مما ادّخرته بقليل؟ تُفضل ألا تفكر. تُغلق عينيها وتترك جسدها يسقط فوق الأريكة، تاركة نصفه خارجها في وضعية غير طبيعية. قد تعاني من تشنُّجَات، إن لم تتحرك سريعًا. تدرك الأمر، فتُحاول أن ترقد بجسد مفرود قدر استطاعتها، إلى أن تشعر بالنُعاس.

عدم التفكير هو التصرف الأمثل، لكن الأفكار تصل إليها، تتسلَّلُ إلى داخلها، وتترابط فيما بينها. تُحاول إخراجها بنفس سرعة دخولها، لكنها تتراكم هناك، في الداخل، فكرة فوق الأخرى، لأن إصرارَها- أي اجتهادها للتحكم في دخولها، خروجها ومنع تراكمها- في حَدّ ذاته فكرةٌ شديدة الحِدَّة على رأسها.

ستغدو كل الأمور أسهل، حينما يصل الكلب، وكذلك، حينما تُرتب أمورها، تضع الطاولة في مكانها، تعتني بالأراضي المحيطة بالبيت، ترويها وتنظفها، ما هي حكاية كل هذا الجفاف والإهمال؟! ستغدو كُلُّ الأمور أسهل، حينما تستعيد انتعاشها. حقًا. ستتحسّنُ كل الأمور، حينذاك.

يعيش صاحب البيت في بيتاكاس، وهي بلدة صغيرة تقع على مسافة خمس عشرة دقيقةً بالسيارة. يصل بعد ساعتين من الموعد الذي اتفقا عليه. تسمع نات صَوْتَ مُحرّك سيارة الدفع الرباعي، بينما تكنس المدخل المسقوف. ترفع رأسها وتقطّبُ جبينها. يركن الرجلُ سيارته عند المدخل، في منتصف الطريق، ويقترب، مجرجرًا قدميه. الجو حارّ. إنها منتصف الظهيرة والحَرُّ جافّ لا يرحم.

لا يعتذر عن تأخيره. يبتسم ويميل برأسه. شفتاه رفيعتان وعيناه غائرتان في محجريهما. تكسو بزّةَ عملِه البالية بقعٌ دهنية. يصعُبُ تخمينُ عُمره، لأن حالتَه المُزرية ليست لها صلة بمرور السنين، وإنما بتعبيراته المستاءة، طريقة اهتزاز ذراعيه وانثناء ركبتيه بينما يتقدّم. يتوقف الآن أمامها، يضع يديه على فخذيه، وينظر فيما حوله.

– ها نحن نبدأ! كيف كانت الليلة الماضية؟

– جيدة. جيدة نوعًا ما، لكن البعوض زائد عن الحد.

– لديكِ جهاز في دُرج الكومود. أحد تلك الأجهزة التي تطرد البعوض. ألم تنتبهي إليه؟

– لقد رأيته، لكن السائل لم يكن موجودًا.

– إذن يا فتاة، أنا آسف.

يفتح ذراعيه ضاحكًا:

– إنه الريف!

لا تُبادله نات ابتسامَته. تنزلق قطرةُ عَرَقٍ فوق جبهتها. تنظّفها بظهر يدها وتعثر في هذه الإيماءة على القوّة اللازمة لرَدّ الهجوم.

- نافذة غرفة النوم لا تنغلق بشكل جيد والماء يتسرّب من صنبور حوض الاستحمام، وهذا فقط لكيلا أتحدثَ عن مدى قذارة كل شيء. الأمور أسوأ بكثير عَمّا كان الأمر عليه في ذاكرتي.

تبرد ابتسامة صاحب البيت. تختفي رويدًا رويدًا من فوق وجهه. يبدو على فَكّه التعَصُّبُ حين يجيب. تُخمّن نات كونه رجلًا حادّ الطباع وتشعر الآن برغبة في التراجع. بذراعيه المعقودتين أمام صدره، يُبرهن الرجل الآن بالحُجَج والدلائل أنها شاهدت جيّدًا حال المنزل، أما بالنسبة إلى عدم تركيزها في بعض التفاصيل، فالأمر ليس مسؤوليته، وإنما مسؤوليتها. يُذكرها كذلك بأنه خفض السعر مرتين ويقول لها، في النهاية، إنه سيضطلع شخصيًا بكل الإصلاحات الضرورية. لا تعتقد نات أنها فكرة جيدة، ورغم ذلك، تفضل ألا تُجادله. تُومئ برأسها وتمسح قطرة عرق أخرى.

- الجو حارّ جدًا.

- هل هذا الأمر ذنبي أيضًا؟

يلتفت الرجل وينادي على الكلب، لكنه يظل ينبش الأرض، إلى جوار سيارة الدفع الرباعي.

- كيف يبدو لكِ هذا الكلب؟

لم يرفع الحيوان رأسه منذ وصوله، إذ ظل يتشمم الأرض وينبشها بعصبية، ككلب صيد. لونه ضارب إلى الرمادي، سيقانه طويلة -كحال خَطْمِه- شعره خشن، وقضيبه منتصب بعض الشيء.

- إذن، هل يعجبك أم لا؟

تتمتم نات:

- لا أعرف. هل هو كلب جيّد؟

- بالطبع. إنه كلب جيّد. لن يفوزَ في مسابقة جمال، وهو أمر ترينه بعينك، لكن الأمر لا يهمك، أليس كذلك؟ ألم تقولي لي إن أمرًا مثل هذا لن يهمَّك؟ لا يعاني من القُرَادة أو شيء من هذا القبيل. إنه صغير السّنِّ وفي صحَّة جيدة. بالمثل، لا يأكلُ كثيرًا. ليس عليك أن تشغلي بالك. ينبش الأرض هنا، ينبش الأرض هناك ويتولّى أموره بنفسه.

يدخلان إلى البيت، يراجعان العقد، ويوقّعانه؛ هي بإمضاء سريع يبدو كجرّة قلم، أما هو فبصورة رسمية، ضاغطًا سن القلم بقوة فوق الورقة. لم يجلب صاحب البيت سوى نسخة واحدة. يحتفظ بها، مؤكدًا أنه سيجلب لها نسختها، حينما يستطيع. تُفكّر نات في أن الأمر لا يهمّها، فالعقد يفتقر أصلًا إلى المشروعية، بل إن السعر المُتفق الذي يظهر فيه ليس حقيقيًا. لا تأتي على ذكر مشكلة النافذة وصنبور حوض الاستحمام من جديد، وهو أيضًا. يمُدُّ إليها يده بصورة مسرحية، ويَزُرّ عينيه بينما ينظر إليها قائلًا:

- أن تكون علاقتنا جيدة، أفضل من أن تكون سيئة.

لا يتحرك الكلب من مكانه، حتى بعد ركوب الرجل لسيارة الدفع الرباعي وانطلاقه بها. يظل واقفًا في مكانه أمام البيت، بينما يتشمم الأرض الجرداء، أعلاها وأسفلها. تنادي نات عليه، تُصَفّر، وتُطقطق بلسانها، لكنه لا يُبدي أدنى نِيّة للاقتراب منها.

لم يقل لها صاحبُ البيت اسمَه، هذا لو أن لديه اسمًا في الأساس.

لو اُضْطُرَّت إلى شرح سبب وجودها هناك، سيشُق عليها العثور على إجابة مقنعة. لهذا، تقرر اللجوء الآن إلى المناورة، بعد أن أتت هذه اللحظة فعلًا. تقتصد في كلامها، متحدثة عن سعيها إلى «تغيير الأجواء».

- سيظُنُّ الجميع أنكِ مجنونة. أليس كذلك؟

تلوك فتاة المتجر العلكة، بينما تَصُفّ مشتريات نات فوق النضد. إنه المتجر الوحيد في محيط كيلومترات؛ مجرد دكان بلا لافتة تتراكم داخله، دون نظام، البضائع الغذائية، والأدوية. الشراء من هناك مُكلّف وتنوّع الخيارات ليس كبيرًا، لكن نات تقاوم فكرة التوجّه بسيارتها إلى بيتاكاس، تُخرجُ المال من محفظتها، وتعُدُّ الأوراق النقدية المطلوبة.

لدى الفتاة رغبة في تجاذب أطراف الحديث. تسأل نات عن حياتها بأريحية تُزعجها، وتقول إنها تتمنى أن تفعل نفس الشيء، لكن بالمقلوب: أن ترحل إلى كارديناس، حيث ثمّة فرصة دائمة لحدوث أشياء جديدة.

– الحياة هنا مُعقّدة. تخيَّلي أنه لا يوجد فتيان أصلًا!

تحكي لها أنها كان تدرس سابقًا في معهد بيتاكاس، إلا أنها تركته، فهي لا تحب الدراسة، وسيئة في كل المواد، لهذا تساعد أبويها في إدارة المتجر. تعاني أمُّها من نوبات صداع مزمنة ويعمل أبوها في حقول المزروعات. هكذا بات من المُلائم أن يضطلعَ أحَدٌ ما بمسألة المتجر، لكنها ستغادر المكان، بمجرد أن تتمَّ عامَها الثامن عشر. قد تعمل كَصَرَّافة في كارديناس أو تعتني بالأطفال. تعرف جيدًا كيفية التعامل معهم، رغم عددهم القليل هنا في لا إسكابا. قبل أن تُنهي حديثها، تُكرّر عبارتها بصياغة جديدة:

– هذا المكان مُعقّد.

تتحدث مع نات عَمَّن يعيشون في بيوت ومزارع المنطقة. تتحدث معها أيضًا عن عائلة الغجر التي تحتل المزرعة البائرة الواقعة إلى جوار المخرج المؤدي إلى الطريق السريع. تمُرُّ حافلةٌ صباحًا لتوصيل أطفالهم إلى المدرسة، وهم الأطفال الوحيدون الذين يعيشون هنا طوال العام. هناك أيضًا زوج المُسنّين الذين يعيشون في البيت الأصفر الصغير. تؤكّد الفتاة أن المرأة تبدو نوعًا ما كساحرة شمطاء، وقادرة على التنبؤ بالمستقبل وقراءة العقل.

تضحك:

– قد يشعر المرء بالانزعاج نوعًا ما في وجودها، لأنها مجنونة بعض الشيء.

نُحدثها عن الـ«هيبي» المُقيم في البيت الخشبي، وعن شخص يدعونه «الألماني»، رغم أنه ليس ألمانيًا، وعن حانة «الرجل السمين»، لكنها تعترف بأن وصف مخزن تُقدم فيه زجاجات الجعة بأنه حانة ربما ينطوي على بعض المبالغة. يأتي المزيد من الناس إلى لا إسكابا ويغادرونها وَفْقًا لمتطلبات التقويم الريفي: عُمَّال باليومية بعقود تمتدُّ لخمسة عشر يومًا أو أيامًا مفردة، عائلات كاملة تعيش نصف العام في مكان آخر، والنصف الثاني هنا بعد أن ورثوا بيوتًا لم يتمكنوا من بَيْعِها، لكن لا تأتي أبدًا نساء بمفردهن. تزيد من دِقّة كلامها:

–خاصّة في مثل عمرك، أما بالنسبة إلى العجائز، فهن لا يدخلن في الحِسبة.

في الأيام الأولى، تُخطئ نات وتختلط عليها كُلُّ هذه المعلومات لأنها، من ناحية، لم تُدقّق سمعها، ومن ناحية أخرى تجهل الأرض التي تتحرّك عليها. حُدود لا إسكابا مُربكة. صحيح أنه توجد نواةٌ حضريةٌ متماسكةٌ نوعًا ما من المنازل، ويقع فيها بيتها، لكن بعيدًا تتبعثر بنايات أخرى، بعضها مسكون، والبعض الآخر لا. لا تُميّز نات من الخارج هل هي بيوت أم مستودعات، وهل الموجود فيها بشر أم بعض الماشية. تَضِلُّ طريقها في الطرق غير المُعبّدة، ولولا وجود المتجر كمرجعية، وكونه مألوفًا بالنسبة إليها– أحيانًا أكثر من البيت الذي أجَّرته وتنام فيه منذ أسبوع– لشعرت بالتيه. المنطقة ليست لطيفة في الأساس، لكن في لحظة الغروب، حينما تختفي ملامح مُحيطها، وتتضاعف الصِّبْغَةُ الذهبية للضوء، تعثُرُ على نوعٍ من الجمال يُمكنها أن تتشبَّث به.

ترفع نات حقائبَها وتُودّع الفتاة، لكنّها تلتفتُ قبل أن تغادرَ وتسألها عن

صاحب البيت. هل تعرفه؟ تزُمُّ الفتاةُ شفتيها، وتهُزُّ رأسَها ببُطء من هذا الجانب إلى ذاك. لا. ليس كثيرًا.

تجيبها:

- إنه يعيشُ في بيتاكاس منذ فترة طويلة. أتذكّرُ أنني كنت أراه وأنا صغيرة. اعتاد أن يسيرَ مُحاطًا بالكلاب بمزاج عكر للغاية. بعدها تزوّجَ أو ارتبط بامرأة ما وغادر المكان. أفترض أن زوجته لم تودّ أن تعيشَ في لا إسكابا، وهو أمر أفهمه، لأن الحياة هنا أسوأ بكثير لأي امرأة، وهذا رغم أن بيتاكاس ليست مكانًا من عالم آخر، فأنا لن أعيش هناك أبدًا، حتى لو مَسَّني الجنون.

تُلقِي كرة عثرت عليها وسط كومة من الحطب إلى الكلب لتلعب معه، إلا أنه بدلًا من الإمساك بها وإعادتها، يمضي مبتعدًا بينما يعرج بساقه. حينما تقرفص إلى جواره وتصبح في طوله لكيلا تفزعَه، يفلت منها، واضعًا ذيله بين قائمتيه الخلفيتين. نتيجة لطباعه المُتملّصة تبدأ في مناداته «سييسو»[1] لأنها بصورة أو بأخرى يجِبُ عليها أن تناديه، لكن «سييسو»، بخلاف كونه فَظَّ الطباع، فهو كلبٌ يُستعصَى فهمُه. يسير هنا وهناك، كأنه ليس له وجود على الإطلاق. لِمَ عليها أن ترضى به؟ فحتى الجرو الصغير الموجود في المتجر، وهو هجين «شِيواوا» شديد العصبية، يبدو لطيفا جدًا عنه. كل الكلاب التي تعثر عليها في الطُّرُق -وهي كثيرة- تركض نحوها إن نادتها. لا شَكَّ أن أغلبَها يبحث عن الطعام، وبالمثل عن المداعبة، بِغَضّ النظر عن فضولها،

---

(1) وردت في النص مكتوبة «Sieso» وهي كلمة إسبانية لا يشيع استخدامها كثيرًا ومن ضمن معانيها ثقيل الظل. ثمة معان أخرى للكلمة، سيكتشفها القارئ مع تقدمه في القراءة وأعتقد أنه من الملائم ألا أكشفَ عنها في هذا الهامش. تلعب الكلمات، ثقلها، خفتها، ومعانيها دورًا محوريًا في العمل وهي مسألة سيشعر بها القارئ في الفصول اللاحقة. (المترجم)

تطفُّلها، وحاجتها إلى معرفة هُويّة الجارة الجديدة التي وصلت مؤخرًا، أما «سيسو»، فعلى النقيض منها جميعًا، لا يبدو مُهتمًّا حتّى بتناول الطعام، فإن وضعت له طعامه، هو أمر جيد، وإن لم تضعه، فلا فارق. لم يخدعها صاحب البيت في هذا الأمر أيضًا، فالاعتناء به غير مكلف. تخجل نات أحيانًا من إحساسها الرافض له، فهي من طلبت كلبًا، وها هو لديها. الآن لا يمكنها أن تقول، ولا حتى أن تفكر- في أنها لا تودّ هذا الكلب.

ذات صباح، تلتقي نات في المتجر بالصدفة مع الـ«هيبي». هكذا سَمَّته الفتاة، التي تضطلع الآن بخدمتها، من دون تسرع، وهي تُدخّن سيجارتها بهدوء. الـ«هيبي» أكبر نوعًا ما من نات، لكن عُمْرَه، على الأرجح، لا يتخطّى الأربعين. إنه طويل، قويّ البنيان، جلده مدبوغ بأشعة الشمس. يداه غليظتان مُتغضّنتان. نظرته حاسمة، لكنها وديعة في الوقت نفسه. شعره طويل، مقصوصٌ بشكل غير متساو، ولحيتُه ضاربةٌ إلى الحُمرة. لماذا تدعوه الفتاة الـ«هيبي»؟ إنها مسألة يجب على نات تخمينها. ربما هو شعره الطويل، أو لأنه -كَحَالِ نات- جاء من المدينة وغريب عنها. على الأرجح هو أمرٌ يَصعُبُ فهمه على الفتاة، التي عاشت في لا إسكابا منذ طفولتها ولا تُفكّر سوى في الهروب منها. الأمر الوحيد المؤكد هو أن الـ«هيبي» يعيش هنا منذ فترة، وبالتالي فوجوده ليس شيئًا مستجدًا بالنسبة إلى الجميع، على عكس نات. تتأمله من جانبه؛ هو وحركاته الجافة، الواثقة، والفعّالة. يُمرّر يدَه فوق ظهر الكلبة الموجودة معه، بينما ينتظر دوره. إنها أنثى «لابرادور» عجوز كستنائية اللون، لكن لا يُمكن لأحدٍ إنكارُ رونقها. تُحرّك الكلبة الآن ذيلها وتضع وجهها فيما بين ساقيها، فيضحك ثلاثتهم.

تقول نات:

- تبدو جميلة جدًا!

يومئ الـ«هيبي» برأسه ويمُدُّ يدَه. يُغيّر رأيَه بعدها، يسحبها، ويقترب لتقبيلها. مجرد قبلة واحدة في وجنتها، ما يجعل نات في النهاية تميل بوجهها في انتظار القبلة الأخرى التي لا تصل. يُخبرها باسمه: بييتر، بياء زائدة. يؤكد لها الأمر بتهجئة الاسم: باء ياء ياء تاء راء، أو أنه على الأقل يُحب أن يكتُبَ اسمَه بهذه الصورة، باستثناء المَرّات التي يجد نفسه فيها مُجبرًا على كتابته في وثيقة رسمية. يمزح قائلًا إنه كلما قلّت المرات التي يُضْطَرُّ فيها المرءُ إلى كتابة اسمه الحقيقي، كان الوضع أفضل، فهذا الاسم لا يصلح فقط إلا للتوقيع في المصارف، مع هؤلاء اللصوص.

تُقدم نفسها له قائلة:

- ناتاليا.

بعدها، يأتي السؤالُ الأهمّ: ما الذي تفعله في لا إسكابا؟ لقد رآها في سيرها عبر الطُرق، وبالمثل وهي تنظف الأراضي المحيطة بالبيت. هل ستعيش هناك؟ بمفردها؟ تشعر نات بالقلق. ربما كانت تفضل ألا يراها أحدٌ وهي تعمل، خاصة بغير علمها، لكنه أمر لا مناصَّ منه فعليًا، فكل ما يحوط أراضي البيت مُجرّدُ سياج رفيع من الأسلاك الشائكة، بلا أي خُضرة لتغطيتها. تقول له إنها ستمكث بضعة شهور فقط.

- رأيت الكلب أيضًا. أنتِ لم تأتِ به معك، أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

يعترف لها بييتر بأنه يعرف هذا الحيوان جيدًا، فهو أحد الكلاب الكثيرة التي يمتلكها صاحب البيت، وبالتبعية، لا بد أنه أسوأها. يجمع الكلاب من أي مكان. لا يعتني بها. لا يُطعِمها باللقاحات اللازمة، ولا يعتني بها بأدنى درجة. يستخدمها، ثم يهجرها. هل هي من طلبته؟ ما من شك في أنه قدَّم لها أقل كلابه نفعًا.

تظل نات منغمسة في أفكارها إلى أن يقترح عليها إعادته، فهي ليس عليها أن تستسلم لو أن الكلب غير مناسب لرغبتها. يقول لها إن صاحب البيت ليس رجُلًا طيبًا، وإنه من الأفضل أن تُحافِظَ على كل المسافات المُمكنة بينهما. لا يحب بيتر أن يتحدّث عن أحد بالسُّوء. يؤكد لها الأمر، لكن صاحب البيت شأن آخر، لأنه يفكر دائمًا في كيفية الاحتيال على الآخرين.

- قد أجلب لكِ كلبًا آخر، لو رغبتِ.

المحادثة برمّتها أقلقت نات. ترى «سيسو» الآن نائمًا إلى جوار سياج الأسلاك الشائكة الرقيق وجسده يفترش الأرض تحت الشمس. تجلس هي عند باب بيتها، وفي يدها زجاجة جعة صغيرة فاترة، فالثلاجة لا تعمل كما يجب هي الأخرى. يتوقف البعوض فوق بطن الكلب، المنتفخ نوعًا ما، حيث تميّز نُدوبًا لإصابات سابقة.

تُثير فكرة إعادته انزعاجًا عميقًا داخلها.

البيت مجرد بناء قصير، من دور واحد. تكاد نوافذه تلامس سطح الأرض، وفيه غرفة واحدة تضم فراشين طول كل منهما تسعون سنتيمترًا. ترغب نات في أن يأخذ صاحب البيت أحدهما، لأنها ليست في حاجة إليه، وبالمثل لتضع مكانه مكتبًا؛ سيكفيها مجرد لوح خشب مزود بسيقان. تُفكر في الاتصال به هاتفيًا، لكنها تؤجِّلُ الأمرَ يومًا تلو الآخر. حينما تراه -فهي إن عاجلًا أم آجلًا ستُضْطَرُّ إلى رؤيته- ستطلب إليه الأمر، أو ستلمح إليه. ستظل دون مكتب إلى أن يحدث هذا. في الوقت الحالي، عليها أن تتكيَّفَ مع الطاولة الوحيدة الموجودة، وأن تُقرّبها إلى النافذة، فالبيت مُظلمٌ ورَطِب، حتى في وضح النهار. المطبخ -وهو ليس سوى موقد وسطح رخامي- لا يدخُلُه أيُّ ضوء، إلى درجة اضطرارها إلى إضاءة النور، كُلّما وَدَّت أن تُعِدَّ كوبًا من القهوة. خارج البيت، الأمر مختلف، إذ تسقط الشمسُ بكُلِّ قوّتها منذ الصباح الباكر،

لهذا فالعمل هناك مرهق، حتى لو كان مع انبلاج الشمس. تحاول أن ترسُمَ خطوطًا للحرث في الأرض لتزرع الفلفل، الطماطم، والجزر، وأي شيء قد ينمو سريعًا من دون مشكلات. لقد قرأت عن الأمر، بل وشاهدت بعض مقاطع الفيديو التي تشرح العملية خطوة خطوة، لكنها الآن بعدما باتت على أرض الميدان، تجد نفسها عاجزة عن تطبيق ما رأته. عليها أن تتغلب على خجلها وتسأل أحدًا ما. ربما ستسأل بييتر.

في كل مساء، تجلس لتترجم لمدة ساعة أو ساعتين. لا تتمكّن أبدًا من الوصول إلى التركيز الكافي. تقول لنفسها إنها في حاجة إلى فترة تأقلم؛ لا يجب أن تشغل بالها إلى حد الهوس في تلك اللحظة. تتمشّى في الأنحاء لتصفية ذهنها. يرفض «سيسو» مرافقتها مهما نادت عليه، لهذا تمضي بمُفردها، بينما تسمع الموسيقى عبر سمّاعات أذنيها. حينما ترى أحدًا يقترب، تُجبر نفسها على تسريع خطواتها، بل وعلى الهرولة. تُفضّلُ أن تمرّ من دون أن يلاحظَ أحدٌ وجودها، وألا تجِدَ نفسها ملزمة بتقديم نفسها والدردشة، حتى لو اضْطُرّت إلى التظاهر بممارسة الرياضة، لتحقيق مرادها.

في محيط المشهد الطبيعي الواقع تحت وطأة الجفاف، تتبعثر أشجار الزيتون، بلوط الفلين والسنديان هنا وهناك. لا تتزين الأرض إلا بزهور القستوس، بطابعها اللزج والمتواضع. لا يكسر رتابة الحقول إلا هيئة «إل غلاوكو»، وهو جبل قصير مليء بالشجيرات والأجمات يبدو كأنه مرسوم بقلم فحمي فوق سماء عارية. يقولون إن ثمّة خنازير برية وثعالب باقية هناك، إلا أن كل الصيادين الذين يصعدونه يعودون فقط بقطع مجففة من طيور الحجل والأرانب، مربوطة إلى خصورهم. تفكر نات: إنه جبل مشؤوم، لكنها تسعى على الفور إلى إبعاد هذه الفكرة عن رأسها. لماذا هو مشؤوم؟ «إل غلاوكو» اسم قبيح. لا شك في هذا. تُخمّن أن مَرَدَّ الأمر

هو لونه الشاحب الحزين. تذكرها كلمة «glauco» بعين مريضة تعاني من التهاب الملتحمة أو بعيون كبار السن الزجاجية الضاربة إلى الحُمْرَة، التي تبدو كأنها مغطاة بالبخار. تتفهم أنها تركت وعيها يتلوث بكلمة «glauco-ma»[1]. لقد ظهرت كلمة «glauco» بالصدفة في الكتاب التي تحاول ترجمته، لوصف شخصية رئيسية. إنه الأب المرعب الذي يسُبُّ في لحظة معينة أحد أبنائه بصيغة مؤلمة جدًا. يفعلها وَفْقًا للنص، بينما يُحدّق فيه بنظرة توصف بهذه الكلمة. كلمة "glauco". تفكر نات في البداية أنها وصفٌ لعدوى في العين، لكنها لاحقًا تتفهّم ببساطة أنها نظرة خاوية، خالية من التعبير، ذلك النوع من النظرات الذي تبدو فيه حدقة العين ميتة، وشبه غبشاء. إذن، ما هو المعنى الصحيح؟ خضراء فاتحة، خضراء ضاربة إلى الزرقة، مريضة، هائمة، تائهة؟ ستوجّه بقية الفقرة بناء على الكلمة التي ستختارها. اللجوء إلى ترجمة حرفية، مع عدم الاعتناء بفهم الروح الأصلية للعبارة، سيبدو كالاحتيال.

رغم التمشية والمجهود البدني، لا تنام الليل جيدًا. لا تتجرأ على فتح النوافذ، وليس فقط بسبب البعوض، الذي لا يتوقف عن لدغها، مع كل المنتجات التي ابتاعتها، ففي الأيام الأولى، دخل البيت عناكب، أبراص، بل وأم أربعة وأربعين اكتشفتها مرعوبة داخل حذائها. ذات صباح آخر، وجدت المطبخ مفروشًا بالنمل لأنها نسيت الطعام خارج الثلاجة. يحاصرها الذباب أيضًا طوال النهار داخل وخارج البيت. تتساءل: هل مِن حَلّ لهذه

---

(1) معنى الكلمة بالإسبانية هو مرض «الزرق» أو «المياه الزرقاء» والمعروف علميًا أيضًا باسم الـ«الغلوكوما» أو ال«الغلاوكوما». حينما تقول المؤلفة إن وعي نات تلوث بالكلمة فهذا للتشابه بين كلمتي «إل غلاوكو/ El Glauco» و«غلوكوما/ Glaucoma». بالنسبة إلى كلمة glauco فلها معان متنوعة بعضها حرفي مثل «أخضر فاتح»، «أخضر ضارب للزرقة»، والبعض الآخر مجازي مثل «هائم» أو «تائه»، وهو أمر سيحير البطلة في السطور التالية كما سيرى القارئ بنفسه. (المترجم)

الأمور؟ أم أن هذه هي حال الريف كما قال صاحب البيت؟ كل الأشياء تتّسخ مهما نظّفتها. تكنس وتكنس، إلا أن الغُبارَ يدخُلُ من أي شقٍّ ويتراكم في كل الزوايا والأركان. تفكر: لو لديها مروحة لساعدتها على الأقل على النوم، إذ سيُمكنها أن تُغلقَ النوافذَ وسيصبح كل شيء مريحًا، لأنها ستستيقظ مرتاحة ومفعمة بالطاقة للتنظيف، الترجمة والعمل في البستان؛ أو بالأصح مشروع البستان. رغم ذلك، لا تُخطط تحت أي ظرف أن تطلب المروحة إلى صاحب البيت.

تقرر أن تذهب إلى بيتاكاس لشرائها، وتفكر في أنها يمكنها أن تستغلَّ وجودها هناك للحصول على بعض الأدوات: معزقة، دِلاء، جرّافة، مقص تشذيب، أداة للتذرية، وأي شيء آخر، ما دام أنها ستتمكن من التحقق من اسم ما تبحث عنه ووظيفته، فهي في النهاية، لا تعرف شيئًا عن هذه الأدوات.

تُفاجئها بيتاكاس بِصَخَبِها. تستغرق بعض الوقت في العثور على المرأب، فتخطيط الشوارع فوضوي وإشاراته متناقضة، إلى درجة أنه بمجرد دخول البلدة، فمن السَّهْلِ جدًا أن يخرُجَ المرءُ منها في أي مرة يحيد فيها عن الطريق من دون قصد. البيوت متواضعة، واجهاتها متهالكة وتخلو تقريبًا من الزينة، لكن ثمّة بنايات من الطوب يصل ارتفاعها إلى ستّة أدوار، مبعثرة اعتباطيًا هنا وهناك. تتراكم المتاجر في محيط الميدان الرئيسي، في حين أن مجلس البلدية -وهي بناية مهيبة ذات أفاريز وواجهات زجاجية ضخمة- يحوطه عددٌ من الحانات والبازارات الصينية. تشتري نات من أحد هذه البازارات مروحة صغيرة. تتجول بعدها بحثًا عن دكان للحدائد، غير عازمة على سؤال أحد. يلفت انتباهها إهمال النساء لمظهرهن، فَشُعُورهن غير مُصفَّفة ويَسِرْن بالشباشب. الكثير من الرجال، بما فيهم كبار السن، يرتدون قمصانًا

بلا أكمام. ثمّة أطفال قلائل يسيرون بمفردهم، بينما يلعقون المثلجات، يتسكعون، أو يتدحرجون على الأرض من دون رقابة. كلهم -نساءً، رجالًا، وأطفالًا- مزعجون ومهملون ويشبهون بعضهم بعضًا بصورة عجيبة. تقول نات لنفسها: إنها تبعات زواج الأقارب، وتفكر في أن صاحب البيت يتماشى بصورة مثالية مع هذا المكان.

تُشعرها الاحتمالية المجردة لمقابلته بالمصادفة بالقلق، إلا أنها لا تصادفه هو في محل الحدائد، وإنما بيتر. تبتهج لرؤيته: إنه شخص معروف، لطيف ويبتسم في النهاية مقتربًا منها. يسألها: ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ تُظهر له نات علبة المروحة، فيقطّب جبينه. يسألها لِمَ لَمْ تطلب الأمر من صاحب البيت، فهو مُلزم بأن يكون محل السكن قابلًا للعيش. صحيح أنها لا يمكنها المطالبة بُمكيف، لكن على الأقل، يمكنها أن تطلب مروحة.

- كان بإمكانك أيضًا أن تطلبي الأمر منّي. الجيران موجودون لخدمة بعضهم.

تحاول نات أن تختلق عذرًا. تقول لها إنه يناسبها أن تشتري المروحة من مالها، فحينما ترحل عن لا إسكابا، ستأخذها معها. ينظر إليها بطرف عينيه، ليثبت لها أنه لا يصدقها.

- وما الذي أتيتِ لشرائه من هنا؟ أدوات لإصلاح كل ما تركه لكِ معطوبًا؟

تهُزُّ نات رأسها نافية.

- لا، بل أشياء للبستان.

- هل ستزرعين بستانًا؟

- حسنًا.. مجرد شيء بسيط. ما أفهمه هو أن الفلفل والباذنجان ينموان بسهولة. على الأقل، سأحاول الأمر.

يُمسكها بيتر من ذراعها، يقترب منها ويهمس:

- لا تشتري شيئًا.

يُخبرها بأنه يُمكنه إعارتها الأدوات التي تعوزها. يقول لها أيضًا إنه من الأفضل أن تتنازل عن فكرة البستان، فأرضُها لم يُزرع فيها شيء طيلة سنوات. الأرض بائرة تمامًا. ثمّة حاجة إلى أيام وأيام من العمل الشاق لاستصلاحها، بخلاف المال اللازم للمخصبات والسماد. لو أنها «مرهونة» -وهي كلمة تستوقفها- بهذا الأمر، فيمكنه أن يساعدها، لكنه في النهاية لا ينصح بالمسألة برمتها. رغم أنه يتحدث معها بوداعة، إلا أن نبرته تعكس ثقة لا يُمكن دحضها: ثقة الخبير. تومئ نات برأسها وتنتظر أن ينهي مُشترياته، وهي كابلات، محولات طاقة، براغي، وبعض الملاقط. كلها أدوات شخص محترف ومحددة للغاية، ما من صلة تجمعها على الإطلاق بالالتباس الذي تتحرك به.

يسير بيتر في الشارع إلى جوارها بخطوة رياضية، منتصبًا في مشيته، التي لا تخلو من المرونة. طريقته في التحرُّك أنيقة جدًا ومختلفة للغاية عن أولئك الذين يحيطون بها. يغمر نات إحساس من الفخر لسيرها معه؛ هذا النوع من الفخر المرتبط بشرعية وجودها معه، لكن هذا الشعور الساحر يتلاشى، حينما يشير إلى واجهات مجلس البلدية الزجاجية.

- أليست جميلة؟ أنا صنعتها.

تعتقد نات أن هذه الواجهات نَشَازٌ كاملٌ ومُتكاملٌ عن هذا البناء المُشيَّد بالطوب البارز. رغم ذلك، تُشيد بنقيض ما تفكِّرُ فيه وتقول إنها تتماشى معه بشكل جيِّد للغاية. ينظر إليها بيتر بامتنان ويقول: «بالضبط»، فهذا هو ما يبحث عنه في عمله: التواؤم مع السياق المحيط.

- بيتاكاس ليست أجمل مكان في العالم، لكن يجب على المرء أن يُحاول

تجميل مُحطيه قدر استطاعته، أليس كذلك؟

لا تعرف نات الكلمة الدقيقة التي تصف من يعمل في تصنيع الزجاج فتسأله:

- إذن أنت...؟

- تريدين قول «زَجَّاج»[1]؟ صحيح. لكن، أنا شيء أكثر من زَجَّاج. أنا محترف في تصنيع الزُجاج وتلوينه. اللعنة! لا يقتصر ما أفعله على تغطية النوافذ.

تبتسم نات:

- بالطبع.

يتناولان جعةً في إحدى حانات الميدان. إنها باردة وتُعجب نات. يتأملها بيتر بإمعان. تفكّر نات في أن إمعانه زائدٌ عن الحد، إلا أن عينيه جميلتان، وهو أمر يُخفّفُ من انزعاجها. تعود دفّة المحادثة إلى صاحب البيت -هذا المتبجّح، كما يصفه بيتر من جديد- والأدوات والأرض البائرة. يُصِرُّ على أنه سيُقرضها كل ما سيلزمها. عليها فقط أن تُنظّفَ الأرض بعُمْق وتترُكَها خاويةً إلا من طاولة صغيرة وبضعة مقاعد استرخاء، على أن تزرع فيها لاحقًا نباتات الدِّفْلَى واليوكا أو النباتات العُصارية الصالحة للمناخ القاسي. قُرب بيتاكاس، ثمّة مشتل ضخم ورخيص جيدًا، يُمكنهما أن يذهبا إليه يومًا ما، إن كانت ترغب. يبدو أن خطة البستان باتت مُستبعدة بالكامل. لا تُقدم نات حتى على ذكرها مرة أخرى.

---

(1) استخدمت المؤلفة كلمة غير شائعة بالإسبانية، إلى درجة أن البطلة نفسها تجهلها وهي «Vidriero»، وهنا كان لا بد أن أستخدم بالعربية كلمة غير شائعة وربما تكون غير معروفة للكثيرين وهي «زَجَّاج»، وذلك للحفاظ على الروح الأصلية للنص. (المترجم).

تُكرّسُ الأيام التالية للمنطقة الخارجية للبيت. تنهض مبكرًا لتجنُّب الحر، ورغم ذلك تتعرّق باستمرار، فيُطاردها إحساس القذارة طوال اليوم. تدعك مدخل البيت المسقوف بالكامل، تكشطه، تصقله، وتطلي أرضيته الخشبية ودعامات تعريشته بالورنيش. تُشَذّب كل الفروع الذابلة المتدلية بقبح، تنزع الأعشاب الضارة، وتُخرج أكياسًا وأكياسًا مليئة بالقمامة: بالورق، بأوراق النباتات الجافة، بقطع الحديد والبلاستيك، بمعلبات الصفيح الخاوية، وبفروع أخرى مكسورة. النتيجة النهائية هي باحة نظيفة نوعًا ما وأرضيتها متشقّقة. تفكر في أنه لو كان المنزل مِلكًا لها، لزرعت عُشبًا أو نجيلًا، وربما نباتات الدِّفْلَى التي أوصاها بها بيتر، لتُصبح سورًا طبيعيًا يحميها من النظرات المزعجة، لكن يا لها من حماقة! المنزل ليس لها. لن تبذل كل هذا المجهود من أجل لا شيء.

ذات صباح، تطل الغجرية المقيمة في ضواحي القرية برأسها وتسألها هل تود أن تحصل على بعض الأُصص. تقول لها تحديدًا:

- عندي منها بعدد شعر رأسي[1].

تبيع لها كمية كبيرة بمبلغ قليل جدًا. كلها أصُص قديمة، لكن نات لا تنزعج من تقشُّر رخامها ولا العفن الموجود على فخارها. ثمة أصيصان كبيران. إن نظّفتهما جيدًا، سيبدوان رائعين. يُساعدها زوجُ الغجرية وأبناؤه الثلاثة في حمل الأصص إلى البيت بسبب ثِقلها. تبتهج نات من رؤية هذه

---

(1) وردت في النص مكتوبة بالإسبانية «Tengo una jartá» والكلمة الأخيرة هكذا بأحرف مائلة. بعد البحث تبين أن كلمة «jartá»، من ضمن المفردات العامية الخاصة بغجر إسبانيا ومعناها بالفصحى «الكثير من شيء ما»، ولهذا السبب تحديدًا قررت استخدام تعبير عربي بالعامية، لكن مع إلباسه ثوب الفصحى للحفاظ على روح النص الأصلي من ناحية، وعدم فرض عامية عربية بعينها على القارئ، أيا كانت جنسيته، وهكذا وقع اختياري على صياغة «عندي منها بعدد شعر رأسي».

العائلة، بصخب أفرادها، خفة ظلهم، وكونهم لا يشتكون كثيرًا مثل فتاة المتجر. يُداعب الأطفال «سيسو»، فتراه لأول مرة يُحرّك ذيلَه ويدُور حول نفسه، مُنقادًا بغريزة اللعب.

يقول لها الغجري، بينما يودعها:

- خذي بعض البراعم من أي مكان، وستصبح لديكِ حديقة بعد فترة قليلة. لستِ في حاجة إلى الذهاب إلى مشتل أو شيء من هذا القبيل.

كلامه صحيح. تقطف نات بعض النباتات من البيوت القريبة -وأغلبها غير مأهول- وهذا لأن فقدان بعض الأفرع الخارجة من فوق أسوارها لن يُمثّلَ أيَّ مشكلة بالنسبة إلى ملاكها. رغم ذلك، يُبدي بيتر انزعاجه حينما يدرك الأمر، فما الحاجة إلى مثل هذا التصرف؟ ألم يقُلْ لها إن ثمّة مشتلًا قريبًا، وإن أسعاره رخيصة جدًا؟ أيضًا، هو بنفسه قادر على إمدادها ببراعم كثيرة، بل وبنباتات كاملة. بهذه الصورة، يُهديها صبارة صلبة العود قد نبتت منها بالفعل بعض الزهور الوردية الداكنة. تضعها نات إلى جوار الباب غصبًا عنها. إنها صبارة رائعة تلفت الانتباه إليها بوجودها المجرد.

لا يُمكن لأحد إنكارُ التغيير الذي طرأ. تتشبّث البراعم جيدًا بتُربتها، وتنمو بصورة شبه يومية. تقترب روبرتا، المرأة المُسنّة ساكنة البيت الأصفر الصغير، لترى الأمر. تُهنئها بحماس. تشعر نات على الفور بانجذابها إليها. لماذا وصفتها فتاة المتجر بالساحرة الشمطاء؟ لو أن هناك شيئًا يُميّز هذه المرأة، فهو جمالها. لا بد أنها كانت بهيّةَ الطلّة في شبابها. ثمّة شيء من هذا الجمال باق في ملامح أنفها وثغرها، إلا أن أبرزَ شيء هو عيناها الداكنتان، الدافئتان، والثاقبتان. شَعْرُها ناعم، شديد البياض ويمتَدُّ كَهَالةٍ من الضباب الرقيق فوق رأسها. تُغدق المرأة ثَنَاءها على نات ومجهودها. تقول لها إن كل الأمور تبدلت منذ وصولها، وإن التغييرات -كل التغييرات- لا تُفضي إلا

إلى الخير. تُضيف بينما تغمز بعينها:

- الماءُ الراكدُ سيئٌ دائمًا.

تُدرِكُ أنَّ العَجُوزَ تظنها قد اشترت البيت، لأنه، حسبما تفكر، ما من شخص سليم العقل سيُورّطُ نفسَه في مثل هذه المسؤولية مع بيت حقير ومستأجر.

حتى هذه العجوز المجنونة قادرة على رؤية الأمر.

هل هو الحَرّ؟ هل هي الوَحْدَة؟ أم نقصُ الثقة والخوف من الفشل؟ تفرضُ كلماتٌ كتبها شخصٌ آخر قبلها سُلطتها عليها. إنها كلمات مختارة بعناية، منتقاة من كل المفردات المحتملة، ومتفردة بترتيبها الحالي، الذي انبثق من بين كم لا نهائي من الصياغات المستبعدة. لو أنها ترغب في العمل جيدًا -وهذه رغبتها فعلًا- فعليها أن تعتني هي الأخرى بهذه الاختيارات، لكن التفكير بهذه الصورة يصل بها إلى حَدّ الإنهاك والشلل، فَتَغْصِيصُ لغة النص بهذا المستوى من الوعي، قد ينزع معناه. هكذا، تتحوَّل كل كلمة إلى لغز وتصبح عملية الترجمة أقرب ما يكون إلى التقاتل مع نسخة سابقة لنصها وأفضل منه. تَقَدُّمُها بطيءٌ بصورة تصيبها بالإحباط. هل هو الحَرّ؟ هل هي الوَحْدة، نقص الثقة أم الخوف؟ أم يجب عليها، ببساطة، الاعترافُ بأن المسألة ترتبط بعدم أهليتها وحماقتها؟

بالنسبة إلى «سيسو»، لا تسير الأمور كما تأمل. يرفض الكلبُ الدخولَ إلى البيت. يذهب ويأتي كما يحلو له، ولا يلتزم بأي قواعد. من الواضح أنه تعرّضَ إلى صدمةٍ ما تدفَعُه إلى عدمِ الثقة في المساحات المغلقة، لكن نات لا تفهم لِمَ لا يمكنه أن يثِقَ فيها، بعدَ أن قضى أيامًا كثيرة إلى جوارها. تتذكر رؤيته يلعب مع أولاد الغجر وتحاول أن تداعبه كما فعلوا -من وراء أذنيه وفي جانبيه- إلا أنه يتخذ وضعية دفاعية ويهرب منزعجًا بصورة واضحة

تمام الوضوح.

مؤخرًا، نحو الثانية أو الثالثة فجرًا، صارت تسمع حفلًا من النباح والعُوَاء يمتدُّ في محيط عدّة كيلومترات، كأن كل كلاب لا إسكابا مَسَّها الجنونُ فجأة، وقررت أن تتحدّى بعضها. تتساءل نات من أين تخرج هذه الكلاب المشحونة بكل هذا الإحباط وهذه العدائية، فهي لا تبدو كتلك التي تنعس وتتشمم الطُرق نهارًا في هدوء. إن كانت حقًا نفس الكلاب، فما سبب هذا التحوُّل الليلي؟ لماذا تغدو كل الكلاب الوديعة متوحشة مرة واحدة؟ وماذا إن تحوَّلَ «سيسو»، استجابةً لهذه الاستفزازات، وآلت الأمور معه إلى نتائج سيئة؟ هكذا، تقرر أن تربطه إلى وتد، خوفًا من فراره. ربما خوفها مبالغ، وخارج الإطار- وهذا هو ما تفكر فيه تحديدًا حين تصحو- إلا أن هذا الخوف يعود مع كل ليلة، فيغدو حقيقيًا ولا يقبل الدحض.

لم يكن تقييد «سيسو» من ضمن خُطَطها، إلا أنه الأمر الوحيد الذي طرأ في ذهنها للسيطرة عليه. لطالما اعتبرت فيما سبق، كلما رأت كلبًا مقيدًا في أحد الأراضي، أنه فعل قاس وأصدرت أحكامها الشخصية بالسلب على أصحابه. ها هي تفعل الآن نفس الشيء وربما لنفس الأسباب. تُبرر الأمر لنفسها بتعهُّدها بأنه إجراء انتقالي، فَبِمُجَرَّد أن تُرسي معه رابطًا وثيقًا، ستطلق سراحه وسينتهي به المطاف نائمًا داخل المنزل، إلى جوارها، ليُؤنِسَ وَحْشَتَها.

رغم ذلك، لا يثق بيتر في أن أحوال «سيسو» ستتبدّل، ففي كل مرة يمُرُّ لإلقاء التحية على نات، يرمقه بطرف عينيه ويقول إنه لا يستحق عناء المحاولة، فهو، كما يؤكد، حيوان فاسد. يُصِرُّ على فكرة إعادته. ستزداد صعوبةُ الأمر، كلما تركت الوقت يمر. ألن تستمعَ إليه أبدًا؟ تُفكر نات في أن بيتر يُعارض هيئته المسالمة بل وحتى اسم شهرته[1]، إذ يبحث عن

(1) اسم شهرة بيتر هو الـ«هيبي» كما ورد سابقًا في الرواية، ومن المعروف أن الـ«هيبيز» عامة

النزاعات دائمًا، أو أنه على الأقل يبحث عنها مع صاحب البيت، ويدفعها في اتجاهها. لا يرتبط الأمر فقط بمسألة المروحة -التي يُذكرها بها دائمًا- وإنما أيضًا بعيوب المنزل، ومشكلة الكلب على وجه الخصوص. تُفكر نات: لو أن صاحب البيت شخص سيئ بمثل هذه الصورة، فكيف لها أن تطلب شيئًا من «سييسو»، بعد أن عاش معه وعانى تحت إمرته من عدة مصائب لا يعرف أحدٌ كُنْهَها. لقد وصف لها بييتر الطريقة التي يتعامل بها صاحب البيت مع حيواناته: استخدامها وهَجْرها. لو أن «سييسو» معه منذ كان جروًا، فلا بد أن ما تعَلَّمه هو الهَجْر.

أمام نات فرصة لتغيير الأمور وتحويلها إلى الاتجاه المعاكس. لهذا السبب تحديدًا -أي وجود هذه الفرصة بين يديها- تُقرّر ألا تستسلم.

أشخاص مسالمون. (المترجم).

ذات صباح، تحاول أن تضعه في السيارة لتذهب به إلى الطبيب البيطري في بيتاكاس. إنه قرار ارتجالي وتنفيذه ليس سهلًا كما ظنَّت. يرفض «سيسو» ركوب السيارة، يلُفُّ ويدور، وينظر إليها متشكّكًا بطرف عينيه. تتمكّن في النهاية من التحايُل عليه باستخدام قطعة من لحم الخنزير كطُعم، قبل أن تدفعه إلى داخل السيارة، وهو غير مُنتبه. تهمس في أذنيه لتهدئته وتضعه فوق ملاءة في المقعد الخلفي. تتخشَّبُ قوائمُه ويكتسي وجهه بتعبير ينُمُّ عن الذعر. يتأوَّه بصوت خافت ويظل ثابتًا بغرابة بلا حراك. تراقبه نات في الطريق عبر المرآة الأمامية. ترى خَطْمَه المفتوح، لهاثه، رأسه المحني، سيقانه المتيبّسة، ظهره المنتفش، ولحم الخنزير إلى جواره، دون أن يلمسه. يشعر الحيوان بالخوف، وهي بالحزن، وعلى وجه الخصوص، بالرغبة في إنهاء الأمر في أقرب وقت ممكن.

العيادة البيطرية موجودة في الضواحي، داخل زقاق مسدود. إنها خاوية. لا وجود لأي عملاء ينتظرون. لا وجود أصلًا لقاعة انتظار. يستقبلها الطبيب البيطري -الذي يبدو بوضوح أنه ليس من أهل المكان- باستياء، كأن أحدًا قد أزعجه أو قاطع انشغاله بشأن أهم بكثير. بينما يرتدي قفَّازه البلاستيكي، يسألها عن اسم الكلب. تُجيبه بخجل «سيسو». تراه يرفع حاجبه، تُسارع بتوضيح أنه اسم لملاطفته يتراوح بين الجد والمُزاح، وأنها

ستغيره على أي حال[1].

يقول لها:

- الحيوانات لا تفهم السخرية وتغيير أسمائها طوال الوقت ليس جيدًا.

تشخيص الطبيب قاطع: «سيسو» لديه قُرَادة في أذنيه وديدان معوية. بالنسبة إلى طريقة مشيه العرجاء، فَمَرَدُّها كَسْرٌ لم يلتئم جيدًا في قائمته الخلفية. ربما تعرَّضَ له بسبب حادث دهس. علاوة على ذلك، يعاني من سوء التغذية، كما أنه ليس لديه رقاقة[2]. يقول وهو يغسل يديه إنه، بغض النظر عن كل هذا، كلب شاب ويستحق حياة أفضل دون شك.

- أين أوراقك؟ هل حصل على آخر التطعيمات؟

- لا أعرف. حصلت عليه دون وثائق.

ينظر الطبيب إليها بتمعُّن:

- وهل يصعُبُ عليك التحقُّق من هذا الأمر؟

- نعم. أفترض أنه سيصعُبُ عليَّ التحقق.

يتنهّد قائلًا: أهل الريف! لا أحد يراقب مثل هذه الأمور. أهل الريف أفظاظ، مكابرون وقساة، في أحيان كثيرة إلى حد التوحُّش. منذ عدة أيام، جلبوا له كلبًا سلوقيًا مسلوخًا. لم يتمكّن من فعل شيء لإنقاذه. تقول نات إنها تعجز حتى عن تخيل مدى صعوبة العمل في مكان مثل بيتاكاس، فيجيبها بقوله إنه يبدو كأن يضرب المرء رأسه في الحائط يومًا تلو الآخر.

---

(1) كما ذكرنا سابقًا أن كلمة «Sieso» لها معان مختلفة بالإسبانية من ضمنها «ثقيل الظل»، وهو المعنى الذي قد يحمل إيحاء سلبيًا أو إيجابيًا بالإسبانية أو بالعربية وفقًا لاستخدام الكلمة سواء في الجد أو المزاح. (المترجم).

(2) رقاقة الكلاب: جهاز صغير في حجم حبة الأرز يُزرع أسفل جلد الحيوان ويتضمن رقماً تعريفيًا. تسجل هذه الرقاقة بيانات الكلب وصاحبه لتسهيل إعادته إليه إن تاه. (المترجم).

تُنصت إليه نات دون أن تفتح فمها. المشكلة الموجودة الآن -مشكلتها- اقتصادية بحتة، فتركيب الرقاقة للكلب، القضاء على الطفيليات التي يعاني منها، وشراء طعام جيد له أمور ستكلفها أكثر بكثير من نفقاتها المتوقعة، كما أن موضوع التطعيمات -كما تخشى- سيظل عالقًا. لكن مهما كان المال الذي ستنفقه، ومهما اختلّت ميزانيتها، فإن أكثر أمر مزعج، بل وأكثر الأمور كُلفة، سيصبح اضطرارها إلى سؤال صاحب البيت عن التطعيمات.

تضع طبق طعام «سيسو» في المطبخ كي يعتادَ على الدخول إلى البيت. تنجحُ أحيانًا في الإبقاء عليه لوقت أطول، راقدًا إلى جوارها، لكن الأمرَ لا يستمرُّ أبدًا وقتًا كثيرًا، كما أنه لا يُبدي على الإطلاق مؤشرات على أنه قد استرخى بصورة كاملة. على كلٍ، تعتبر نات الأمرَ تقدُّمًا كبيرًا؛ أي وجوده هنا قريبًا منه. حين تُمرّر كَفَّ يدها فوق ظهره، تستشعر أسفل شعره الاضطراب الذي يهيمن عليه: يبدو كَفَيْضٍ متقطع، لكنه في نفس الوقت مستمر. يفزع «سيسو» مع أقل ضوضاء أو حركة غير متوقعة تصدر منها، ويفِرُّ بسرعة نيزك، فتجد نفسها في كل مرة مضطرة إلى اكتساب ثقته من جديد.

صباح اليوم، يحدث هذا الأمر تحديدًا: تراه نات يتوتر، ينهض فجأة، يتأوه بصوت خافت ويخرج من المنزل. تتأخر بضع ثوان في سماع صوت سيارة الدفع الرباعي أثناء توقفها، والخطوات التي تعقبها، مقتربة فوق الحصى. إنه صاحب البيت، ومستعد لتلقي الإيجار منها نقدًا، كما اتفقا. هل الأمر فعلًا «كما اتّفقا»؟ تُفكّر بغضب في أنها لم تتّفق على شيء، وأنه أخبرها أن الأمورَ يجب أن تكون بهذه الصورة إن ودَّت أن يخفض سعر الإيجار: لا للتحويلات المصرفية أو الإيداعات البنكية. لقد أمرها حرفيًا بهذا. مثل هذه الأشياء لا تعني لها شيئًا، أليس كذلك؟ بهذه الصورة -بسبب رغبتها في تجنُّب التجادل معه- ها هو الآن داخل البيت، بعد أن قرع الباب بخشونة.

ها هو في البيت دون أن تمنحه إذن الدخول أو أن تنهض حتى لاستقباله. يتلفَّتُ فيما حوله لتفقُّد التغييرات التي أدخلتها، بنصف ابتسامته الساخرة التي تتراقص فوق شفتيه. تفكر نات: إنه رجل هزيل جدًا، ليس له أي قيمة، ورغم ذلك، لديه قوة كافية لتلويث أجواء المنزل في ظرف ثوان. تُخرج مبلغ الإيجار وتسلّمه إليه داخل مظروف.

تقول له:

- من الأفضل أن تُبلغني أنك ستأتي في المرة المُقبلة، فقد لا أكون موجودة.

- يا سلام! لا تُقلقي نفسك بهذا الأمر. إن لم أجدك يومًا ما، سآتي في اليوم التالي.

يجلبُ لها الإيصالات أيضًا: فواتير الكهرباء والغاز شهرية، أما الماء فربع سنوية. يشرح لها أن مسألة إقامتها هنا منذ شهر واحد فقط غير مهمة، فالبيت لم يسكُنْه أحدٌ قبلها، لهذا ففاتورة الماء كذلك مسؤوليتها بالكامل. المبلغ مرتفع، إلى درجة أن يد نات ترتعش حين تمسك بالإيصال.

- أبلغتك سابقًا بأمر الماء الذي يتسرّب من صنبور حوض الاستحمام. يستحيل أن أكون قد استهلكت كل هذه الكمية.

- وما الذي تقترحينه عليَّ إذن؟ أن أدفعها أنا؟

- أقول لكَ فقط إنني لم أستهلك كل هذا وأن الذنبَ ذنبُ الصنبور.

- الصنبور ليس مُذنبًا في شيء يا فتاة. أنتِ تعيشين هنا، أليس كذلك؟ إذن كان عليكِ أن تصلحيه.

كان عليها أن تصلحه. تعرف نات أنه محق جزئيًا، لكنها في نفس الوقت حذرته في اليوم الأول ولم يفعل شيئًا، أو بالأصح فإن الحل الذي اقترحه- أي أن يُصلحه بنفسه- لم يُقنعها. ربما كان عليها آنذاك أن تطلب مساعدة شخص آخر؛ بيتر، على سبيل المثال، لكنه كان ليؤنّبها مرة أخرى على لين

طِبَاعها مع صاحب البيت. ربما كان بإمكانها، بكل بساطة، أن تتّصل بِسَبَّاك، كما يفعل العالم بأسره في مثل هذه الحالات. أيًا كان ما حدث حقًا، فهي لم تعبأ بالأمر، إذ اعتادت على التنقيط المستمر من الصنبور، وانشغلت بأمور أخرى، فآلَ الوضعُ في النهاية إلى ما هو عليه الآن، وهذه المشكلة الموجودة بين يديها.

تقول له:

- حسنًا.

لو أن الأمرَ ممكنٌ، فستدفع الفاتورة مع المبلغ المطلوب في الشهر المقبل. يُهمهم صاحب البيت متذمرًا. لا يشكرها ولو بأدنى درجة، ثم يغادر مُتأففًا دون أن يتفوّه بشيء آخر.

بعدها ببرهة، تتذكر نات أنها لم تسأله عن تطعيمات «سييسو»، وأنها لم تطرح عليه موضوع الفراش الذي تودُّ أن يأخذه، لكنها تقول لنفسها على الفور إن الأمر ليس مهمًا ولن يصنع فارقًا. تُقلقها الاحتمالية المجرّدة لإطالة اللقاء بينهما، ولهذا تُفضل الصمت. ستتعامل مع الوضع وفقًا لإمكانياتها.

يوافق سباك من بيتاكاس على القدوم إلى لا إسكابا في اليوم التالي. صباحًا، وبينما تتثاءب في فراشها، تسمع ضوضاء قادمة من الحَمَّام. تظن في البداية أن «سييسو» قد فَكَّ وثاقه ودخل بحثًا عنها، إلا أنها ترتدي ملابسها سريعًا، وسط تسارع ضربات قلبها، لأن هذه الجلبة ليست صادرة من حيوان، بل إنسان. إنها خطوات، صوت حقيبة يفلتها شخص من يديه، تَنَحْنُح خفيف، وخطوات أخرى فوق الأرضية المُبلطة. تصرخ نات سائلة من هناك وتطل برأسها مرعوبة من باب الحمام. حينما ترى صاحب البيت في الداخل، تفلت منها صرخة أخرى. في البداية، كان الخوف، ومن بعده الغضب، ثم الخوف مجددًا. تصرخ الآن من جديد في حالة تكاد تُقارب الهيستيريا:

- ما الذي تفعله هنا؟

يضحك صاحبُ البيت ويطلب إليها أن تهدأ:

- اهدئي يا فتاة. إنه أنا. الأمر ليس بهذه الخطورة.

يقول لها إنه جاء لإصلاح الصنبور. كان لا بُدَّ من إصلاحه، أليس كذلك؟ ألم تقُلْ بنفسها إن إصلاحه أمر واجب؟ لقد ظَنَّ أنها ليست في المنزل أو أنها نائمة، لأنه لم يسمع أي ضوضاء لدى وصوله.

- لكن لا يُمكنك أن تدخل هنا دون أن تُنَبّهني! بل وأصلًا لا يجب أن يكون معك مفتاح! من قال لك إن بإمكانك فتح الباب وقتما يحلو لك؟

يضحك مجددًا:

- لا تتقمَّصي دور حامية القانون معي يا فتاة. قلت لكِ إنني ظننتك غير موجودة.

يشرح لها أن لديه مهامًا أخرى في لا إسكابا، وأنه لّما رأى البيت مُبكرًا في طريقه، قرر أن يستغل الصباح. يُخبرها أنه لن يستغرق سوى بضع دقائق لينتهي على أي حال، فهي عملية إصلاح بسيطة. هذا الصنبور أصلًا يُمكن لأي شخص إصلاحه. يحدّد كلماته بعدها قائلًا: أي رجل. وهذا لأنها بكل وضوح، عجزت عن إصلاحه. تستمر نات في الصراخ وتُصِرُّ بصوتها الذي شوَّهَتْه العصبيةُ على أنه ليس مسموحًا له أن يدخل بمثل هذه الطريقة، وأنه لا يجب أن يُكرّرَ هذه الفعلة مطلقًا. يزمّ صاحب البيت شفتيه وتزداد نظرته قساوة.

- ما الذي تظنينه؟ أنني سأغتصبك أم ماذا؟

ينظر إليها بازدراء، من قِمّة رأسها حتى أَخْمَص قدميها، ثم يستدير بجسده نحو حوض الاستحمام. ينحني مُتمتمًا، ليواصل العمل بأدواته. يقول بصوت خفيض -إلا أن نات تتمكّن من سماعه بصورة مثالية- إن

الكيلَ قد فاض به من النساء. يضيف: كلَّما قدّمت لهن المزيد، تسوء الأمور. كُلُّهُنَّ مجنونات ومهووسات. يستمر في العمل والتأفُّف. تظل نات متحجّرة أمام باب الحمام. بعدها، تخرج إلى المدخل المسقوف وتنتظر هناك أن ينتهي، دون أن تتوقف عن الارتعاش.

يقول لها بعد برهة:

- انتهينا. هل رأيتِ؟ الأمر لم يكن بهذا السوء.

يرحل بعدها بلا وداع.

تحاول نات، بينما لا تزال جالسة إلى أرضية المدخل المسقوف، أن تكبح قلقها وأن تتمالك نفسها لكيلا تتصل بالشرطة أو ببيبتر، أو بأي شخص كان. تحتضن ركبتيها بذراعيها إلى أن يُفسِحَ هياجها المجال رويدًا رويدًا إلى حالة من الهدوء النوعي. مع كل هذه الأمور، تنسى الاتصال بالسباك، الذي يظهر بعدها بعِدّة ساعات ويقبض منها تكلفة انتقاله -كما تقتضي الأصول- رغم أنه لم يُجْرِ أي إصلاحات.

يعتذر قائلًا:

- تركت زبونًا آخر ينتظرني كي آتي إلى هنا. المجيء إلى هنا أصلًا عِلّة في حد ذاته.

ليس لدى نات أي تعليق، لأن ما يقوله صحيح؛ لأن المجيء إلى هنا عِلّة في حد ذاته.

تقول للطبيب البيطري إن «سيسو» لم يحصل على تطعيماته. تُفضّل الكذب والمخاطرة بتطعيمه مرتين على أن تتحدث ثانية أخرى غير ضرورية مع صاحب البيت. هذا هو المطلوب منها: أن تفتح حافظة نقودها وتنتهي من الأمر في أقرب وقت. مع ذلك، تتبين الآن أن العملية ستكون أبطأ من المتوقع. إنها عملية بطيئة وقاسية، إذ إن «سيسو» يُبدي مقاومة غير متوقعة،

لدى اقترابهم منه بالحقنة. تعتبر نفسها ملزمة بإمساكه، وهم يُلبسونه الكمامة، مرعوبة من الضراوة التي يُبديها حين يفتح خَطْمَه ويُظهر أسنانه. يُقلقها أن ما يحدث يُمثل خطوة إلى الخلف في علاقتهما. ربما لن ينسى «سيسو» خيانتها، والكيفية التي تعاونت بها لإلحاق الأذى به.

تشتري لجامًا، رَسَنًا، عظامًا بلاستيكية، وصافرة تدريب. سيكون تحويله إلى الكلب الودود الهادئ الذي تحتاجه معقدًا، لكنها لن تستسلم بسهولة. لهذا تُنفذ الآن الخطوات اللازمة لتحقيق مرادها. تمنحها ملاحظة هذا التطور -حتى ولو كان عسيرًا أو ضئيلًا- إحساسًا بالرضا الحميمي، كأن أيَّ تقدم يطرأ على الكلب، يعني تقدمها هي الأخرى بصورة غير مباشرة.

رغم ذلك، يُنهكها المساء الأول الذي تُخرجه فيه للتمشية بالرَّسَن، فـ«سيسو» يرتعش بلا توقف، ويلهث كأنه يوشك على الاختناق. لاحقًا، يجلس في منتصف الطريق ويرفض المُضِي قدمًا. تستدير نات وتجره بعد أن قطعت بضعة أمتار فقط. تنجح من بعيد في تمييز بيتر واقفًا أمام باب بيتها، ممسكًا بصندوق. لدى رؤيتها تصل، يُفلت حمولته، وينظر إليها، واضعًا يديه عند خصره، ليبدو كمزهرية بشرية مزودة بمقبضين جانبيين.

- أنتِ أعند شخص رأيته في حياتي. أنتِ تهدرين كل طاقتك بغباء. كيف يخطر على بالك تقييده؟ هنا، لا تسير الكلاب أبدًا وهي مقيدة بِرَسَن.

- كنت أحاول تعليمه فقط. هذا ما أوصاني به الطبيب البيطري، لو اضطررت إلى الخروج به إلى مكان آخر.

- إلى أين ستذهبين به؟ هذا الحيوان سيسبب لكِ المشكلات في أي مكان ستذهبين إليه.

يجلب لها بيتر خضروات اشتراها للتوّ من الألماني. يشرح لها أنها كثيرة جدًا عليه، فالألماني، الماكر جدًا، يبيعها دائمًا بهذا الشكل: في صورة حِصص

كبيرة لكيلا يخسر شيئًا منها. ثمّة فجل، قرع، فلفل، طماطم، ونوع من البصل تعجز نات عن تمييزه. لا يزال تعليقه يؤلمها، لكنها على أي حال تسأله: «الألماني؟» ترتسم في ذكرياتها صورةُ رجل ليس طويلًا جدًا، لديه شارب، يرتدي نظارة، أخرق في مشيته، أسمر، ويتهرّب من أي احتكاك. إنه شخص قد تقاطعت طُرقها معه في بعض المَرّات، ولم يصدُر منه بالكاد سوى مجرد تحية، دون أن ينظر إلى عينيها.

تقول له دون حماس:

- إذن، شكرًا جزيلًا، رغم أنني لا أعرف ما الذي قد أفعله بكل هذه الأشياء.

يُجيبها بيتر: طبق الـ«بيستو»؟ الكريمة الباردة؟ لازانيا بالخضروات؟ هناك ألف وَصْفَة يُمكن أن يطهوها المرء باستخدام هذه الخضروات. لماذا لا تتوقّف عن إهدار وقتها مع الكلب وتطبخ شيئًا لهما؟ يُمكنه هو الآخر أن يحاول إعداد الطبق الثانوي. يُمكنهما تناول العشاء في بيته. بهذه الصورة، سترى مشغله. ما رأيها أن يفعلا الأمر غدًا مثلًا؟ كيف يبدو لها هذا الاقتراح؟

تُومئ نات برأسها موافقة. لقد عرض عليها مرات كثيرة بالفعل أن تزوره في منزله وظلّت تُماطله، لكن هذه المرة مختلفة. إنها دعوة كما تقتضي الأصول: تناول العشاء، الشُّرب، الدردشة، وكل ما قد تتضمنه هذه المسألة. نات ليست بريئة. تعرف كل التلميحات التي يتضمنها مقترح بيتر، ورغم أن شيئًا في داخلها يقاوم- وهو نفور غامض ومستمر- إلا أنها في حاجة إلى الاستسلام، فمنذ اقتحم صاحب البيت المنزل، تنام متوترة وتتخيل أنها تسمع صوت المفتاح في القفل، انفتاح الباب، وخطواته المقتربة. لم تودّ أن تحكي شيئًا لبيتر لأنها تعرف ما سيقوله لها: أن تبلغ الشرطة على الفور. لن يكونَ مرنًا وسيُوبّخُها على سلبيتها وتَهاونِها. هكذا، تُفضّلُ ألا تقولَ له شيئًا

أو أن تحتفظَ بالأمر برمّته لنفسها. رغم ذلك، فإن عملية عزل نفسها ليست بسيطة بمثل هذه الصورة. من الجيّد أن يصبح للمرء أصدقاء. سيمسُّها الجنون، إن لم تفعل هذا. تتساءل هل ما تبحث عنه هي الصداقة فقط، أم الحماية أيضًا، وإن كانت ستشعر بنفس الراحة -أو بنفس القلق- لو أن الدعوة قد جاءتها من امرأة. يُفترض أن أي صديقة ستلعب نفس دوره. إنه أمر لا شك فيه، لكنها على الأرجح لن تُخفف كثيرًا إحساسها بالهجر. تقول في نفسها، في نهاية المطاف، إن بييتر هو من يبدي رغبته في حمايتها. عليها فقط أن تترك نفسها. إنها لا تطلب منه شيئًا، بل هو من يُبدي استعداده لتقديم كل الأشياء إليها في المقام الأول.

يقع بيت بييتر في الجانب الغربي من لا إسكابا، على بُعْد عشر دقائق من بيت نات. إنه مبنى جميل من الخشب، سقفه مثلث، نوافذ شرفاته واسعة، وتحوطه أصصُ الريحان. دواخله منعشة، تبعث على السرور، ورغم وجود أغراض كثيرة، فكلها تشغل مكانها الصحيح ويبدو أن لها وظيفتها ومعناها الدقيق. لدى اجتياز نات غرفة الاستقبال، تقترب منها الكلبة لتتشمّمَ الصينية التي تحملها في يديها.

تقول مُعلنة:

- إنه طبق القرع المحشو باللحم المفروم.

يقهقه بييتر بعلو الصوت، يُمسكها من ذراعها ويرافقها حتى المطبخ. فوق الرخامة، ثمّة صينية أخرى مشابهة. إنه نفس الطبق. يضحكان، تحرك الكلبة ذيلها، وتضع جسدها فيما بينهما، سعيًا وراء مداعباتهما. يتردّد صدى أغنية «My Funny Valentine»، ربما في النسخة التي أدّاها شيت بيكر [1]، إلا أن

(1) شيت بيكر: موسيقار جاز أمريكي بارز في منتصف القرن العشرين. اشْتُهِرَ بموسيقاه الحزينة وإدمانه للمخدرات. (المترجم).

نات لا تسأل، فهي لا تستفسر عن مثل هذه الأمور. يقدم لها بييتر كأسًا من النبيذ ويقودها إلى القبو ليعرض عليها مشغله. هناك أيضًا، كل الأمور مرتبة بعناية، بل وجاهزة للعرض: نماذج، رسومات، قطع زجاجية مُصَنّفة وَفْقًا للون وموضوعة داخل سلال أو صناديق، أدوات معلقة على الحائط، طاولة واسعة عليها واجهة زجاجية لم يكتمل صنعها بعد، ودَلّايات ساقطة من السقف. لو أن الأمر بيدها، ستفضّل نات أن تتفَقَّدَ المَشْغَلَ بمُفْردها، لكنها تستمعُ بأدب إلى شروحات بييتر، الذي يُفصِّصُ أمامها، خطوة بخطوة، عملية تصنيع الواجهات الزجاجية. يقول إن أي واجهة زجاجية بسيطة قادرة على تحسين مظهر أي بيت، مهما كان متواضعًا. بالطبع، لا يتراجع، حينما يكلفونه بشيء أكثر أهمية، حتى ولو كان مؤسسيًا، لكنه يفضّل العمل على نطاق صغير، ومع الأشخاص العاديين. تقترب نات لتنظر إلى الواجهة الموجودة فوق طاولة العمل. ثمة حملان وطيور حمام ترقص حول شجرة وارفة. درجات الأخضر المختلفة في الأوراق تُعطي انطباعًا بالفوضى أو انعدام الموائمة، لهذا فنات غير واثقة جدًا من أنها تروقها. حين ينظر إليها المرء عن كثب، يبدو تكوينها تقليديًا أو بدائيًا، إن صَحَّ التعبير.

– شاغال[1] هو مصدر إلهامي في هذه المجموعة. أقصد تحديدًا الواجهات الزجاجية التي صنعها لجامعة هداسا في القدس. أفترض أنكِ على دراية بما أتحدث عنه. هذه الواجهات مشهورة جدًا...

ليس لدى نات أي فكرة عَمَّا يتحدث عنه، لكنها تومئ برأسها كأنها تفهم، ثم تستدير نحو الحائط الذي تستند إليه واجهات زجاجية أخرى منتهية وجاهزة بالفعل للتركيب، ضمن نفس المجموعة. يشرح لها بييتر أنها لمكتبة،

---

(1) مارك شاغال: فنان يهودي روسي. ارتبط اسمُه بعدد منه المدارس الفنية ويُعَدُّ أحد أنجح فناني القرن العشرين. (المترجم).

ولهذا نقش عليها أبياتًا لبابلو نيرودا، ماريو بينيدتي، فيسوافا شيمبورسكا. تقرؤها نات بهدوء قبل أن تسأله:

- ومسألة الواجهات الزجاجية هذه، هل تكسب منها ما يكفيك كي تعيش؟

تندم نات بمجرد إنهاء عبارتها، فهي تكره أصلًا أن يُوجّه أحدٌ إليها هذا النوع من الأسئلة المخادعة. لكن يبدو أن بييتر لم ينزعج، بل على العكس، إذ يجيبها بسعادة وفخر:

- بالطبع!

ينفق القليل جدًا من المال على المواد الخام، فأغلبية قطع الزجاج التي يستخدمها مُعَادٌ تدويرها. يعثر في القمامة بالطبع على أقيمها. يدافع عن التقشُّفِ كأسلوب حياة. شعاراته هي: عدم الاستغناء عن شيء، استغلال كل شيء، احترام الأرض، الاستهلاك بأدنى قدر ممكن، والتوغُّل لأقصى قَدْر ممكن.

يقول بعدها:

- لديَّ حَدْسٌ يُخبرني أننا متشابهان جدًا في هذا الأمر.

بعد هذه العبارة، تجِدُ دغدغةُ القلقِ مُستقرًّا لها داخل نات.

تتراجع شكوكها أثناء العشاء. ربما هو النبيذ، لكنه أيضًا لُطف بييتر، الذي يبدو قريبًا، بل وظريفًا، إذ يجعلها تضحك كما لم تضحك منذ فترة. مع ذلك، بينما يرفعان الطاولة، وهو ينزع سِدَادة زجاجة نبيذ أخرى، وهي تنظر إليه بطرفي عينيها، إذا بها تتعثر مجددًا في أحد أغراضه التي لا تروقها. تجعلها هذه المسألة برمتها تتراجع خطوة أخرى إلى الخلف. لا يرتبط الأمر بمظهره، لأن جَسَدَه بالفعل جَذّابٌ وقوي، كما أنّ صلابةَ عُوده مثيرةٌ جنسيًا بصورة لا تقبل الشك. من جانب آخر، لا يُمكِنُ إنكارُ أنّه لديه كل ما يؤهله ليثير

إعجابها: إنه جَارٌ جيّد، شخصيته ساحرة، مُطّلعٌ على الكُتُب، الموسيقى، الأفلام، وكل ما هو مُسَلّم سلفًا بكونه مثيرًا للاهتمام في ذلك العالم؛ العالم الذي وردت منه. إذن ما الأمر؟ تتساءل نات لِمَ يعيش بمفرده؟ لماذا لم يأتِ بَعْدُ على ذكر أي امرأة؟ يصلُ بها الأمر إلى التفكير في كونه مِثْليًا. مع ذلك، تأخذ بعدها الكأس التي يقدمها إليها، تبتسم، وتُرغم نفسها على إبعاد كل أحكامها المسبقة.

يخرجان إلى الحديقة لتأمُّل النجوم. إنها ليلة صافية، لذا تظهر مَجَرّة درب التبانة وسط العَتَمَة، هائلة ونقية. تلتمع أطرافُ العُشب المَكْسُوّة بالضوء الليلي وتهتَزُّ بفعل النسيم. تجلسُ الكلبةُ إلى جوارهما، بينما يسيل لُعابها، بكل جمالها ورَوْنقها، رغم تقدُّم سِنّها. يتأمّلُ ثلاثتهم السماءَ في صَمْت. تُتمتم نات: يا للجمال! وإذا بها تُفكّر في نفس الوقت في الدورة الشهرية. إن جاءت اللحظةُ المنتظرة، ستُخبره أنها في أيام الدورة الشهرية.

يلتفت إليها ويتفحّصها بابتسامة مختلفة.

– هل يحقُّ لي أن أسألك بخصوص أمر ما؟

– بالطبع.

– لِمَ أتيتِ إلى لا إسكابا؟

تتلعثم نات. ألم تُجِب عن هذا السؤال من قبل؟ لِمَ يفترض العالم بأكمله وجود أسباب خفية؟ تتجرع كأسها، دون أن تنبس ببنت شفة. يعتذر بييتر. يقول لها إنه لا يسعى إلى التدخل في شؤونها. إنها ليست مضطرة إلى أن تحكي له شيئًا، لو أنها لا ترغب، لكن إن واتتها الرغبة، فعليها أن تعرف أنه سيكون غاية في السعادة من سماع قصتها.

تقول في النهاية:

– تركْتُ عملي. لم أعد أطيقه.

- في أي مجال كنتِ تعملين؟

تتراجع نات. لا تودُّ أن تقدّم تفاصيل أزيد من اللازم. تقول إنه كان عملًا مكتبيًا. ترجمات تجارية، مراسلات مع عملاء أجانب، أشياء من هذا القبيل. لم يكن الأجْرُ سيئًا. الأمر فقط أن العمل كان بعيدًا عن اهتماماتها. يشعل بيتر سيجارة ويَزُرُّ عينيه مع أولى نفثاتها.

- إذن أنتِ شجاعة.

- لماذا؟

- في الوقت الحالي، لا يستقيل أحدٌ من وظيفته.

تنزعج نات من ثنائه عليها. ربما كانت لتقبله في ظروف أخرى، لكن لأنه صدر من بيتر، تكتسحها رغبةٌ في التمرُّد على قبوله، وهذ لأن ثناءً مثل هذا، حين يأتي من فمه، يبدو لها مسمومًا. تفكر في أن إدراكَها الضبابي بفعل الكحول ربما هو ما يجعلها تتعاطى مع الأمر هكذا؛ باعوجاج. تقول له: لا. إنها ليست شجاعة. لم تستقل من عملها طواعية. ليس بصورة كاملة. هل يرغب في معرفة القصة الحقيقية؟ إنه أمر يودُّه بيتر بالطبع، لهذا يميل الآن في اتجاهها.

لقد سرقتْ شيئًا ما. لقد سرقته وهي في غنى عنه، من تلقاء نفسها. لم تفهم قط السبب الذي دفعها إلى ارتكاب السرقة. لم يرتبط الأمر بتحدٍّ اجتماعي، ولا حتى بدافع الجشع. كان الغرض الذي سرقته موجودًا هناك، وقرَّرت ببساطة أن تأخذه. كان يخُصُّ أحد ملاك الشركة، أو بالأصح، زوجته. إنه غرضٌ قيّم نَسِيَتْه في إحدى زياراتها. بعدها، تبيّنت نات أن إرجاعَه مُعقّدٌ، لأنها حتّى لو رغبت أن تفعل هذا الأمر- وهكذا كانت رغبتها بالفعل- فإعادةُ الأمور كلها إلى نصابها مسألةٌ مستحيلة. كان بإمكانها أن تُردَّ ما سرقته، لكن ليس دون تبعات. لهذا فضَّلت أن تُطبقَ فَمَها، إلى أن أمسكوا

بها في نهاية المطاف. استدعوها جانبًا وتصرَّفوا مع الأمر بتحفُّظ. حتى تلك اللحظة، كانت موظف جيدة، مؤهلة ومسؤولة، لهذا سألوها فقط عن مبرراتها، التي لم تستطع أن تُقدّمها. قالوا لها: حسنًا. قد لا يعرف المرء أحيانًا السبب وراء بعض أفعاله، أليس كذلك؟ دفعها كلُّ هذا اللطف في التعامل معها إلى الشَّكّ. عجزت عن تصديق أن إنذارًا بسيطًا هو ثمنُ ما فعلته. رُبّما تَوَسَّطَ أحدٌ ما للعفو عنها، وسيُعلِّمها لاحقًا بالخدمة التي قدَّمها إليها. لو أنَّ هذا صحيح، فخَلاصها له ثمنه. لم تكن واثقة من استعدادها لدفعه. لم ترغب في أن تستمر في مكان سينظر إليها الكُلُّ فيه، بداية من تلك اللحظة، بتأفُّف وتكبُّر، خاصّة وهي تعلم بالمَسْكُوت عنه، وأنها لو استمرت في العمل هناك، فسيكون الأمر بفضل سخاء وتعاطف رؤسائها، وتحت بنود جديدة في عقد غير مكتوب بينهم.

يسمعها بيتر، بينما يومئ برأسه، مُنغمسًا في قصتها، لكن حين تفرغ نات من الحديث، لا يفعل شيئًا سوى تكرار ثنائه المبدئي: إنها شُجاعة. أيًا كان ما تقوله فهي شُجاعة لأنها قَرَّرت الانفصالَ عن كُل شيء. لو أن شخصًا آخر في مكانها، لطأطأ رأسَه. إنه واثقٌ تمامَ الثقة من الأمر. ليس عليها أن تشعُرَ بالذنب، فأحيانًا، تفُضي بعض الأخطاء إلى صواب؛ إلى تغيير مجرى الحياة، بل وحتى إلى وقوع انكشاف جديد. أليس وجودها هنا لتبدأ حياة جديدة صائبًا؟

يقرعان كأسيهما ويشربان، وإذا فجأة بظِلّ الصمتِ يُخيّم عليهما، فيفسد معه الهواء. تفكر نات: «حياة جديدة!»، فتشعر فجأة بالخجل. صحيحٌ أن كلَّ ما حكته حقيقي، لكنها تمكّنت بسبب طريقة حكايته- أي اختيار الكلمات، إيقاعها، التوقُّفات الضمنية بينها، والالتفاف حولها- من تغطية الحكاية بهالة مُزوّرة تُثيرُ اشمئزازها. تُفكّر نات في أن احتياجَها الدائم إلى

تبرير أفعالها أمرٌ مؤسف.

لدى إدراك بيتر انهيارها، يغير دفَّةَ الموضوع بلطف ويسألها عن عملها الحالي؛ عن الترجمة. تشرح له أنه أول تكليف تتلقاه. تُنقح كلماتها لاحقًا: إنه أول تكليف يتعلّق بترجمة أدبية. لم يسبق لها قط مواجهةُ شيء مثل هذا. بالتالي، يمكن اعتبار أنها في مرحلة التجريب. تثق دار النشر التي عرضت عليها المشروع في قدراتها، إلا أنها قفزة نوعية. الأمر لا يُمكن إنكاره. الترجمة التِّجَارية مجرّدُ عملية إجرائية صِرفة، أما ذلك الموجود بين يديها الآن...فهو شيء يرتبط بجوهر ونخاع اللغة نفسها.

بيتر ليس مهتمًا بالاستطرادات النظرية، بقدر اهتمامه بالكتاب نفسه، لهذا يسألها عن موضوعه. هل هي رواية؟ أم كتاب مقالات؟ ما هو هذا الكتاب؟ تقول نات إن شرح ما يتناوله ليس أمرًا ممكنًا، إذ إنه لا وجود لموضوع مُمتدّ يُمكن اختصارُه في جملة أو اثنتين. إنها أعمال مسرحية قصيرة جدًا، تبدو وكأنها تخطيطية، ولها نبرتها الفلسفية. لم تكتبها المؤلفة في لغتها الأم، وإنما بلغة الدولة التي لجأت إليها، لهذا فمستوى اللغة بدائي جدًا، ويكاد يكون مُسطحًا. في البداية ظنَّت نات أن الأمر ميزة في صالح الترجمة، إلا أن النقيض بدأ ينكشف لها الآن، فهي صعوبة إضافية، إذ تجد نفسها مُجبرة على تبيّن إن كان ظهور كل كلمة غير متوقعة أو مُبهمة مَرَدّه جهل باللغة، أم هو تأثير مقصود من المؤلفة بعد عملية تأمُّل حادّة. المشكلة، أنه لا توجد طريقةٌ للتحقق من الأمر.

– أليس في إمكانك أن تسألي المؤلفة؟

تنفي نات برأسها باستياء. لقد ماتت هذه المرأة. على الأرجح، الأمور أفضل بهذه الصورة، لأن المؤلفة وفَّرت على نفسها مشقَّة رؤية الأذى الذي تُلحقه نات بكتابها.

يبتسم بيتر، ينظر إلى السماء ويقول إن الترجمةَ مهنةٌ لطيفة، قبل أن يضيف: إنها شيقة، نافعة وضرورية. يترك كأسه جانبًا وينظّف كلبته من لُعابها. تسمح له أن يفعل الأمر بوداعة. داخل هذه السكينة التي تسكن سلوك بيتر، تكتشف نات رهافةً هائلة، لكنها رهافة مُصطَنَعة ومُنتحَلة. لن يترك «سيسو» أحدًا أبدًا ليُنظّفه بهذه الصورة. ربما لهذا السبب تحديدًا يفعل بيتر ما يفعله مع كلبته: لتوضيح الفوارق. لدى انتهائه، يملأُ كأسها مجددًا. تفكّر نات وسط حالتها الضبابية: إنه يدفعني إلى الثُّمالة. من بعيد، تتشكّل كلمة «هكذا» ووراءها جملة كاملة: «هكذا تبدأ الخدع»

لماذا لم يَحْكِ لها بيتر شيئًا عن نفسه؟ لماذا يقتصر الأمر فقط على استقصائه لدواخلها ومحاولته أن يتسلّلَ إلى قلبها؟ من أين يأتي بكل هذه السُّلطة ليُملي عليها نصائحه؟ تُعلن قرارها بأن ساعة الرحيل قد حانت، إلا أنها تدرك مدى دوختها، بمجرّد وقوفها. تُحاوِلُ أن تُخفي ترنُّحَها، بينما يُرافقها بيتر إلى الحمام، حيث تَمْكُث برهة من الوقت إلى أن يزولَ أثرُ الكحول عنها بعض الشيء.

كان الوقت قد تأخّر، حين عرض عليها بيتر أن يُرافقها إلى بيتها. يتركها الآن عند الباب. يسألها هل هي بخير، فتُومئ برأسها وتشكُره. يلمس بيتر وجنتها بنعومة ويتمنى لها ليلة طيبة. يقول لها أن ترتاح. هذا هو كل شيء. نات مندهشة، بل ومُحبطة. ألن يُقبّلها؟ ألن يحاولَ حتّى أن يُقبّلها؟ أليس من المفترض أن ينتهي المطافُ بهما في الفراش؟ أليس هذا هو المتوقّع والمنتظر من رجل؟ ما الغرضُ إذن من أغنيات سام كوك ومايلز ديفيز؟ ما الغرض من كل هذا النبيذ ولمعان درب التبانة؟ لقد جهّزت عذرًا من أجل لا شيء، لكن.. هل كانت تودُّ أمرًا مختلفًا عَمَّا حدثَ للتو؟ لا. بكل تأكيد لا. لكن هذا أيضًا ليس ما تودّه: تَعَثُرها عند المدخل، خطواتها الخرقاء، دوختها، ووحدتها

الكاملة في البيت المقفول. تترنّح نات في طريقها إلى الفراش وحينئذ تسمع شيئًا ما. ثمّة ضوضاء تقترب منها من بين الظلال. تشعر فجأة كأنَّ قلبَها سيسقُطُ بين ساقيها، إلى أن تلاحظ «سيسو» وهو يلعق يدها، لكن بعد أن فقدت السيطرة على رعشتها. إنها أول مرة يُبدي فيها الكلبُ أمارةَ مَودّة، بهذا الاستقبال. تقرفص أمامه بسعادة، تبكي وتتحدث معه:

- لقد أفزعتني.

تُعانقه، فيُدخِلُ شَعْرَه الخشن في أنفها وعينيها، ورغم ذلك، تستمرُّ في معانقته، بقوة شديدة إلى درجة أن «سيسو» يفرُّ منها في النهاية مُزَعْجرًا.

منذ تلك الليلة، باتت علاقتها مع بيتر وثيقة. مسألة أنها كشفت له أمورًا معينة، لا تمنحها الأفضلية، إلّا أن اللا تناظر القائم بينهما الآن لا يُقلقها، وهذا لأنها لم تَحْكِ له أزيد أو أقل من اللازم. لم يتبدّل سلوكُه معها بعد الاعترافات، بل إنه أصبحَ أكثرَ بشاشة ومودّة. يقضي الاثنانِ يومَهُما يتبادلان الرسائل، وتذهب نات أحيانًا لتزورَه في بيته، دون حاجة إلى دعوة. تفعلها حينما يحلو لها أو حين تشعر بالملل، لكنها تتكتَّم أمامه، منقادةً بحدسها، على المعلومات التي تراها غير ملائمة. على سبيل المثال، لا تتحدّث معه عن تقدُّم «سيسو» البطيء ولا عن خوفها من صاحب البيت، فلأي سبب قد تُقدِمُ على الأمر أصلًا؟ لا يبدو مَيْلُ بيتر إلى التدخل في كل شيء ونبرته الناصحة المرتكزة على صوت خبرته المفترضة خطيرًا بالصورة التي قد تمنع صداقتهما. يفعل كل هذه الأمور فقط لأنه رجل، لأنه أكبر سنًا، لأنه قضى وقتًا أكثر منها في لا إسكابا، ولأنه صديق لأشخاص تكاد نات ألا تفقه أسماءهم.

في تناقض صارخ، يُساهم ما تجلَّى أثناء العشاء -أي غياب الانجذاب الجنسي- في التقريب بينهما. رغم ذلك، تدُقُّ أجراسُ الخطر داخل نات، نتيجة لعدم اهتمامه بها، فالأمر إشارة على أنها بدأت تفقد قوة ظلّت تمتلكها،

حتى تلك اللحظة، دون أن تدرك أهميتها. يُقال إن الجاذبية الإيروتيكية، شأنها شأن المال، إذ تظل تتسرَّبُ من بين يديَّ المرء دون أن يدري إلا بعد اختفائها، ليتفحّص نفسَه بعدها في المرآة بنظرة تخلو من الرحمة، ويُقيّم كل أجزاء جسده أو وجهه، محاولًا أن يضع يده على مكمن الخطأ. عليها أن تعترف أنها قد أهملت نفسها منذ وصلت إلى لا إسكابا: شعرها خشن، غير مُصفف. ملابس العمل ليست أيضًا في صالحها. لم تكتسب بشرتها لونًا برونزيًا من ساعات العمل التي تقضيها تحت الشمس، وإنما أصيبت بالاحمرار والجفاف. لكن لا بد أن هناك شيئًا آخر. لا بد أنه شيء آخر يرتبط بصورة أكبر بالسن وثِقل الوقت، وليس مروره.مكتبة .. سُر مَن قرأ

تُفضل ألا تفكّر في الأمر. تُنحّي هذه الفكرة جانبًا، شأنها شأن أمور أخرى كثيرة، وهكذا تتركها هناك، محجورة.

أحيانًا، يداهمها إحساسٌ بأنّ صاحبَ البيت استخدم المِفتاح مرة أخرى ودخله في غيابها. لا يُوجد أيُّ دليل يثبت الأمر. ما من شيء تغيّر مكانه أو آثار لخطاه، إلا أن ثقل الاحتمالية المجردة -وهي احتمالية حقيقية كما رأت بأمّ عينيها- يكفي ويزيد لإصابتها بالغم. تجتهد لتتحلَّى بالعقلانية لتبديد شكوكها ولكيلا تصبحَ مهووسةً بالأمر. مع ذلك، يكفي فقط أن تُغلق عينيها وترخي وعيها كي يخيّم ظله مجددًا بالطول والعرض على كوابيسها.

ثمَّة حلم متكرر تكتشف فيه نافذة إلى جوار فراشها. إنها جديدة وظهرت بين ليلة وضحاها. دَرْفَتُها الخارجية نصف مفتوحة، لكن ثمة ستائر بيضاء تحجب الرؤية منها جزئيًا. يتراءى من وراء النافذة -أو عبر ذلك القليل الذي يُمكن رؤيته منها- مشهدٌ طبيعي يَصْعُبُ التعرف عليه، لكنه واقعي جدًا. الأمر ليس واحدًا على الدوام: إنها أحيانًا جبال جليدية أسفل سماء حالكة، وفي مرات أخرى بحر هائج، أو تكتُّلٌ لبنايات شاهقة مضاءة بالكامل تبدو

كأنها فوق هضبة. حينما تحاول مبهورة أن تنهَض لترى الأمرَ بصورة أفضل، تُدرك أنها مُقيّدةٌ إلى رأس الفراش -أو قاعدته أو سيقانه- بأحزمة معقودة حول معصميها. لا تبدو الأحزمة شيئًا جمًا، إلا أنها تشلُّ حركتها بالكامل. لا تعرف نات من الذي قيَّدها أو في أي لحظة حدث الأمر. تتأمّلُ العُقَدَ التي تضغط على أوردتها، الخدوش التي خلَّفتها في بشرتها، وأصابعها الخاملة، الخدرة من توقُّف دوران الدم. يُفسِحُ الخوفُ مجالًا لنفسه داخلها. في تلك اللحظة بالضبط، تسمع انفتاح الباب، دخول رجل ما، خطواته البطيئة، وجرجرته لقدميه، كأنه ليس لديه أيُّ نية للاختباء. تتساءل نات أين هو «سيسو»، ولماذا لم ينبح ليُحذِّرَها؟ تنجح، دون أن تتحرَّكَ من على فراشها، في رؤية الرجل الذي يتمشَّى في كل أنحاء بيتها؛ ذلك الذي يبدو أضخم بكثير مما هو عليه فعلًا، بِعِدّة غرف كانت تجهل في الأصل وجودها: غرف خلفية، غرف علوية، وغرف صغيرة داخل غرف أخرى. ترى الرجل، أو بالأصح ظهره. ترى قفاه العاري المنتصب يتجول في كل الأنحاء ويُدنّسها بوجوده المُجرّد، لكنها تعجز عن تمييز وجهه. يقترب الرجل من فراشها، فينمو شيء ما في حنجرتها وينتفخ، ليُضعف صرختها، إلى أن تختنق.

تنهض غارقة في عرقها، أطرافها متيبسة، ولثتها جافة. تختلط ضوضاء الليل مع إدراكها المرتبك: صهيل حصان متوتر، نعيق بومة، صرصرة جداجد الليل، والكلاب؛ الكلاب التي تُطلق نباحها على بعضها دائمًا.

لكن الأسوأ، هي الأصوات التي تكتشفها، بل وتبحث عنها، داخل البيت، في كل يوم، وكل ليلة، سواء حلمت أو لا. الطقطقة، الصرير، دخول الهواء من دِرَفِ النوافذ، ضوضاء المروحة، خطوات «سيسو»، أظافره التي تضرب الأرضية الخشبية القديمة لمدخل البيت المسقوف، أو دورانه حول الوتد الذي قيّدته إليه. لا يرتبط أيٌّ من أشكال هذه الضوضاء بصاحب

البيت، لكنها تُبقي على حذرها. لدى عودته، ومعه فواتير الشهر الثاني، تجده يقرع الباب فعلًا في هذه المرة. تشعر نات بارتياح هائل إلى درجة أنها تدفع المال دون أن تنبسَ ببنت شفة. تقول في نفسها إن الوضع أفضل هكذا. ليس عليها أن تطلب شيئًا، ستنتهي الأمور سريعًا، ولن ترى وجهه حتى الشهر المقبل.

بعد كل هذه الأيام، وكل هذا التجول، باتت نات تعرف الطرق، البيوت، من يسكنونها، وكل هذه الأمور بحذافيرها، إلا أن ذلك الإحساس بأن شيئًا ما يتسرب من بين أصابعها، وأن هناك أمورًا لا تقدر على رؤيتها بعد، لا يزال قائمًا. طيف جبل إل غلاوكو موجود في كل مكان، أيًا كانت الجهة التي تنظر إليها، وحتى إن أعطته ظهرها، فهو هناك، يترصَّدُها. يقول لها بييتر إن الفرار من هذا الجبل غير ممكن، إذ يبدو كأنه يراقب المرءَ طوال الوقت. مع ذلك، يطلب إليها أن تتخيّلَ لا إسكابا من دون إل غلاوكو: ستصبح مجرّدَ أرض منبسطة، منعدمة الشخصية، ومتطابقة مع غيرها من الأراضي. يؤكد لها بنبرة العارف ببواطن الأمر أن الاختلاف هو ما يزعجها، فتتفهم نات أن كلًا منهما يتحدث عن أمر مختلف، كالعادة.

ثمَّة بيت مهجور يلفت انتباهها جدًا. كُتبت على جدرانه نصف المتهدّمة بأحرف كبيرة حمراء كلمات «عقاب الرب» و«عار». يحكي لها بييتر أنه منذ فترة كبيرة سكن هذا البيت شخصان: أخ وأخته، لكن دارت شائعات حول أنهما في علاقة زنا محارم. وصلا إلى لا إسكابا بعد أن هربا من قرية أخرى وأقاما هنا لعدة سنوات، دون أن يختلطا مع أحد. كانا في حالة فقر، إذ لم يمنحهما أحد عملًا، وظلا يحاولان قدر الإمكان تفادي السباب والهجمات ضدهما. يحكي بييتر أن بعض الأهالي كسروا ذات مرة نوافذ البيت بالحجارة، وفي الثانية أضرموا فيه النيران. الرجل، وعمره آنذاك نحو خمسين عامًا، مات

فجأة من سكتة قلبية، أما أخته، الأصغر سنًا، التي عانت على الأرجح من تأخُّر عقلي، فقد رحلت بعدها بعدّة أيام، تاركة المنزل على حاله. على الفور، توجَّه الأشخاص الذين كانوا ينبذونهما باشمئزاز إلى المنزل للاستيلاء على كل الحوائج التي اعتبروها نافعة، قبل أن يدمروا بقيّتها بِحَنَقٍ في محرقة كبيرة. بعد ذلك، جاءت مسألة الكلمات المكتوبة.

يسارع بيتر بتوضيح إن كل هذه الأمور حدثت منذ فترة بعيدة. الأمر أشبه بأسطورة حضرية. إنه لم يشهده بنفسه، وإنما يحكي تفاصيله وَفْقًا لما سمعه. لا يجب أن تأخذ انطباعًا سيئًا عن لا إسكابا، فالأمور تغيّرت كثيرًا منذ ذلك الحين، إذ أصبح الأهالي أكثر تسامحًا وتحضُّرًا. تفكر نات في أنه لو أن ما يقوله صحيح، كان لا بد أن يشغلَ أحدٌ ما باله بِمَسْح المكتوب فوق الجدران، لأن بقاءه هكذا، على مرأى من الجميع، يجعله يبدو كتذكِرة، بل وحتى كإنذار.

قد تقضي النهار بطوله تتجول هنا وهناك دون أن تصادف أحدًا سوى مجموعات العمال، الغجري الذي يجمع الخردة ويؤدي بعض المهام، خواكين العجوز زوج روبرتا، أو الألماني الذي -حسبما تظن- يذهب بشاحنته إلى بيتاكاس لتوزيع خضروات بستانه. لولا بيتر، فمن المحتمل جدًا أنها كانت لتقضي أيامًا كاملة دون أن تتحدث مع أحد. حتى فتاة المتجر فقدت اهتمامها بها، لأنها لم تعد شيئًا جديدًا، إذ يقتصر ما تفعله على محاولة التمَلُّص منها بأقصى سرعة بينما تنظر إلى شاشة التلفاز المعلقة في أحد زوايا المتجر. تنبعثُ من مَلَلِها هالةٌ مظلمة من الإحباط. تراها نات وهي تجذب أصابعها حتى تُطقطق، وهي منغمسة في الدندنة بصوت خافت. يعكس مُحيّاها المراهق كيف ستبدو وهي خمسينية أو ستينية، حينما تصبح مثقلة بنفس نوبات الصداع التي تعاني منها أمُّها. تودُّ نات أن تكون لطيفة معها، لكن لا يخطر

على بالها أي شيء تقوله.

تذهب أحيانًا إلى حانة «الرجل السمين» مع بييتر. إنه مجرد مخزن سقفه من الأسمنت الليفي ولا يُضيئه سوى مصباح واحد بضوئه البارد. يشربان الجعة مع الرجال الموجودين هناك، وأغلبهم من المزارعين وعمال البناء، وهم قوم يتحدثون عن شؤون لن تضيف لنات شيئًا. يتحدث بييتر معهم بِعَفْوية، لكنها تظن أنه يتصنَّعُ الأمرَ كي يُصبحَ في مستواهم. يأخذ «الرجل السمين» أحيانًا مالًا أكثر من المفترض، وفي مَرَّات أخرى لا يُحاسبهما على أي شيء. لا يسمح لأحد بالتجادل معه حول هذا الأمر. يحمل مزاحه مع زبائنه دائمًا صِبْغةً عدائية ومستفزة، ومع ذلك، يضحك الكل دون أن يشغلوا بالهم بشيء، بما فيهم نات. صحيح أنها لن تذهب إلى هذا المكان بمُفردها أبدًا، لكن الوضع مختلف مع بييتر.

تكثر الحركة في العطلات الأسبوعية، فيشغل المنزل المتاخم لنات المُسَمَّى بـ«إل شاليتيتو» [1] -كما يظهر على اللافتة الملونة الموجودة فوق سياجه- زوجان شابان لهما ابنان صغيران: ولد وبنت. يقضي الطفلان النهار في الحديقة وهما يزعقان في بعضهما، وكأنها الطريقة الطبيعية أو الطريقة الوحيدة الممكنة للتواصل. الجارة، وهي امرأة ممشوقة القوام وثرثارة، تبدو ودودة، لكنها تنظر إلى نات بِشَكّ، ربما لعدم فهمها بالكامل سبب وجودها هنا؛ في هذا البيت الحقير، مع هذا الكلب النفور، دون أي وسائل للراحة. صنع بييتر، الذي تجمعه صداقة بالزوجين، منذ فترة واجهات نوافذ بيتهما العلوية التي تُكسب دواخله، تبعًا لسقوط الضوء، دفئًا وصِبْغة مائلة إلى الحُمْرة أو

---

(1) "إل شاليتيتو" أو بالإسبانية "El Chaletito" معناها "الشاليه الصغير" وفضلت كتابة الكلمة بمنطوقها بالإسبانية ليبدو طريفًا بالعربية كحاله في النص الأصلي مع توضيح المعنى في الهامش. (المترجم).

إلى اللون البرتقالي. تحكي الجارة لنات أنها ورثت «إل شاليتيتو» بصورة مفاجئة من شقيقة جدتها. حاولت هي وزوجها في البداية بيعه، لكن الأمر لم يكن ممكنًا. لم يرغب أحدٌ في شراء بيت متهالك ومظلم مثل هذا. لهذا قَرَّرا، كما تحكي لها الآن وهي تتنهّد، استغلال الإمكانيات المتاحة لديهما وإجراء بعض الإصلاحات، كي يستمتع الطفلان على الأقل بحياة في الهواء الطلق. زوجها، الذي يبدو متحمسًا أكثر منهما ويقُصُّ الحشائش بانضباط لا تشوبه شائبة، يشغل وقته بإنشاء بيوت صغيرة وأراجيح للصغيرين.

تسعد نات كثيرا، كلما جاء يوم الاثنين، لأنها يمكنها أن تمكث في هدوء مجددًا.

ذات أحد، يستضيف الجاران حفل شواء يدعوان إليه أشخاصًا كثيرين، كلهم تقريبًا من المدينة وجاؤوا إلى لا إسكابا صراحة ليحضروا هذا الحدث. نات وبييتر من ضمن المدعوين أيضًا. يروق لنات أن تحضر الحفل، لكنها لاحقًا تنزوي في خجل، لتشرب وتراقب البقية من ركن ما. لا تتفهم جيدًا مسألة أن كثيرًا من المدعوين يتمشُّون في الحديقة بأردية السباحة. تقول في نفسها إنه أمر غير منطقي، لأنه لا يوجد مسبح، أو حتى مسبح قابل للنفخ، وإنما خُرْطُوم يُرطبون به أنفسهم كلما مَرَّ بعضُ الوقت، أو يستخدمونه للعب، كأنهم أطفال صغار. تُفكّر في أن ثمَّة شيئًا بذيئًا هنا: خلاعة عرض الأجساد المعيبة شبه العارية المبتلة. يتحدّثون عن الطعام والسياسة، دون فواصل انتقالية بينهما، وأحيانًا عن الأمرين في نفس الوقت. يتظاهرون بأنهم على اطّلاع بكل الأمور، ما يجعل نات تنزوي أكثر. يقترب بعضهم منها لسؤالها عن حياتها. لقد لَفَتَ وجودها في لا إسكابا انتباههم، في ظل غياب مبرر واضح له. يظن آخرون أنها خليلة بييتر الجديدة، ويتعاملون بالتبعية على هذا الأساس، باستخدام كلمة «أنتما»، وهي مسألة لا تشغل بالها بتكذيبها.

يبدون جميعًا منجذبين إلى فكرة العزلة الريفية ويلبسونها ثوبًا رومانسيًا. حينما يقولون تعليقًا يُثني على الأمر، تشعر نات برغبة في الرَّدِّ عليهم وقول إنها هنا فقط لأنه أرخص مكان وجدته. لاحقًا، تكتشف نظرة الجارة التي تراقبها، من الطرف الآخر من الباحة.

ينتحي بييتر بها جانبًا ويقول:

- أخشى أنها غيورة. زوجها لا يتوقف عن الحديث عنكِ. ألم تلحظي الأمر؟

صحيح. لقد لاحظت الأمر بالفعل، فهو من اضطلع بتقديمها أمام أصدقائه، بل وفعلها بفخر حين نطق اسمها. هو أيضًا من أصَرَّ على إبراز تفاصيل معينة، مثل أنها عملت باجتهاد لإصلاح المنزل، ومسألة إنقاذها كلب مُشرد وكونها مترجمة. كذلك، شغل باله بتقديم الشراب لها، كمضيف لا غبار عليه، لكنه في نفس الوقت أهمل بقية المدعوين. تفكر نات مسرورة في أن كل شيء لم يَضِعْ بعد، ومع ذلك، تتضمن سعادتها جرعة من السخرية، فالأمور واحدة على الدوام، لهذا تعجز عن تفادي رؤيتها كلها من منظور خارجي: ينطلق الذكر دائمًا لصيد فريسة جديدة بغرض إسقاطها وإجبارها على الاستسلام من فرط الإعجاب. يظن غالبًا أن نظرته ثاقبة ولهذا نيته الأبدية هي الإغواء، لكن هذا الذكر الموجود أمامها ظهره معوج، قدمه مسطحة، وتتجلى سخافة قصَّة شعره المتواضعة حين يستدير. تفكر مُستمتعة: «يا لسخافة بعض الرجال»!

يُشجعها بييتر في يوم آخر على المشاركة في اجتماع أهالي القرية. لن يحضره كُلُّ سُكَّان لا إسكابا، لكن لو ذهبت، سيصبح لرأيها مكان. تسأله نات بتحفظ: أي نوع من الاجتماعات هو؟ إنها مستاءة من الطابع الإلزامي المختبئ خلف دعوة بييتر ولا تعرف في نفس الوقت ما هو دورها كأحد

أهالي القرية، إذ تعتبر نفسها مجرد شخص وصل مؤخرًا، لا صوت له ولا قوة. يشرح لها بييتر إن لا إسكابا قرية متروكة بين أيدي الرب، رغم وجود عُمدة لها، وهو كما خَمَّنت، صاحب المتجر، الذي يُحب أن تكون له الكلمة العليا، أكثر مما يجاهر بالأمر فعليًا. على أي حال، لا تُفيد سلطته كثيرًا، لأن بقية السكان، عليهم أيضًا أن يمسكوا بزمام الأمور لمطالبة مجلس بلدية بيتاكاس -المسؤول الإداري الحقيقي عن لا إسكابا- بأن يفعل شيئًا. ثمَّة تناقض مثير للسخرية: من يقف وراء الاجتماع هما صاحبا «إل شاليتيتو»، بييتر نفسه، وبعض السادة المحترمين الجدد. لقد استخدم هذا التعبير تحديدًا: السادة المحترمين الجدد، وهم، وَفْقًا له، قوم لديهم رغبة في تحسين الأمور، لكن أي أشياء؟ تسأله نات فعلًا: «أي أشياء؟»

- لا أراكِ متحمسة جدًا.

- الأمر ليس هكذا، وإنما كوني لا أعرف ما هو دوري في هذا الاجتماع. أنا مجرد مستأجرة. على أي حال، أظن أن صاحب البيت هو من يجب عليه أن يذهب.

- صاحب بيتك لا يشغل باله بالأمور الموجودة هنا. أنتِ تعرفين طِباعه.

صحيح. إنها تعرف طِباعه. تعرف أيضًا أن بييتر مُحِقّ جزئيًا، لكن يشُقُّ عليها في نفس الوقت الاعتراف بالأمر. يُلَمّح لها إلى ضرورة تحسين خدمة جمع القمامة، ومسألة إضاءة الشوارع -شديدة الخطورة ليلًا- وبالمثل إلى المخاطر الناجمة عن كل هذه المطبَّات والحفر التي تستهلك إطارات السيارات.

- إطارات سيارتك أنتِ الأخرى، أليس كذلك؟

تومئ نات برأسها موافقة. الأمر صحيح. وإطارات سياراتها هي الأخرى. هكذا، توافق في النهاية على حضور الاجتماع.

ينعقد الاجتماع في المتجر. تندهش نات لدى وصولها من أن المكان يكاد

ألا يتَّسعَ للجميع، رغم أن الحضور لا يشمل كل سكان القرية كما أخبرها بييتر. الغجريان، على سبيل المثال، ليسا موجودين. تستشعر أنهما مشكلة في نظر بعض السكان كَحَال المطبَّات أو أكثر منها. «الرجل السمين» أيضًا ليس موجودًا، فعلاقته على ما يبدو ليست جيدة بصاحب المتجر. يهمس بييتر في أذنها قائلًا إنهما يودَّان أن يقتلا بعضهما. يصل العجوز خواكين مع روبرتا، على الأرجح لأنه لا يوجد أحدٌ ليتركها معه. ليس أفضل أيام العجوز، ففي منتصف الاجتماع أخذت تتحدّثُ بصورة غير متناسقة، بصوتها المكسور. ورغم أنها تصيغ عباراتها بصورة مثالية وتستخدم كلمات لها ثقلها، إلا أنه ما من رابط حقيقي يجمعها. إنها مفردات لها معانٍ مُحدّدة وواضحة مثل: خزوف البحر، تعكر أو غدة. تتذكر نات أن هذه الكلمات تحديدًا ظهرت في وثائقي بَثَّه التلفاز ظهرًا. إنه وثائقيٌّ مُمِلٌّ جدًا يتحدَّث عن جزر الأنتيل، لكن لا بُدَّ أنه لفت انتباه العجوز إلى أن فكّكها من الداخل، لأن طريقة كلامها تنطوي على نبرة سؤال مُلِحّة. هذا هو ما يبدو أنه تقوله: ما الذي يعنيه كل هذا؟ لِمَ يتحدث هؤلاء القوم عن أشياء لا تعرف كُنْهَها؟ عن أشياء مثل الأرصفة، أعمدة الإنارة، وحاويات القمامة، بينما كل ما يدور داخل رأسها هي لقطات من المحيط وكلمات لا ترابط فيما بينها.

بينما تتحدّث زوجته، يقتصر كل ما يفعله خواكين على الانتظار دون أي إحساس بالخجل، واثقًا في أن الكل سيفعل نفس الأمر -أي أنهم سينتظرون مستسلمين بكياسة- لكن نات تلاحظ نفاد الصبر، النظرات المنخفضة، وتَنَحْنُح البعض هنا وهناك. يبتسم بييتر بتسامح، ويتهامس صاحبا «إل شاليتيتو» فيما بينهما، في حين يومئ صاحب المتجر برأسه. وحده الألماني، الذي يستند إلى بعض كراتين المُعلَّبات، يبقى دون أدنى تعبير، برأسه المحني، مُحدّقًا في حذائه، الذي يُحرّكه من جانب إلى آخر ببطء. تصُبُّ نات تركيزها عليه. كيف يحضر الاجتماع في ظل عزلته والاستقلالية التي يبدو عليها؟ إنها

لا تعرف لِمَ أطلقوا عليه هذا الاسم: الألماني، خاصة وأنه ليس ألمانيًا وليس في مظهره شيئًا يجعل المرء يفترض مسبقًا أنه ألماني- وَفْقًا للصورة الكاريكاتورية السائدة بالطبع- فهو ليس طويلًا ولا أشقر ولا قوي البنيان. على العكس، إنه رجل ضئيل الحجم، أسمر البشرة، شعره خفيف بعد أن تَسَحَّب الصلع إليه. أنفه مفلطح وقبيح، شاربه مائل نحو الأسفل، ولا تجعله نظَّارة قصار النظر التي يرتديها يبدو غريبًا عن المكان على الإطلاق، وإنما محليًا ومن أبنائه بصورة لا شَكَّ فيها. الألماني اسم شهرة، كالـ«هيبي» في حالة بيتر، و«الساحرة الشمطاء» في حالة روبرتا. يُجيدون في القرى مسألة اختيار أسماء الشهرة. أليس كذلك؟ تتساءل نات هل لديها هي الأُخرى اسم شهرة، إلا أنها ليست متيقّنة حقًا من رغبتها في معرفة الأمر.

تكتشف وسط كومة الحطب أفعى ملتفَّة حول نفسها. إنها أفعى غليظةُ الشفتين وثمَّة قرن غريب فوق فمها. وجهُها عابسٌ وحادّ. تقفز نات نحو الخلف. سمعت في طفولتها أن سمَّ هذه الأفاعي مميت وقادر على قتل الإنسان في ظرف نصف ساعة. عليها أن تُبعدها عن هنا في أقرب وقت، إلا أنها تخاف أن تنقضَّ عليها إن حاولت قتلها. علاوة على ذلك، كيف لها أن تقتلها؟ تنفر من فكرة ضربها بعصا. تذهب للبحث عن العون، لكنها تستغرق بعض الوقت في العثور على أحد يمُدُّ لها يَدَ المساعدة. بيتر في بيتاكاس وعُمّال البناء الذين تسألهم مشغولين. يتعهَّد أحدهم بالمرور على بيتها، بمجرد أن ينتهي مما يفعله، لكن نات لا يمكنها أن تنتظر. في النهاية، تنجح في جلب الغجري الذي لا يتعذّر بأي شيء، وإنما يمضي معها سريعًا ومستعدًا، بينما يُشمّر كُمّيه. لم تتحرك الأفعى من مكانها، في سباتها أسفل الشمس الساقطة مباشرة فوق كومة الحطب. تظل ثابتة بلا حراك ومترقبة في الوقت ذاته، كأنها استشعرت الخطر مسبقًا، بعينها الذهبية وبؤبؤها العمودي المرعب. يستخدم الغجري حجرًا ليدهسها حتى الموت. تلتمع الدماء فوق حراشفها الممزقة، فيَقْشَعِرُّ

جسدُ نات من الغثيان حين ترى الأمر، لكن الارتياح الذي تشعر به يتغلّبُ على نفورها. تفتح محفظتها لتعطي الغجري إكراميته، فيرفع يده، بهدوء، وربما مهانًا أيضًا:

– دَعْكِ من الحماقات. هل لم أقتل شيئًا مثلها من قبل؟ لو أنني في كل مرة فعلتها، دفعوا لي، لأصبح لديَّ سيارة «أودي» وشاليه من ثلاثة أدوار.

سيخبرها بيتر لاحقًا أن الغجريَّ لم يكن عليه أن يقتُلَها: الأفاعي غليظةُ الشفتين ليست سامة، والقول إنها كذلك مجردة أسطورة. يتعلق الأمر بالأحكام المسبقة والمخاوف التي لا أساس لها. إنه نفس الشيء الذي يحدث دائمًا. يقول لها كل هذه الأمور بينما يُحرّك رأسه بِحُزن. هل تعتقد حقًا أن أفعى يقِلُّ طولها عن نصف متر ستهدر سمَّها –سمها الغالي والنادر– لتلدغَ إنسانًا؟ الإجابة هي لا، فأفعى مثل هذه لن تهاجم أحدًا قط، إلا إن ضايقها، كما فعلا هما الاثنان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تسأله نات:

– إذن ما الذي وجب عليّ فعله؟

– لا شيء. أن تتركيها في سلام، أو أن تُمسكيها بعناية وتضعيها في مكان آخر. إن هذه الأشياء تعيش هنا من قبلنا، أليس كذلك؟

تُخبره نات أنه مُحِقّ، إذ لا يوجد خيار أمامها سوى هذا، لكنها تفكر: حتى هذه الأفعى الملعونة تتمتع بحق الأفضلية على هذه الأرض، أما هي، فمهما مَرَّ الزمن، ستظل دخيلة.

ذات ليلة، تغير الرياح اتجاهها ويبرد الجو. تجلس نات للقراءة عند مدخل البيت المسقوف. تذهب في البداية لتجلب سُترة، لكنها لاحقًا تدخل إلى البيت بعد أن خَدَّرها البرد. في البداية، سقطت قطرات كبيرة دافئة وبعدها بعدة دقائق أخذ المطر ينهمر، لترتفع من الأرض المبتلة رائحة

جديدة مُفعمة بالأمل. تبتهج نات كطفلة. تشعر أنها وصلت إلى نهاية مرحلة ما -أولى المراحل وأقساها- وأن المطر يأتي ليحدد بداية المرحلة التالية، الواعدة، لكن سعادتها تستمر وقتًا قليلًا، بمجرد رؤيتها للقطرات المتسربة من السقف وتَشَكُّل بركة فوق الأرضية تزداد حجمًا مع كل دقيقة. تركض بحثًا عن بعض الدّلاء. لدى عودتها بشعر وملابس، مبتلين، كان الوَحْلُ قد بدأ يتشكّلُ بالفعل في داخل المنزل. تقول إنه أمر لا يُصدق. ما الذي يفعله المرء في مثل هذه الحالات؟ كيف لم تدرك الأمر من قبل؟ ألم ترَ ألف مرة البُقعَ الصفراء الموجودة في السقف؟ ما الذي ظنّته؟ تقضي نصف الليلة تفرغ الدلاء وتضعها مجددًا في مكانها إلى أن توقف المطر وتمكنت من الاستلقاء لترتاح قليلًا. نومها متقطع، خشية أن ينهمر المطر مجددًا. تعرف أنها هذه المرة ليس لديها حل سوى إبلاغ صاحب البيت. مع حلول الصباح، تجد السماء صافية دون أثر للغيوم. هل يُمكنها أن تؤجل الأمر، على الأقل حتى المرة التالية التي يأتي فيها بالإيصالات؟ مع بعض الحظ، لن تمطر حتى ذلك الحين. من الأفضل للمرء أن ينتظر وألا يوقظ الوحش قبل أوانه. تعرف أنها تتصنع أعذارًا أمام نفسها لكيلا تواجه المشكلة، لكنها في نفس الوقت تقول لنفسها: إنها ليست أعذارًا. إنها حقائق. لا تُنبئ السماء بأنها ستمطر مجددًا. إنها عاصفة أغسطس التقليدية. لا يوجد شيء لتقلق بخصوصه في الوقت الحالي.

توقعاتها صائبة. لا تسقط ولو نقطة واحدة في الأيام التالية. بهذه الطريقة، تتمكن من نسيان الموضوع تقريبًا، إلا أنها على أرض الواقع لم تَنْسَه بصورة كاملة، ففي كل مرة ترفع نظرتها إلى السقف، عليها أن تواجه البقع، بمظهرها الذي يبدو كَبَوْلٍ مختلط بالجير ويثير اشمئزازها. مع انتهاء الشهر، يحضر صاحب البيت بِبِزَّةِ عملِه العَفِنَة. تُظهر له نات البُقعَ، فَيَزُرّ عينيه ليراها. تحكي له ما حدث في ليلة انهيار المطر: مسألة البِرَك والدلاء. تشرح له أن هذا

هو السبب وراء تعفُّن خشب الأرضية. إنه دليل لا يُمكن دَحْضُه، كما تفكر، ولا يمكن لصاحب البيت أن ينكره.

- حسنًا يا فتاة، لكن عواصف مثل هذه لا تهُبّ كل يوم.

- لا تهب كل يوم. صحيح.. لكن قد يحدث الأمر مرة أخرى. أرغب في قول إنها ستمطر مرة أخرى بكل تأكيد في الخريف الحالي، أليس كذلك؟ ربما لن تمطر بمثل هذه القوة لكن توجد تسريبات وهنا.. (تتلعثم الآن) الأرضية تكاد أن تضيع.

ينظر صاحب البيت إلى صدرها، وهي تتحدث معه. تفكر نات في أنه يفعل هذا الأمر عن قصد، ليزعزع استقرارها، ليُهينها. يقول لها، بعد أن زَمَّ شفتيه، إنه إن تعفَّنت الأرضية فهي ليست مشكلتها، فهو صاحب البيت، أليس كذلك؟ إنها مجرد مستأجرة. يكرر الكلمة مرة أخرى: «مستأجرة لم تفعل شيئًا سوى الشكوى منذ وصولها».

يضيف:

- ما الذي تودَّين مني أن أفعلَه؟ هل تظنين أنني قادر على إجراء إصلاحات بالإيجار القذر الذي تدفعينه؟

تشعر نات أن روحها تكاد تنفجر من داخلها، إلا أنها في نفس الوقت عاجزة عن إبداء ضيقها. ترغب في أن تكون حاسمة، إلا أن كلامها يبدو مرعوبًا ومليئًا بالشك.

- إذن؟ حينما تمطر مرة أخرى، عليَّ أن أضع الدلاء وانتهينا؟

- بالضبط!

يشير إليها بإصبعه، فتجد نفسها تنهار. يلتهب حلقها وتشعر بحكّة تشتعل في كامل جسدها، حتى في عينيها. هل ستبكي؟ لا. لا يجب أن تسمح بهذا. عليها أن تقاوم هذه الرغبة بأي صورة.

- أعتقد أن كل هذا لا يبدو لي طبيعيًا.

- نعم؟ لا يبدو لكِ طبيعيًا؟ وما هو الذي يبدو لكِ طبيعيًا يا فتاة؟ أن تأتي وسط الريف، لكن مع رفاهيات العيش في المدينة؟

يبدأ بعدها في مخاطبتها بصيغة الجمع، وهو يحرك ذراعيه بقوة ويلُفُّ ويدور في المكان:

- أنتن صِنْفٌ واحد. تُفكّرن في أن الريف ليس سوى سماء صافية تملؤها النجوم ليلًا وخِرَاف وديعة في الصباح. بعدها، تخرجن بمسألة البعوض، الأمطار والعشبة الخبيثة. اسمعي.. لقد خفّضت لكِ السعر أكثر من اللازم، أم أنني لم أخفضه لكِ؟ هل نسيتِ بالفعل؟ حينما عانيتِ من مشكلة، ألم أحُلّها لكِ؟ ألم آتِ لأُصْلِحَ لكِ الصنبور؟ ويا سلام! حينها بدا الأمرُ لكِ مفجعًا. لا يوجد من قد يفهمكنَّ! اسمعي.. لديَّ شؤون أخرى أكثر أهمية. ناوليني الشهرية واتركيني لحال سبيلي.

تسدّد نات الإيجار له، فيرحل صافعًا الباب. حينئذ، تبكي والغضب يملؤها من عجزها عن تفهُّم ما الذي يُرعبها في هذا الرجل. إنه سيئ التربية وخسيس وليس لديه سلطة حقيقية عليها. ألا يبدو بوضوح أنه أدنى منها؟ عديم الثقافة، قذر وفقير. ما الضرر الذي يقدر على إلحاقه بها؟ لِمَ يؤثر عليها بمثل هذه الصورة؟ تبكي، وفي نفس الوقت، تحاول إقناع نفسها بأنه ربما لن يقع أي تسريب آخر. ربما بعض الدلاء في الأيام السيئة حل كاف. ربما انهيار المطر بهذه الصورة أمر خارج عن المألوف. ربما الأمر فعلًا ليس مشكلة حقيقية ويمكنها أن تتحمل بضعة أشهر. البيت ليس بيتها. إنه أمر صحيح. ستغادر المكان إن عاجلًا أم آجلًا، وإلى أن يحدث هذا، فمن الأفضل أن تعيش في هدوء، ألا تشغل بالها، وألا تسمح لأي شيء بتعكيره. هذه ستصبح طريقتها في التغلب عليه، في الارتقاء فوقه.

لكن البقع لا تزال تتحدث عن نفسها. هذه المرة، الألماني هو من يراها حين يقرع بابها ليعرض عليها صندوقًا من الخضروات. يتركها عند المدخل، يتوقف أمام ألواح الخشب الفاسدة، يرفع نظرته، ويحدّق في السقف. يقول مُبديًا ملاحظته:

- ثمّة تسريبات هنا.

يتحدّث بطريقة مميزة تتصادم فيها مقاطع الكلمات بخشونة أو بنوع من السرعة، فيما بينها. يطلب إليها مقعدًا، دون أن ينظر إلى عينيها، ويصعد فوقه ليرى الأمر عن قرب. تتأمّل نات حذاءه الغليظ والمُهمَل -نفس الحذاء الذي ارتداه في الاجتماع- وهو يشرح لها سبب المشكلة:

- المظهر يوحي بالكامل بأن هذه المشكلة موجودة منذ فترة. أنا متأكد من وجود قراميد كثيرة مكسورة في الأعلى. التحقُّق من الأمر واجب، وكذلك معرفة هل توجد طريقة لإصلاحه، لكن أظنُّ أن الأمر غيرُ وارد. حينما تكون مناطق التسريبات سطحية، يكفي تغطية القراميد بالقار أو الجير، لكن أخشى أن الأمر هنا أكثر تعقيدًا. ما الذي قاله لكِ صاحب البيت؟

- قال إن التسريبات تحدث فقط حين تمطر، إنها ليست مشكلته، وإنه لن يفعل شيئًا.

ينزل الألماني من فوق المقعد ويهُزُّ رأسه:

- حين تمطر مرة أخرى، حتى ولو كانت أربع قطرات، سيفيض الماء عليكِ مجددًا. يمكنني أن أحُلَّ المشكلة لكِ.

تروق نات مسألة أنه لم يُبدِ رأيَه بخُصوص سلوك صاحب البيت. يُعجِبُها أنه لم يصدر عليها حكمًا وأنه لم يصف الوضع بالعدل أو الظلم، وبالمثل إنه لم يحثها على مجادلة صاحب البيت للدفاع عن حقها. يتعامل الألماني مع الوقائع ويصُبُّ تركيزه على الوضع القائم أمامه، دون أي تفسيرات، ورغم ذلك،

فإن سلوكه هذا، هو ما يدفعها للإفصاح عن مكنون صدرها والاحتجاج:

- أن أتحمّلَ مسؤولية الأمر انتهاكٌ صارخ. لا بُد أن يضطلعَ هو بحله، أليس كذلك؟ إنه بيته.

- صحيح، لكن أنتِ من تعانين من المشكلة. يمكنني أن أساعدك. أتحدّث بجدّيَة. أعرف كيفية إصلاح الأمر.

لإثبات ما يقوله، يحكي لها بالتفصيل الإجراء الواجب اتباعه: في البداية، تقييم مدى الشرخ، وبعدها البحث عن قراميد مشابهة وتركيبها في المنطقة المتضررة، وفي النهاية تسيير الماء الفائض في قناة، لكيلا يتكرّرَ الأمر على الإطلاق، وهو أمر يمكن فعله بشِبَاك أو مزاريب. سيدرس الأفضل من بين الخيارين لاحقًا. لكنهما ليسا صديقين، هكذا تفكر نات. سيجب عليها أن تدفع له. كم سيكلفها شيئًا مثل هذا؟ لا تمتلك مالًا كثيرًا، لكنها لن تقبل خدمات. ليس الأمر أنها لا تثق فيه، لكنها لا ترغب في أن تدين له بشيء. تقول:

- لا أعرف إن كنتُ قادرة على السماح لنفسي بشيء مثل هذا.

يظلُّ الألماني صامتًا. تشُكُّ نات في أن اللحظة التي سيعرض فيها القيام بالأمر مجانًا تقترب، لكن بعد مرور عدّة ثوان، يُخبرها أنه يتفهّمها، وأنه هو الآخر، غير قادر على حساب تكلفة النفقات بالضبط قبل أن يبدأ. لا يوَدُّ أن يُخرِجَها من أزمة ليضَعَها في أزمة أخرى. يرفع كتفيه وينظر للمرة الأولى إلى عينيها. تخلو النظرة من الإحباط، الاستسلام، فيها فقط قليل من الخجل واللطف، وربما الاستحياء. ربما هو الآخر في حاجة إلى النقود ورأى أمامه فرصة ليتحصَّلَ على مال إضافي. يبدو لها شخصًا أمينًا، لكنه في نفس الوقت، غير مناسب. كل ما عليها الآن هو أن تعقد أصابعها وأن تأمل ألا تُمطر، مع شراء دلاء إضافية، ويستحسن أن تكون أكبر، تحسبًا للظروف. تُسدّدُ له ثمن

الخضروات، تشكُرُه، وترافقه إلى خارج المنزل.

لن تتوقّفَ نات عن تذكُّر ما سيحدث بعدها بساعتين بأدق تفاصيله، لأنها ستحتاج ألا تنسى منه شيئًا، ألا تُحرفه الذاكرة، وألا تُفسده أو تُلبسه قناعًا. سيتردّد في ذكرياتها صدى كلمة «حق»[1] وجملة «حق الإنقاذ»[2]، وكلاهما من حوار كانت تترجمه في تلك اللحظة، إذ تعترض إحدى الشخصيات بقولها: «ليس لديك حق في إنقاذ من يحلو لك»، فتجيبها الشخصية الأخرى: «إنه ليس حقًا، بل واجبًا». بينما تكتب نات هذه الكلمات، تسمع شخصًا يناديها، فتنهض وتخرج. إنه هو، الألماني. رغم أن باب السياج مفتوح، إلا أنه ينتظر عند المدخل ولا يتقدم. تلاحظ أنه غيَّر ملابسه: سروال أزرق نظيف بدلًا من السروال الرمادي الباهت، وقميص بيج مستهلك شبه شفاف، بدلًا من ذلك الأسود الذي تتوسّطه دعاية ورشة سيارات. لا يبتسم، لكنه في نفس الوقت لا يبدو جادًا. توحي ملامحه بأن تركيزه مُنْصَبّ على شيء ما. إنه شيء سيفعله أو سيقوله وقد يبدو ظاهريًا أنه لا يرتبط بها مباشرة. تُفكر في أنه ربما نسي شيئًا هنا، أنها نسيت أن تسدّد له ثمن الخضروات، أو أنه في النهاية سيعرض عليها إصلاح التسريبات مجانًا، كما افترضت في المرة السابقة. تتيقن من أن الأمر يتعلق بالخيار الثالث، حين تراه يرفع نظرته نحو السقف. تفكر في أنها مسألة متوقعة، لكن بداية من تلك اللحظة ما من شيء سيغدو متوقعًا.

يقول:

– لا أودُّ أن تشعري بالضيق.

تتوقف عبارته عند الكلمة الأخيرة، وهو ينظر إلى السقف بعينيه المتجهمتين بفعل الشمس. يقترب «سيسو» منه ببطء ويتشمم طرف

(1) وردت في النص الإسباني مكتوبة بالفرنسية. (المترجم).

(2) وردت في النص الإسباني مكتوبة بالفرنسية. (المترجم).

سرواله.

- أشعر بالضيق؟ لماذا؟

يبحث عن الكلمات المناسبة. لا ترتبط مسألة تأخره في العثور عليها بانزعاجه من فحوى رسالته، وإنما، على وجه الخصوص، بعدم حسمه للغة التي سيُوظّفها للبوح بها. تنتظره نات أن يتحدث، حائرة، ولا مبالية نوعًا ما؛ كأن ما سيقوله أو سيقترحه -لأنها تعرف بالفعل أنه سيقترح شيئًا ما- لن يؤثّرَ عليها على الإطلاق.

- أفترض أنه سيكون لديكِ الحق في الشعور بالضيق. إنها مخاطرة بالنسبة لي.

تفكّر نات: «إنه ليس حقًا، بل واجبًا» لكنها تبتسم وتُشجّعه على الحديث:

- قُلْ ما ترغب في قوله، أيًّا كان. هَيَّا قُلْه. لا توجد مشكلة.

حينئذ يتحدّث. يقول لها إنه وحيد منذ فترة. مرَّت فترة طويلة عليه من دون امرأة. هكذا يُقوم عبارته. العيش في لا إسكابا أيضًا لا يُسهّل الأمور، خاصة في ظل شخصيته المنعزلة قليلة الكلام. لا يستخدم حقًا هاتين الصفتين، وإنما يقول فقط: «شخصية كشخصيتي». لا يرتبط الأمر بأنه في حالة سيئة، أو أنه حزين أو محبط. المسألة ليست هكذا، فهو قادرٌ على المُضي قدمًا في الحياة بمفرده. لطالما كان هكذا، لكن وجود احتياجات معينة للرجال أمرٌ لا يُمكن إنكاره. ينكسر صوته قليلًا، حين ينطق هذه العبارة، لكنه لا يلبث أن يستعيد رباطة جأشه. يواصل كلامه قائلًا إنه أيضًا ليس شابًا، فهو أكبر منها بنحو عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا، يقول عبارته هذه، بينما ينظر إليها وكأنه يُقيمها. لا يعتبر نفسه عجوزًا، لكنه لا يرى نفسه قادرًا على استمالة أحد. يبتسم بخجل، وتُخمّن نات أن مَرَدَّ ابتسامته ليس معنى ما يقوله وإنما تعبير «استمالة» شديد القدم، والخارج عن الإطار، وغرضه

التلطيفي الزائد عن الحَدّ. يُقوم عبارته مرة أخرى بقوله إنه لا يرى نفسه قادرًا على جذب النساء. يتوقّف عن الابتسام. يوضّحُ أنه لا يرغب أيضًا في اللجوء إلى العاهرات، فالموجودات في بيتاكاس، بائسات، كما أن الأمر برمّته يثير فيه نفورًا. حينها، تومئ نات برأسها بصورة آلية.

يواصل الألماني حديثه بقوله إن الأمرَ بسيطٌ جدًا، أو إنه يجب أن يكون كذلك، رغم أن الرجال والنساء غيرُ معتادين على تناوله بمعايير بسيطة. لا يتجرّأ أحدٌ على التحدث بوضوح، فالطبيعي والشائع هي النوايا الخفية. يُفكّر في أنه يُمكنه آن يتحدث معها دون مواربة. إنه مجردُ حدس. قد تُسيء فهمَه وتشعر بالإهانة وقد تُحسن فهمه وتشعر أيضًا بالإهانة. لا يعرفها بصورة كافية كي يتوقّع ردّ فعلها، لذا فالطريقة الوحيدة لمعرفة الأمر، هي أن يتقدّم. ينتظرُ بضعَ ثوان، مُستقصيًا نظرتها، ثم يقول:

- يُمكنني أن أُصلِحَ لكِ السقف مقابل أن تتركيني أَدْخُلُكِ لِبُرهة.

ستظل نات تكرر هذه الكلمات بعدها، مرة تلو الأخرى، إلى درجة أنها ستخشى من كونها محض خيال ابتكرته. لم يقل «مقابل أن أنام معكِ»، ولم يستخدم تعبيرًا آخر له نفس المعنى أو غير مهين بهذه الصورة. ما طلبه هو أن «تتركه يدخلها». ليس حتى أن «تتركه يدخل فيها»، وإنما أن «تتركه يدخلها»! إنها طريقة غريبة لاقتراح المسألة، ولا يبدو أن مَرَدَّها استخدامٌ معيب للغة، فهو في نهاية المطاف ليس ألمانيًا فعلًا! تكرر نات كلماته في عقلها. «أن تتركيني أدخلك لِبُرهة». هذا هو ما قاله. «لِبُرهة». ترمش نات. تحتاج أن تستمعَ إلى المزيد، أو أن تستمع إلى الأمر أكثر من مرة كي تفهمَه، إلا أن سلوكَه، بذراعيه الساقطتين، ساقيه المفتوحتين، نظرته المتواضعة والمُتملّصة، كلها أمور تشير إلى أنه أنهى حديثه وينتظر منها ردًا.

- وكيف سيحدث هذا الأمر بالضبط؟

ينظر إليها الألمانيُّ للحظة. يحاول أن يبتسم، لكن نتيجة المحاولة ليست سوى مجرد إيماءة. هل هي إيماءة ارتياح؟ أم هي إيماءة رضا لأنها لم تغضب؟ تعجز نات عن تفسير الأمر.

يوضّح الألماني بعدها: «مرة واحدة». يكرّر: «لِبُرهة»، ثم يقول: «أقل شيء ممكن»، قبل أن يضيف:

– لن أزعِجَكِ أو أضايقَكِ. أنتِ لستِ عاهرة. لا أرغب في أن تظني أنني أفكر فيكِ هكذا.

يتردّد قبل أن يكمل حديثه:

– الأمر فقط أنني أوَدُّ أن أدخلَ فيكِ لِبُرهة. سيكون الأمر بسيطًا: سترقدين أنتِ وسأُنهي أنا الأمر سريعًا. هكذا فقط. مَرّت فترة طويلة على آخر مرة كنت فيها مع امرأة. جسدي يحتاج الأمر. فكرت في أنني قد أطلبه إليكِ.

ستتذكر نات أيضًا هذه الكلماتِ، برودتَها، قصرَها، طابعَها الحاسم، وجفاءها. كان بإمكانه أن يُقولَ ما يُقال في مثل هذه الحالات. كان بإمكانه على سبيل المثال أن يقول إنها تعجبه، إنه منجذب إليها، وإنه خاطر بمثل هذا الطلب المباشر لمّا وجد نفسه عاجزًا عن كبح انجذابه إليها، لكن ما معنى هذه العبارة: «فكرت في أنني قد أطلبه إليكِ»؟ إنها لا تعني شيئًا! لم يطلب الأمر إلى نات لأنها تعجبه، وإنما لأنه يحسبه أمرًا يُمكنه أن يطلبه إليها. إذن، من الذي لا يُمكنه أن يطلب إليه شيئًا مثل هذا؟ أو بالأصح: من الذي لا يمكنه أن يطلب إليه شيئًا كهذا لأنه يعتقد أنه لا يجب أن يطلبه إليه؟

تترك نات غضبها يقودها، وبالمثل نفاد صبرها. تفعلها بمهارة لا تخلو من العفوية. يستغرق ردُّ فعلها لحظة واحدة فقط. تبدو حاسمة في رفضها، الذي تبرعم جافًا وخشنًا، بصورة كادت أن تفاجئها:

- شكرًا، لكن إجابتي هي لا.

يقول لها إنه لا توجد مشكلة ويرحل في سلام، دون أن يُصِرَّ على طلبه، لكن أيضًا دون اعتذار. تودعه نات هي الأخرى، وكأن شيئًا غريبًا لم يحدث، لكنها حين تعود إلى الطاولة، تجد نفسها غير قادرة على استئناف العمل.

لن تتمكَّنَ من استئنافه إلا بعد عدّة أيام.

II

تمطر. ليس مطرًا قويًا، بل هادئًا ومستمرًا، دون تقلب في حِدّته. يبدأ الأمر في منتصف الليل. تُجبر نات «سيسو» على الدخول إلى البيت، تضع الدلاء، وتظل منتبهة إلى إفراغها قبل أن يفيض الماء منها. تنبعث حرارة رطبة ولزقة من ألواح الأرضية الخشبية فتجعلها تنعس وتغرق بتثاقل في حلم معقّد. إنه حلم تستأنفه بعد كل انقطاع، لكن الحلم نفسه لا ينقطع بالكامل. فيه يهرب «سيسو» وعليها أن تركض وراءه، لكنها حافية والشيء الوحيد في متناول يدها مُجرّد حذاء جلدي غليظ، كذلك الذي يرتديه الألماني. ليس أفضل حذاء ممكن، إذ تتقدم به بصعوبة، لأنه ثقيلٌ إلى درجة أنها ترفعه بمشقة من فوق الأرض. لا يصنع مدى يأسها فارقًا، وبالمثل مدى سرعتها، لأنها لم تعُدْ ترى الكلب ولا تسمع سوى أنينه، الذي يخفت بمرور الوقت. حينما تستيقظ، تدرك أن أنينَ «سيسو» حقيقيٌّ واختلط مع الحلم، لكن ماذا عن الحذاء؟ هل هو حقيقي؟ تفكر في أنه ليس حلًا للمشكلة، سواء كان حقيقيًا أم لا.

يختفي المطرُ صباحًا ومعه الانكشاف. تتأمّل نات السماء: تتراكم فوق إل غلاوكو غيوم كثيفة سوداء. لن يستغرق الأمر كثيرًا من الوقت كي تمطر مجددًا، لكن الآن، في وضح النهار، يُمكنها أن تهدأ. تُفكر في أن التسريبات ليست مهمة جدًا. عليها فقط أن تضع الدلاء حين تستدعي الحاجة. لا شكَّ أن هناك قومًا يعيشون في أوضاع أسوأ ويمضون قدمًا، بلا شكوى. لا يزال مقترح الألماني، صوته -صوته وهو يقدم مقترحه- يتردّد في رأسها، لكنه لا

يُعكّر بالها. الألماني موجود هناك، في ذاكرتها، بنفس طريقة وقوفه عند مدخل بيتها منذ عدة أيام، بينما يتحدّث بصدقه المفاجئ. تنظر إلى موضوعه بنفس الطريقة، دون عواطف.

تستمرُّ العاصفة طوال الأسبوع، إلا أنها لا تخرج عن السيطرة في أي لحظة. تُمطر وتتوقف. تمطر وتتوقف، في عملية تبادلية هادئة وجيّدة لحقول المزروعات. مع ذلك، ما تزال التسريبات المستمرة، لعدم وجود فُسحة زمنية يجِفُّ فيها السقفُ بين كل مرة تُمطر فيها. تقضي نات ساعات وساعات منتبهة إلى الدلاء ولا تخرج من البيت إلا لشراء الأساسيات. تتعاقب الأيام ويتراكم معها الإرهاق. تنظر إلى السماء مهزومة ويتكاثف الغَمُّ المتنامي داخلها.

ذات ظهيرة، تخرج لتُنشّطَ ساقيها، استغلالًا لانقطاع المطر وانقشاع الأفق إلا من سحب بيضاء. يرافقها «سيسو» حتى السياج، لكنه يظل ثابتًا عنده بلا حراك، رغم مناداتها له بإصرار. في النهاية، تقول له منزعجة:

– إذن لتبقَ هنا. الذنب ذنبك.

ينظر إليها الكلب، وتمضي مبتعدة عبر الطريق. رغم برودة الجو، ترتدي نات ملابس صيفية. مجرد بنطلون قصير وقميص قطني. تعقد ذراعيها لتحمي نفسها من الهواء وتواصل السير والرياح تضرب وجهها. تمر أمام بيت بيتر وتكاد ألا تنظرَ إليه أصلًا. تتقدّم بحسم، منغمسة في ذاتها، كأنها روبوت، لكنها ليست بلهاء إلى درجة إنكار معرفتها التامة بوجهتها. إنها تعرف بالفعل إلى أين تمضي، لكنها لا تعرف المبرّر والقصد من ذهابها. كذلك، تجهل منبع ضيقها، أو بالأصح غضبها.

ثمّة فكرة غير ثابتة تتواثب داخل رأسها بسرعة لا تتيح لها التقاطها وتفهمها. ترتبط هذه الفكرة بالتبادلات البدائية أو المقايضة كعلاقة اجتماعية أساسية. تتساءل ولِمَ لا؟ ثمة شيء له عذوبته هنا. إنه شيء جوهري وإنساني.

المنزل الذي تتوقف أمامه يشبه منزلها كثيرًا، متواضع، من طابق واحد، ونوافذه منخفضة. الفارق الأساسي هو أن باحته خلفية وليست أمامية، لهذا تجد نفسها الآن تقف مباشرة أمام الباب، الموارب. تتنحنح وتنادي باستحياء. تدرك فجأة أنها لا تعرف اسم الألماني الحقيقي. تطل برأسها وتقول «ألا يوجد أحد»، لكن النبرة التي استخدمتها تبدو كإقرار أكثر من كونها سؤالًا. صوتها لا يبدو كصوتها، بل صوتًا مستعارًا، كأنها تقرأ دورًا مسرحيًا. تكرر عبارة «ألا يوجد أحد»، ولأن أحدًا لم يجبها، تدخل المنزل الذي تفوح منه رائحة الخشب الرطب والخبز المحمص. ثمة أثاث قليل، ملابس مفرودة فوق منشر قابل للطي، وشاشة تلفاز صغيرة بَطَل استعمالُها موضوعة فوق رَفّ. يراقبها قِطٌّ مُرقّط من فوق طاولة في سكون تام. تمر نات إلى جواره، تجتاز المسكن وتخرج عبر الباب الخلفي، الذي يفضي إلى البستان. ينحني الألماني أمام بعض أجزاء الأرض المحروثة. حين يسمعها، يلتفت وينظر إليها دون أن يُبدي اندهاشه، كأن وصولها إليه لم يكن إلا مسألة وقت. ينظف عرق جبهته بساعده. يقول:

- لقد أتيتِ.

يقترب منها مترددًا. تراه نات ملطخًا بالوحل، متعرقًا، بنظارته الساقطة ومشيته الغريبة، فتتذكر ما قاله منذ عدة أيام: «مرت عليَّ فترة طويلة من دون امرأة»، وتدرك في تلك اللحظة تحديدًا أهمية تلك الجملة في مقترحه، ومدى ضخامة هذه الكلمات تحديدًا. ما الذي توشك أن تُقدم عليه؟ الجنس بغرض الإحسان؟

يسألها:

- هل غيرتِ رأيك؟ هل جعلتك هذه الأمطار الكثيرة تُغيّرين رأيك؟

تومئ نات برأسها.

– هل لديكِ رغبة في أن نفعلها الآن؟ هل تودّين أن نفعلها هنا؟

تومئ برأسها مجددًا بصورة غريزية. فجأة، يبدو لها أن سؤاله وقح، بل وسخيف تقريبًا، لكنه يبدأ بالفعل في إفلات أدواته ونفض يديه.

– امنحيني بضع دقائق. سأتحمّمُ أولًا.

يبتسم لها بينما يدخل المنزل. إنها ابتسامة متوترة، وعلى الأرجح خجولة، لكنها في نفس الوقت سريعة وبَرَّاقة. تبقى هي في الخارج لتتأمل البستان. يعبر من أمامها قِطَّان سريعان، أنحف من ذلك الموجود داخل البيت، في طريقهما نحو السقيفة الموجودة في الخلف، المستخدمة لتخزين، الأكياس، الحطب والأدوات. تفوح من الأرض رائحة السماد، أو القمامة. تتأمل نات السماء والسحب التي تتراكم فوق بعضها بعيدًا. ستمطر السماء مرة أخرى قريبًا. الرائحة، ملمس الرياح فوق بشرتها، اللونان الأخضر والبُنّيّ بدرجاتهما المختلفة في الأوراق والتربة، مذاق ريقها اللاذع، مذاق أعصابها نفسه، وكل ما يربطها بهذه اللحظة أمور تُعبّر عن نفسها عبر حواسّها، ومع ذلك، فإحساسها بانعدام الواقعية خانق، إذ يتغلَّبُ التجرُّد على الوضوح. يبدو الأمر كأنه كذبة كبيرة؛ كأنها تمثّل مشهدًا وسط ممثلين محاطين بديكورات محددة أكثر من كونها تقف على عتبة تجربة حياتية جديدة. يتأخّر الألمانيُّ قليلًا، وحين يخرج بحثًا عنها، يفعلها بشعر مُبتَلّ، مُصفّف إلى الوراء. يشير إلى شُجيرات الفُلفل الآخذة في الذبلان:

– ما يأتي بالخير لبعض النباتات يقضي على بعضها الآخر.

تُلاحظ أنه يتحدث لخفض التوتر. رغم ذلك، فإن مثل هذه التعليقات، تعمل على رفعه أكثر. تشعر بأن ثمة خيطًا من الغضب يتسلّق ثغرها. إنها في حاجة إلى إنهاء الأمر في أقرب وقت ممكن. يبدو أنه لاحظ المسألة فعلًا، لهذا يتوجّه بها إلى الداخل، حيث يُظهر لها، بعد أن أمسكها بِرِقَّةٍ من ذراعها، غرفة

مظلمة. يخفض صوته ويشرح لها أنه من الأفضل أن يقوما بالأمر هكذا، دون إضاءة. يقول لها إنه يوَدُّ ألا تشعر بالانزعاج. يكرر مسألة إنه لا يود أن تشعر بالضيق أو بالإهانة.

– سننتهي من الأمر سريعًا.

حينما تعتاد عيناها على العَتَمَة، تميّز نات فراشًا صغيرًا غير مرتب. يطلب إليها بأدب، أن ترقد على ظهرها. يُمكنها أن تتعرَّى بالكامل، أو أن تخلعَ ما هو ضروري، فالأمر مُتعلّق برغبتها. ترقد نات وتتعرَّى بداية من خصرها فيما أسفله، فيستدير الألماني نحو الجانب الآخر، كأنه يفضّل ألا يراها. الملاءات رطبة نوعًا ما، لكنها نظيفة، كأنه فرشها قبل أن تجف بالكامل. محافظًا على وضعيته، يشرح لها ما سيفعلانه. ما تكتشفه نات في كلماته، أكثر من عدم الاكتراث، هو نوع من اللامبالاة المهنية، التي يبدو كأنه يتعمّد إظهارها لكيلا تنسى أن لقاءهما عبارة عن اتفاق تِجَاري. مع ذلك، يرتعش الشَّكُّ في عُمق صوته، ومعه أيضًا عجزُه عن احتواء قلقه بالكامل. في تلك اللحظة تشعر نات بحُنُوّ واهٍ، بشيء زائل لا يلبث أن يختفي على الفور. تفكر الآن في أنه رجل لم يجذبها قط، ويجب أن يظلَّ الأمر هكذا، بهذه الصورة، في الظل: رجل يحاول إخفاء توتره أثناء خلع سرواله وقميصه، وامرأة تنتظر مستعدة أن تُسلّم إليه نفسَها دون أن تفهم منطق تنازلها. هكذا ترى الأمر في هذه اللحظة: إنه تنازل. إنه استسلام. إنه شيء تتخلّى عنه مقابل شيء آخر.

تجري كل الأمور وَفْقًا للخطة المقررة. يبدو مستثارًا، حين يعتليها. الركبتان أولًا لقياس المساحة بين ساقيها، ثم رأسه المائل، لكيلا ينظرَ إلى وجهها. تميّزُ نات شكلَ قضيبِه. تتأمَّلُه بفضول بينما يفُكُّ الواقي الذكري ويرتديه بعناية. يقترب بعدها، رويدًا رويدًا، فتفتح ساقيها، ثم ترفع فخذها لتسهيل الدخول. هكذا، «تتركه يدخل». تتركه يتوغَّل. هذا كان طلبه: أن

يدخل، لبرهة.

بنعومة وبطء، تشعر الآن بصلابته داخلها؛ باحتكاك هذه الصلابة رغم محاولته التحرُّك بلطف. تغلق عينيها. يسند الألماني جذعه بذراعيه المرفوعتين، لكيلا يدهَسَها بثقله، لكنه بعدها يسمح لنفسه بالسقوط فوقها، فيتحسَّس جانبيها بيديه ويمررهما فوقهما ببطء إلى أن يصل إلى نهاية قميصها، عند خَصْرها العاري، حيث يبدأُ لحمُها، فيتوقّف عنده. تسمع نات أنينًا، تلاحظ هزَّة الإفراغ، وتتركه في الداخل لبعض الوقت، إلى أن يرتخي جسده. لقد بدأت تمطر مجددًا. تنقر قطرات الماء في إيقاع متصل السقف المعدني للبيت. يموء أحد القطط، بحزن. بعدها، ينفصل الألماني عنها، يرتدي ملابسه ويغادر الغرفة كي تتمكن هي الأخرى من تنظيف نفسها وارتداء ملابسها بهدوء.

لدى خروجها، لا يتحدثان عمَّا جرى. لا تعرف إذا كان الصمت جزءًا من الاتفاق. تجهل أيضًا، هل ما حدث هو ما انتظره أم لا. «مرت عليَّ فترة طويلة دون امرأة». هذا هو ما قاله، والآن كان مع امرأة. هل أرْضَتْ توقّعاته رغم قصر اللقاء والمسافة الواقعة بينهما؟ هل حصل على المتعة التي يبحث عنها؟ هذان الأمران: قِصَرُ اللقاء والمسافة هما شرطان وَضَعَهُما بنفسه. ربما ظَنَّ أنه هكذا سيُقلّلُ انزعاجَها، أو ربما يعود هذان الشرطان الأوليان إلى تفضيلاته واختياراته الحميمية.

تداهمها فجأة حاجةٌ هائلة لمعرفة اسمه. ذات مرة سمعت البعض ينادونه أندريا، لكن لديها شكوكها، فأندريا اسم امرأة. ربما هو أندرياس بحرف «سين» في نهايته ولا ينطقه أهالي لا إسكابا أبدًا[1]. على حَدّ علمها، أندرياس

---

(1) ثمة لهجات في اللغة الإسبانية لا تنطق حرف الـS حال وقوعه في نهاية الكلمة وهناك لهجات أخرى تُحوله إلى ما يشبه الهاء المخففة. (المترجم).

اسم يوناني، لكن ربما يستخدم أيضًا في ألمانيا. أهذا هو السبب الذي يدفع الكل إلى تبسيط الأمور وتفضيل مناداته فقط بلقب «الألماني»؟ لن تسأله. لو أن شيئًا قد اتضح لها، فهو أن هذا النوع من الأسئلة يخلو من المعنى بعد ما حدث بينهما. تداعب القط المرقط، فتتبين أنه قطة، بينما يبحث الألماني- أندرياس أو أيًا كان اسمه- عن مظلة ليعيرها لها، فمن المفهوم أنها لا ترغب في البقاء هنا لوقت أطول، رغم تزايد حِدّة المطر في الخارج. أم هل ربما هو الذي لا يرغب في بقائها لوقت أطول؟ بينما يُودّعان بعضهما، لا يشكرها، وهو أمر تفكر نات في أنه صحيح. ما حدث ليس إحسانًا أو إيثارًا، ومع ذلك، تشعُرُ بانقباض صدرها وأنها تفتقدُ شيئًا ما. ربما، بالفعل ما تفتقده هو دليل صغير على الامتنان.

في تلك الليلة، تنام قليلًا، وسط عصف شكوكها [1]. هل تصرَّفَتْ كساقطة؟ أي طريقة تصلح لتفسير ما حدث؟ كيف قد تبرره، إلى طرف ثالث، إن استدعت الحاجة؟ هل سيكون معنى ما حدث مختلفًا لو أنها حصلت على المال في التو واللحظة، أي نقدًا؟ لو أنه قد تركه لها على الكومود المجاور للسرير، هل سيكون معنى ما حدث مختلفًا؟ بالنسبة إليها، سيكون مختلفًا، لأن ما تحتاجه ليس النقود، بل العثور على حل لمشكلة القراميد، التي هي في الأصل مشكلة صاحب البيت. ماذا لو أنه ناولها المال للاتفاق مع عامل بناء، أليست هي نفس العملية التِّجَارية؟ ألن تكون النتيجة واحدة؟ لا. لن تكون واحدة. هذا هو ما تَخْلُصُ إليه، لأن مثلَ هذه الاحتمالية ستعني

---

(1) وردت في النص الإسباني مكتوبة «bombardeada por sus dudas» والتي تعني ترجمتها الحرفية «بينما تقصفها شكوكها»، كأن الشكوك طائرات تشن غارة عليها، لكن أثناء الترجمة شعرت بأن المعنى لن يصبح مفهومًا هكذا، ولجأت لاستخدام اصطلاح شائع في العربية ويقدم معنى مقاربًا وهو «وسط عصف شكوكها». (المترجم).

إدخالَ عُنصرين إضافيين على سلسلة الأحداث: المال وعامل البناء، وكلاهما لم يشكل جزءًا من الاتفاق.

يقودها إلغاءُ مسألة النقود -النقود التي يُمكن لَمْسُها ورؤيتها- في النهاية إلى ألا تُصنف ما حدث تحت بند الدعارة. مع ذلك، لا تختفي الشكوك: ألا تبحث الآن عن طريقة لتبرر الأمر لنفسها؟ لتنظيف صورةِ ما ليس نظيفًا من الأساس؟ هل تظن حقًا أنه كان يجب عليها الوصولُ إلى هذا الحد لإصلاح التسريبات؟ أم أنها ببساطة انتظرت أن تُمطِرَ لتجدَ لنفسها عذرًا؟ ألم يكن باستطاعتها أن تحصُلَ على المال بطريقة أخرى؟ إن كان معها ما يكفي من المال لكل لقاحات وعلاجات «سيسو»، فلماذا ليس معها ما يكفي شيئًا مثل هذا؟ كان بإمكانها أن تهدد صاحب البيت بالرحيل، لو لم يصلح السقف، بل والإقدام على الأمر فعلًا. ما من شيء يربطها حقًا بلا إسكابا. ثمَّة أماكن في محيط هذه القرية تشبهها وموجودة بكثرة، بطرقها الترابية، حقولها الزراعية، وغابات البلوط المحيطة بها. البيوت الرخيصة موجودة، وفوق كل شيء، موجودة بدون تسريبات.

تحاول رؤية الموضوع من الخارج، أن تتمعَّن فيه بعيون الآخرين؛ أن تنظُرَ إلى نفسها وتحكم عليها. لن يهضِمَ أحدٌ مبرراتها، فلماذا قد يهضم أحد شيئًا مثل هذا؟ سيقولون إنها فعلته لأنه أمر وَدَّت داخل أعماقها أن يحدث فعلًا. سيقولون إن نات راقها أن تفعله وإنه لا توجدُ مِنْطَقةٌ وُسْطَى في الجنس بين المُتعة والاشمئزاز، وبما أن الاشمئزازَ لم يداهمها، فإن ما شعرت به واضح. هل كان الأمر ليُصبح أكرم بالنسبة إليها، لو أنها شعرت بالنفور، الاشمئزاز، الألم، التعرُّض إلى الاستغلال أو الإذلال؟ لو أن مُدّةَ اللقاء طالت؟ لو أنه أجبرها على الحركة، اللعق، العَضّ، والتلوُّي؟

لكن ما حدث لم يستغرق سوى بضع دقائق. مثل هذا الوقت القليل لا

يتّسع لكل هذه الأسئلة. ربما عليها أن تواجه الأمر بصورة أبسط. هذا هو ما تقوله لنفسها: الألماني قدَّم عرضًا. لم تعتبره مناسبًا في البداية. لكن الأمرَ تغيَّر لاحقًا. لا يوجد سببٌ كي تُعرّف ما حدث بكلمة واحدة. كان صادقًا وأمينًا، دون لَفّ أو دوران أو أي تقارب يسيل فيه لعابه كما فعل جارها في حفل الشواء. عرض الألماني احتياجاته، قدم طلبه، وعرض شيئًا بالمقابل. إنه شيء تحتاجه بالفعل. اللقاء كان بالبرودة الواجبة. لم يكن قذرًا أو مهينًا. تحاول تذكر ما حدث خطوة بخطوة بكل حركاته وإيماءاته: ما الذي قاله، بأي كلمات، وفي أي لحظة. الأمران اللذان خَشِيَتْ منهما -الاشمئزاز أو الندم- لم يقعا. لقد أظهر الألماني رقّةً وكياسة عليها أن تعترف بهما ولم تتخيل أصلًا وجودهما فيه، بمظهره السوقي الفظ. حاول ألا يؤلمها، مع تحميل وزنه فوق يديه لكيلا يدهسها، وأن يفعلها ببطء. حينما تتذكر الأمر، تجد أنها لا تزال تشعر بحرارته فيما بين ساقيها. إنها حرارة ذهنية أكثر من كونها جسدية. رغم أن كل شيء كان سريعًا، إلا أن الإحساس الوحيد المستمر هو البطء. كيف يمكنها تفسير أمر مثل هذا؟

عليها الآن أن تتفادي التصورات الخاطئة بأي ثمن، ومنها وجود أي ظن لديه أن أمامه فرصًا أخرى. لن تكون أمامه أي فرص أخرى. ستكون حاسمة، حال وجود سوء فهم، وستقضي على أي تصور من جذوره. تفكر نات في أن مكمن الجاذبية المحتملة لما حدث بينهما -ليس «الجاذبية» وإنما «الحافز»- هو أن ظروفه لن تتكرر، فحتى لو عرض هو لقاء جديدًا بنفس الشروط، سيكون الأمر مختلفًا، لأن جلد الإنسان له ذاكرته الخاصة، والتكرار يعني التعمق، وآخر ما توده الآن هو أن تتعمق.

يحضر الألماني صباحًا بشاحنته ويبدأ في العمل. تقدم له نات قهوة، يشكرها ثم يرفض، فقد شرب قهوته بالفعل. تجلس نات إلى حاسوبها، بينما

هو خارج المنزل، يقيم أضرار القراميد.

تقول له:

– لو احتجت شيئًا، أنا موجودة هنا.

تفكّر بعدها في الطابع المبهم لكلماتها وتشعر بالخجل، لكن فعلًا لا يوجد شيء قد تقوله له سيبدو بريئًا بعد الآن. تغضب من اكتشافها لهذه الحقيقة، لأنها نتيجة لم تتوقعها مسبقًا.

يشق عليها التركيز، في ظل وجوده في الخارج، بمثل هذا القرب. تستغرق وقتًا كبيرًا في ترجمة أي عبارة، حتى أكثر العبارات بساطة، بل إن أبسط العبارات هي ما تقاومها بشدة. مرة أخرى، يزدهر داخلها إغراء الهجران؛ فلِمَ الإصرار على شيء، هي سيئة فيه بكل وضوح؟ تنهض مرتين لتنظر إلى المرآة: لديها هالات سوداء وتبدو شاحبة، لهذا تفكر في أنها ليست في أفضل أيامها. تُصفِّف شعرها، تتزيَّن قليلًا، تَعودُ إلى مكانها وتُصِرُّ على إكمال الترجمة باللفِّ والدوران حول نفس الفقرة.

يُطِلُّ الألماني برأسه من الباب، فتنتفض. يقول لها إنه سيذهب إلى بيتاكاس لشراء قراميد جديدة، إذ بات يعرفُ الكمية الدقيقة التي سيحتاجها. لدى عودته، سيُضْطَرُّ أيضًا إلى العمل داخل البيت. يتمنَّى ألا يُزعِجَها، وسيحاولُ الانتهاء من الأمر سريعًا. توافق نات وتشعر بجسدها يختلج مع رحيله. سيحاول ألا يزعِجَها وسينتهي من الأمر سريعًا: إنها تقريبًا نفس التعبيرات التي استخدمها في اليوم السابق، منطوقة بنفس النبرة، وتداخل مقاطعها دون تناسُق. هل لا يعرف طريقة سوى هذه ليتحدث بها؟

تستغرق عملية الإصلاح النهار بطوله. يُحَصِّن الألماني السطح من داخل وخارج البيت بِدَهان مُضَادّ للماء ويركّب القراميد التي اشتراها، بخلاف المزراب ومهمته في تسيير التيار لتجنُّب تراكم الماء في السطح بعد الأمطار،

وفقا لشرحه. ليس لدى نات أي فكرة عن تكلفة القراميد، المزراب، الطلاء المضاد للماء، وبعض المنتجات الأخرى التي استخدمها ولا تعرف حقًا فائدتها. كل هذه الأمور، مع عدد ساعات العمل، المهارة، والمعرفة الضرورية هو السعر الذي حدَّده مقابل جسدها في المساء السابق. هل هو كثير أم قليل؟ لم يتفوَّه ولو بكلمة واحدة بخصوص الأمر. تحدَّث فقط عن الأمور الضرورية. ارتاح فقط ليُدخّن، بينما يتمشّى في الباحة في صمت تام. تفكّر نات: إنه يرغب في تركي في سلام، ويظن أنّ أيَّ طريقة أخرى قد تزعجني، لكن ما يزعجها حقًا هو تحفُّظه. تقول في نفسها: يا له من برود! لكن في نفس الوقت: ما الذي تنتظره منه؟ الدفء؟ لو حدث العكس، لو تعامل بلطف، لو ألمح إلى الأمر، كأنه يذكرها بأنه انتهك خصوصيتها وأن هذه الخطوة غير قابلة للإلغاء، ستغدو الأمور أسوأ، أسوأ بكثير.

يتزايد غضبها بمرور الوقت. إنها عاجزة عن الترجمة، القراءة، أو إلهاء نفسها بأي شيء، بل إن الوجود المجرد لـ«سيسو» يضايقها. حينما تراه في النهاية، يجمع أغراضه، تفكر في احتمالية تقديم زجاجة جعة له، لكنه يطل برأسه مرة أخرى من الباب ليلقي الوداع، دون أن يدخل، بل وحتى دون أن يتخطى العتبة، فتستسلم. تفكر في أنه على الأرجح لديه أمور أفضل ليكرّس لها وقته. البستان على سبيل المثال، أو أي مهمة أو إصلاحات أخرى مثل التي أجراها الآن لها. من يعرف! تودّعه بلا مبالاة وتشكره، إلا أنها تقول في نفسها، إنها قد أخطأت بالفعل مرة أخرى: ليس هي من يجب عليها أن تشكره، بل العكس.

يقول لها بيتر:

- بالأمس رأيت الألماني يتمشَّى فوق سطحك.

ينطق كلمة «يتمشى» بازدراء ماكر، فتشعر نات بانكشاف المستور، وتجد

نفسها تفيض بشروحاتها وتفسيراتها. تقول: كانت هناك مشكلة صغيرة تتعلق بالتسريبات وأصلحها. قبض مالًا قليلًا، وقام بعمل جيّد، نظيف وسريع. بمجرد أن تنهي عباراتها، يتضرَّجُ وجهها بالحُمْرة: نظيف وسريع! يسألها بيتر غاضبًا هل حقًا هي من اضطرت إلى دفع الإصلاحات؟ فتقول له: لا. لا، فصاحبُ البيت هو من سيتحمّل النفقات. يؤكد بيتر بحاجبه المرفوع -وهي إيماءة يُكررها كثيرًا- أن الألماني «صنايعي رديء». لا يفهم لِمَ اتّصلت به، خاصة وأنه -أي بيتر- كان قادرًا على مساعدتها، فبعض التسريبات ليست أمرًا معقدًا.

تُصِرّ نات:

- أعتقد أنه قام بعمل جيد. استغرق منه النهار بأكمله وانغمس فيه طيلة ساعات.

- هذا الأمر لا يعني شيئًا. استغراق ساعات طويلة في عمل شيء ليس مرادفًا للإصرار، فقد يكون مرادفًا للحماقة، والتبجُّح، فهكذا يُمكن تبرير النفقات. ما قيمة المبلغ الذي أخذه؟

تتلعثم نات:

- لم أدفع أنا. لقد أخبرتك بالفعل.

- لكن، ألا تعرفين حتى قيمة المبلغ؟

- ليس لديَّ أدنى فكرة. لقد اتفق على هذا الأمر مع صاحب البيت.

- قلتِ سابقًا إن التكلفة رخيصة.

- حسنًا. إنه تخمين. صاحب البيت بخيل جدًا، لذا من المؤكد أنه لم يدفع مالا كثيرًا.

يُطقطق بيتر لسانه:

– اتفاق بين الألماني وصاحب البيت! لا أعرف كيف يُمكنكِ أن تثقي في أمر مثل هذا!

تضحك نات، تعترف بخطئها، لكن ما الحيلة؟ هذا هو ما تقوله. لا تعرف هل الألماني صنايعي رديء أم لا، لكنه رجل غريب. هذا أمر صحيح ولا شك فيه. لماذا يدعونه الألماني؟ أليس اسمه أندرياس أو شيئًا من هذا القبيل. يؤكد بيتر لها الأمر. اسمه أندرياس. أمه كانت ألمانية أو كردية، أو ربما كردية تعيش في ألمانيا. لا يتذكر حقًا. لكن، هل ولد هناك، في ألمانيا؟ لا. لا يعتقد بيتر أنه ولد هناك وفي الحقيقة لا يعرفه. لقد وصل إلى لا إسكابا منذ خمس سنوات ولم يقدم أي شروحات حول ماضيه. يسير دائمًا وحده ويعمل في أي شيء وَفْقًا للظروف وهو كما يكرر بيتر من جديد «صنايعي رديء». على حد علمه، عمل كصانع للقوالب الأسمنتية في بيتاكاس، وكمُوزّع أيضًا. يضطلع كذلك بإصلاحات السباكة، ومشروعات صغيرة. أشياء من هذا القبيل. في الوقت الحالي، يُكرّس نفسه لمسألة البَسْتَنَة. كلها صغائر ليمضي قدمًا في الحياة، لكنه لا يتحدّث مع أحد وليس لديه أصدقاء. لا يهضم بيتر مسألة أنه متحفظ، ففي مكان صغير جدًا مثل لا إسكابا، العُزلة تثير الشبهات. لهذا، ولأسباب أخرى، يقول لها إنه ليس شخصًا موثوقًا.

– لكن ما هي هذه الأشياء الأخرى؟

– أشياء... لا أعرف. أشياء يفعلها أو سمعت أنه يفعلها؟

– مثل؟

– أوه يا نات! لا أتذكر الآن.

– لكن إن كنت لا تتذكر، كيف تقولها بهذه الطريقة، كأنه أمر خطير؟

يبتسم بيتر. إنها ابتسامة لا تَنُمّ عن القرب، بل عن بُعد من يعرف أكثر، أو من يُلمّح إلى أنه يعرف أكثر.

– ما لا أفهمه هو اهتمامك المفاجئ. ما الفارق الآخر الذي سيصنعه لكِ الألماني؟ الأمر يبدو وكأنكِ تدافعين عن شيء ما.

تبتسم نات هي الأخرى وتقول إنه مُجَرَّدُ فضول، فبعد كل شيء، لقد قضى يومًا كاملًا في بيتها، وعليها بالفعل أن تعترف أن صمته مميز بطريقة ما. لم يقل أي كلمة بعيدًا عن كلمات معينة بعينها.

يوقظها صوت المطر. نقرات قطراته المتقلبة والفوضوية. تسقط القطرات فوق المزراب الذي اشتراه وركبه الألماني، الذي وعدها، بأنه سيقود الماء بصورة منظمة نحو الأرض لتجنب تراكمه فوق القراميد. ينقل هذا الصوت نات إلى يوم زيارتها إلى بيته، حينما انهمر المطر أيضًا فوق سطحه المعدني. لقد مَرَّر يديه فوق جانبيها، في نفس اللحظة التي بدأ فيها المطر. إنها المداعبة الوحيدة التي تلقّتها، بداية من تحت إبطيها وحتى منبت فخذيها، من نسيج قميصها حتى جلدها العاري، ببطء ونعومة. تختلج من الذكرى. تُضيء النور وتحاول أن تقرأ، لكن الأمر بلا فائدة. تشعر برعشة تمضي في عمودها الفقري. تشعر بالشَّرَه، كحيوان في فترة التزاوج. ما الذي يحدث لها؟

تعود صباحًا إلى الترجمة. «لم تكن رؤية. لقد لامستُ خصلاتها..» [1]. تتردد الكلمات في رأسها لِبُرهة. تتردد بخواء، بصمت، بلا شكل، إلى أن تبدأ في اكتساب معناها، بل كل معانيها الممكنة. هل هي «لامستُ خصلاتها» أم «داعبتُ خصلاتها»؟ وقع كلمة «لامستُ» سيئ، لكنه يظهر في النص الأصلي. لو أن المؤلّفةَ تقصد المداعبة، لماذا لم تستخدم فعل «داعبتُ»؟ ولماذا «خصلاتها»؟ لماذا ليس «شعرها»؟ أليست مداعبة الشعر أو ملامسته هي الصيغة الطبيعية؟ لو كانت نات هي المؤلفة، كيف ستقولها؟ ملامسة الخصر أم مداعبة الخصر؟ ما هو الفارق بين الملامسة والمداعبة؟ تترجم الجملة هكذا:

---

(1) وردت في النص الإسباني مكتوبة بالفرنسية. (المترجم).

«لم تكن رؤية. لقد لامستُ خصلاتها». حينما تقرؤها، يتنامى الاشمئزاز داخلها. تنهض وتلُفُّ وتدور في غُرفتها. يتابعها «سيسو» بنظرته، لكنها ليست نظرة صافية، وكأنه من وراء عينيه، يخفي حكمًا ما ضدها.

بعدها بساعتين، ينادي أحدٌ عليها من الخارج وينطق اسمَها بوضوح. إنه الألماني الذي يقف على الجانب الآخر من السياج، بصبر، ثبات وهدوء، مرتديًا ملابس العمل ونظَّارته الساقطة. أتى فقط ليسألَ كيف تسير الأحوال، بعد المطر الذي سقط بالأمس. يُكرّر سؤاله: كيف هي الأحوال؟ تفكّر نات: هذا فقط؟ السؤال عن عمله؟ تجيبه بفظاظة:

- الأحوالُ جيِّدة. شكرًا. لم تدخل ولو قطرة واحدة.

ترتسم ابتسامة عند مَقْرِن شفتيه. إنه رضا إجادة العمل. تُفكر نات في أن هذه هي المسألة الوحيدة التي جاءت به إلى هنا. هل حقًا لا يوجد شيء آخر؟ هل يعتقد أنه لا يدين لها باعتذار، بتفسير، ببادرة امتنان على الأقل؟ تودّ نات أن تقول له هذا، إلا أنها تحجم نفسها وتقول:

- ممتاز، ولا قطرة واحدة.

يُبدي استحسانه، لأن هذا هو ما يوَدُّ سَمَاعه. يضيف قبل أن يلتفت ليمضي في طريقه:

- لو حدثت أي مشكلة، أبلغيني.

تظلُّ نات ثابتة في مكانها. إنها غاضبة. لا تودُّ أن يرحل، لكنها في الوقت نفسه في حاجة إلى أن يرحل فورًا. تمقت نبرة صوته، ونقص الذوق المُطلق في اختياره كلماته. «لو حدثت مشكلة». هذا هو ما قاله. وماذا إذن عن المشكلات الأخرى؟ مَرَّت فترة طويلة على آخر مرة شعرت فيها بمثل هذا السوء، ومثل هذا البؤس.

ما هو معنى أن يحضر إلى بيتها دون إنذار مسبق؟ بأي حق يظهر؟

صحيح أنه أمر يفعله الجميع في القرى في كل أنحاء العالم، لكن يا لها من عادة تدلُّ على سوء التربية! كانت هادئة، أو تحاول أن تهدأ، ولم ترغب في رؤية أحد، وبالأخص هو، لكنه ظهر فجأة، وهي في بيجامتها، بشعر ووجه غير مغسولين، ووجب عليها أن تتصرف كأن كل الأمور طبيعية؛ أن تتغلب على عزة نفسها، وأن تتظاهر بالتعامل معه، بأود صورة ممكنة، كجارين، بعد مقايضتهما البدائية: الجنس مقابل إصلاح السقف؟ أي حماقة ارتكبتها؟

الاتفاق، التسامح، كيف هي الأحوال؟ كيف سار الأمر مع المطر؟ لو أن هناك مشكلة أبلغيني. تفكر نات في أنه لا يعي انزعاجها أصلًا. إنه لا يعيه! لقد أدخلها إلى غرفته منذ يومين والآن ينظر إليها ببرود كامل، كأنه ينظر إلى نعجة أو كلب. حتى شخص مثله يُمكن أن يندم على ما فعله، حين يراها، في وضح النهار. مَرَّت فترةٌ طويلة على آخر مرة كان فيها مع امرأة إلى أن وصل إليها، إلى هذا الطبق الرديء.

بينما تمضي في طريقها إلى المتجر تقابل خواكين وروبرتا. يتقدَّم العجوزان بصعوبة على جانب الطريق المُوحِل، وكل منهما يتأبَّط ذراع الآخر. لا يصعُبُ على نات اللحاق بهما، فهما لا يتوجّهان إلى مكان معين، لأنهما تقريبًا يتمشّيان أو يهيمان دون وجهة واضحة. يقول خواكين لها إنهما يفعلان الأمرَ لتحريك ساقيهما. أوصاهما الطبيب بالسير: إنه أمرٌ جيّد للصحة البدنية والذهنية أيضًا. يغمز لها بعينه بتواطؤ. ثمّة مؤشرات من روبرتا تدُلُّ على أنها تعرفت على نات، إذ تبتسم لها بمودَّة، وتحييها بِحُسن خلق، لكن نات تدرك أن العجوز غير قادرة على وضعها في مكان معين، إذ تخلط في لحظات بينها وبين فتاة المتجر، وفي مرّات ثانية مع واحدة أخرى تدعى صوفيا، وهي تقريبًا أحد أفراد عائلتها. تتحدّث بشكل صحيح، بطريقة منظمة، بمفردات دقيقة، وجُمَل لها بِنْيَة مُعقَّدة، لكن ما تقوله ليس له أي معنى. ثمّة شرخ هائل

بين منطق اللغة والواقع. يرفع خواكين حاجبيه بصورة مُعبّرة جدًا، كأنه يعتذر إليها. حينئذ، تسأل روبرتا عن الكلب، فتجيبها نات:

- الكلب؟

- أي نعم. الكلب الهزيل؟ هل تحسَّنت أحواله؟

تسعد نات بتحوُّل مسار المحادثة إلى أرض آمنة:

- أخذته إلى الطبيب البيطري. تناول لقاحاته وأصبح يأكل طعامًا طيبًا. أظن أن وزنَه زاد بعض الشيء، لكنه لم يثق فيّ بعد. من المحتمل أنه قد تعرّض لسوء المعاملة.

- بالطوب.

- بالطوب؟ لا أعرف حقًا. هل بالطوب؟ هل بالحجارة؟ من يعرف!

- لا! الكلب لا! الألماني والطوب!

الألماني. من غير الممكن أن يكون الأمر قد اختلط على العجوز. لقد سمَّته بوضوح.

يسألها خواكين:

- ما الذي حدثَ بخصوص الطوب؟

- كل شيء!

تتحدث الآن بإحباط، محاولة أن يفهمها، وهي تشير إلى نات بإصبعها:

- هي تمنحه الفاكهة وهو يُركِّب لها الطوب.

تقف نات مندهشة وتفتحُ فَمَها قليلًا دون أن تنطق أي كلمة. يُصِرّ العجوز على السؤال:

- أي فاكهة؟ الفاكهة لا تُخُصّ الفتاة. إنها فاكهة الألماني. من بستانه. هو من يبيعها. نحن أيضًا نشتريها منه، هل نسيتِ الأمر؟

تضحك روبرتا بصوت خفيض، كأنها تذكرت شيئًا مرحًا. تتمتم ثم تكرر عبارتها برأس مائل: هي تمنحه الفاكهة وهو يُرَكِب لها الطوب. تحاول نات أن تفهم. ربما شاهدت العجوز أندرياس واقفًا فوق السطح، كما شاهده بيتر، أو أي أشخاص غيره في لا إسكابا. ربما تقصد القراميد بمسألة الطوب، لكن ماذا عن الفاكهة؟ هل تقصد خضروات البستان؟ أم شيء آخر؟ تهُزُّ نات رأسها. ليس عليها أن تولي ما تقوله العجوز أهمية كبيرة. الأمر يتعلّق بها هي؛ بحساسيتها، التي تقودها إلى فهم كل شيء من الزاوية الخاطئة.

تتوجّه إلى منزله ليلًا، لكنها هذه المرة لا تفعلها بِناءً على اندفاعها. لقد فكَّرت في الأمر قبلها بتمعُّن وأخذت وقتها لتتجهَّز؛ لتُزيلَ شَعْرَ جسدها الزائد، لتستَحِمّ، لتغسلَ شَعْرَ رأسها، لتجفّفَه، لتتعطّر، ولتختارَ الملابسَ التي تعتقدُ أنها تناسبها. ثمّة جزءٌ داخلها يعي التناقضَ البيِّنَ في استعداداتها. لو أن مسعاها الوحيد هو التحدُّث، تصفية الحسابات، توضيح الموقف، أو أيًا كان مُسَمَّاه، فإن كل هذه الاستعدادات ليست مهمة. لكن ليس من الضروري أن يلغي شيء ما وجود شيء آخر؛ هذا هو ما تقوله لنفسها لاحقًا، كأنها تدافع عن ذاتها أمام قاضٍ مُتزمّت. تخرج متوترة بصدر مقبوض. تذهب إليه بالسيارة لأن الليل قد أسدل ستاره بالكامل وحتى الآن لم يستجب أحدٌ لطلبات الأهالي بتحسين الإضاءة. تقود ببطء، محاولة ألا تُحدث ضوضاء. ترتكز خطتها على الظهور عند باب بيته فجأة، دون إنذار مسبق، لترُدّ له اللعبة. رغم ذلك، لدى وصولها، تجد صمتًا تامًا أكثف وأعمق من أي وقت مضى، فيكتسب كل ما تفعله، من ضغط مكابح السيارة، إيقاف محركها، وتثبيت عصا الغيارات، صدى لا يصُبُّ في صالحها. تقترب من البيت، سائرة فوق الحصى، وتقرع الباب. لا وجود لجرس أو ربما أنها ببساطة لم تعثُر عليه. تسمع صوت التلفاز يتضاءل وخطوات تقترب عند الجانب

الآخر. يفتح الألماني الباب، ينظر إليها مندهشًا، ويطلب إليها أن تدخل. حينما تراه، حينما تنظر إلى عينيه؛ إلى ذلك التعبير الشريد البطيء لمن لا يفهم ماهية ما يحدث، تشعر نات كأن غضبَها يجلِدُها، وبالمثل بالضغينة. تتساءل إذا ما كانت ترتكب خطأ جديدًا. تسأله بصوت مضطرب هل يُمكنها أن تتحدث معه لبضع دقائق، فيجيبها: بالطبع، بكل تأكيد، ثم يخفض صوت التلفاز بالكامل، دون أن يُطفئه. يُفسح لها مكانًا فوق الأريكة كي تجلس، بإبعاد بعض الوسائد وإنزال القطة المرقطة. يسألها هل تودُّ قليلًا من الجعة، فترفض. يجلس أمامها فوق مقعد صالون قبيح وبال. ستستغرق بعض الوقت لتدرك هذا الأمر؛ أن المقعد قبيح وبال.

لكنهما لن يتحدثا. لا في هذه اللحظة، ولا في الساعات التالية، ولا طوال الليلة.

منذ ذلك اليوم، تَغيَّر مسارُ أفكارها بالكامل، إذ لم تعد هذه الأفكار تصل إلى وجهتها المعتادة، وباتت تمضي الآن بِحُرية، نحو أماكن أخرى، في ظل عجزها عن الإمساك بها. الأمر يبدو كعرض أحد الأفلام، إذ تتعاقب داخل رأسها مشاهد لأندرياس معها، ولها مع أندرياس، داخل الفراش، لجسده، لجسدها، لكل حركة، لثنايا الملاءات، لكل كلمة من الكلمات التي قالاها لبعضهما، وهي في الأصل قليلة. ينتهي الفيلم فجأة. إنه قصير بصورة مُحبطة، لكنها تكرر مشاهدته مرة تلو الأخرى، تُعيد خلق كل تفاصيله، وتَمُدُّ كل لقطة من لقطاته، كي يستمر لفترة أطول، بل وتضيف إليه لقطات سابقة، كوصولها إلى المنزل، وأخرى تالية، كوداعهما ورحيلها، رغم أن تلك اللقطات تُخلِّفُ مَذَاقًا مُرًا وعكرًا في فمها. لا يزال فيلمًا قصيرًا، وبعيدًا جدًا عن كونه كافيًا. لا تفهم نات جيدًا السببَ وراء رغبتها في إطالته. إنها مسألةٌ لم تشغل بالها حتى الآن بفهمها، لكنها ببساطة تحملها معها، في كل مكان،

وتعجز عن الانفصال عنها وعن هذه اللقطات التي انطبعت فيها، داخلها، وتُعرض الآن، داخل عينيها، أيًا كان ما تنظران إليه، وفي أي مكان.

هل هو هوس؟ بالطبع. إنه بكل وضوح هوس، لكن الأمر، كما تقول لنفسها، لا يرتبط بهذه النقطة فقط. إنها نشوة، إنه انمساخ، إنه تحول جذري غير متوقع، فما كان في موجودًا، هناك، في الخارج، بعيدًا وغير مرئي، وبلا أهمية، بات الآن داخلها، يسكنها، ويزعزعها.

كل مقامات الأمور تغيَّرت، وكُلُّها تبعثرت بالكامل.

كي تنجحَ في تفسير الأمر، عليها أن تستنجدَ بشيء بعيد، بقوة خارجية. في المرة الأولى -في ذلك اليوم الذي أبرما فيه اتفاقهما العجيب- حقنها أندرياس بسمّه. هذا هو ما حدث. لم تَعِ نات الخدعة، لكنها حينما ارتدت ملابسها ورحلت، نقلته معها، فأخذ السمُّ ينتشر عبر أوردتها، ليغزوها بآثاره المدمرة. ومنذ ذلك اليوم، بعد أن انتُزعت منها إرادتها، لم تبقَ لها وسيلة أخرى سوى العودة: السمُّ يتطلب مزيدًا من السمّ، ولا ترياقَ ممكن له. لم تختر أندرياس، لم تبحث عنه، بل هو من فرض نفسه. ربما عليها أن تتمرَّدَ، لكن مُنَازلة ما فُرض عليها مستحيلة. إنها عالقة. هكذا ترى الأمرَ الآن. إنه تفسيرها، وهو تفسيرٌ طفوليٌ ساحرٌ تدركُ تمامًا انعدام تناسقه، لكنه في نفس الوقت نافع بصورة هائلة لكيلا تمارس أي مقاومة. تسأل نفسها عن سبب يدفعها للمقاومة؟ ما الذي ستكسبه لو قاومت؟ ما الذي ستخسره؟ هكذا تقرر العودة مرة أخرى، وأخرى، فيمتدُّ الفيلم، وتكتسب مساحته أمتارًا وأمتارًا أخرى، ومع ذلك، لا تزال تشعر بأنه غير كاف.

يُحسن استقبالها دائمًا. لم يعد الأمر يرتبط باتفاق بارد أو شيء يُمكن الانتهاء منه في خمس دقائق. يقضيان الآن ساعات وساعات معًا، ينامان،

ويبدآن من جديد. الهدف من توقفاتهما هو استعادة قواهما، ما عدا المرّات التي تحين فيها ساعة الرحيل، ورغم ذلك، لا توجد نهاية للأمر. لا توجد نهاية على الإطلاق. لم تعرف نات قط شيئًا كهذا. ليس بهذه الطريقة، فهذا الرجل، أندرياس، يستخرج من أغوارها شيئًا جديدًا بالكامل. إنه شيء لا ينضب ومسبب للإدمان. ألا يفترض أن الرجال، بداية من عمر معين، يُرهقون بشكل أكبر؟ إن أندرياس لا يكِلُّ ولا يملّ.

مع ذلك، فهو ليس بمثل شراهة نات، أو ليس شرهًا بالصورة التي توقّعتها في ظِلّ هذه الظروف. لا تتجلّى فيه مظاهرُ النهم ولا الشهوةُ المُعَذَّبَة التي رأتها في رجال آخرين؛ ذلك الوجه الخفي الذي يظهر فقط بعد إغلاق باب غرفة النوم. لم يُبْدِ أيضًا رغبةً في فرض نفسه أو الفوز بهذه الحرب الغامضة غير المعلنة، التي تتآخى أحيانًا مع العجز. تفكر نات في أن جنسانية أندرياس جنسانية رجل بسيط؛ رجل مسالم. ما من وجود للغم، للخوف، ولا للبذاءة في المسار الذي يقطعانه معًا، وبالمثل لا وجود للخجل أو للإهانات. يبدوان، في عُريهما معًا، وكُلٌّ منهما إلى جوار الآخر، كشقيقين. ليس على نات أن تطارِدَ النشوةَ ولا أن تخدشَ نفسَها ببؤس، بينما تُطالِبُ بالرحمة قبل دخولها في حالة شيطانية. يكفيها فقط أن تتّبعَ إشاراتِ جسدها، تعليماته الدقيقة والممتعة، لتصل إلى النجاح، دون أي فرصة للخطأ. لقد اكتسب جسدها بصورة غريزية نوعًا من الحكمة، لم يعد معها ثمة أهمية لمسألة كونه غريبًا. هل ما يجمعهما هو أحد أشكال المعارف الخفية والمقدسة التي يصعب الوصول إليها؟ إذ كان الأمر هكذا، فهو رباط ديني، كذلك الذي يقيد أعضاء الطائفة الواحدة ببعضهم ويستبعد بقية الدنيويين، المبتدئين، والجهلة.

لكنهما حينما يفرغان من الأمر، لا يقدران على النظر إلى أعين بعضهما، وحينئذ يظهر الخجل والبوادر الصغيرة لانعدام الثقة. تراقبه نات في الخفاء،

مبهورة بهذا الجسد الذي كان لها وفجأة أصبح غريبًا عنها. جسدها هو الآخر يتحوّل إلى شيء آخر، أو إلى نقيضه، وكأن سرابَ الخفّة والجمال يذوب ويرتعب في الفراغ. حين تُفرغ لنفسها كوبًا من الماء في المطبخ وهي وراءه، أو حين يجلس كل منهما في مواجهة الآخر تحت الإضاءة الكئيبة لمصباح السقف القديم، فإن جسديهما لا يعودان حليفين، وإذا بهما يغدوان عدوين من جديد، لكن يكفي فقط أن يحدثَ بينهما أيُّ احتكاك، ليدور الترس مرة أخرى. إن التحرُّق، الرغبة، الاشتياق، والدوار هي أسنان هذا الترس، بالتبادل.

لقد تحوّلت نات -نات الجافة، الشاردة، اللامبالية، إلى كائن جائع، إلى درجة اضطرارها أحيانًا إلى كبح نفسها لكيلا تذهبَ إلى مقابلته في كل الأوقات، ولكيلا تبيتَ الليلَ في منزله. لم يطلب الأمر إليها قط. تحاولُ أن تُقنعَ نفسَها بأنّ الأمرَ أفضلُ هكذا: بالحفاظِ على سحرِ الفتنة غير المباحة، ورؤيتها لبعضهما بصورة متقطعة، في الخفاء، لكن ثمّة شيء في داخلها يودُّ من أندرياس أن يضغطَ عليها لتبقى لوقت أطول، أو أن يُصِرَّ على الأقل على الأمر، في ظل رواسب الإحباط التي تشعر بها حين ينظر إلى الطريق الذي تمضي فيه، دون أن يحاول إثناءها عن رأيها.

الجنس؟ هل المسألة فقط مرتبطة بالجنس؟ لو أنَّ الأمرَ مُرتبطٌ فقط بما هو تحت لحمها؛ بهذه الرعشة المُلحّة والطاغية، فكل المؤشرات تقول هذا، لكنها ترفض تحجيم المسألة بهذا الشكل، فالجنسُ كان دائمًا بالنسبة إليها أمرًا ثانويًا. صحيح أنه ممتع - أحيانًا- لكن متعته ثانوية. يُمكنها أن تضعه في مرتبة أدنى بلا مشاكل، بل وقد تتفاداه أو تشطبه من حياتها بالكامل. البرود والفضول، هكذا كان الأمر دائمًا. لطالما كان الرجال الذين أعجبوها مختلفين جدًا عن أندرياس. أحَبَّت بوجه عام أن تستمعَ إلى حكاياتهم، أن تتمشَّى، أن تشاهدَ فيلمًا، أن تثمل، أو أن تضحك معهم أكثر من مشاركتهم الفراش. في

كل الأحوال، كانت تملُّ في النهاية من هذه الأشياء، وأولها الفراش، إذ كان جسدُها ينغلق عند ملامسته، عصيًا ومتمردًا. لقد وصفوها ذات مرة بالـ «باردة»، كاتّهام لا يشمل جسدها فقط، بل شخصها بالكامل.

في طفولتها، انتهكها رجلٌ ما جسديًا، أحد جيرانها تحديدًا. ما شعرت به نات بعد هذه اللقاءات هو التشوُّش مع شيء من الخوف والذنب، لكن التشوُّش قبل أي شيء آخر. مع ذلك فإنها، بمجرد إفلاتها منه، كانت تواصل حياتها كأن شيئًا لم يحدث. اعتاد الرجل أن يُجلسها فوق ركبتيه، وأن يفرُكَ نفسه فيها. لم يُؤْذِها. كان رجلًا طيبًا وله مَعَزَّةٌ كبيرة عند والديّ نات. كان عجوزًا. تتذكره هكذا: عجوز، لا يتخطَّى عُمْرُه خمسين عامًا، منعزل، يهوى الموسيقى، عيناه صغيرتان ولطيفتان وفقَدَ زوجتَه قبل سنوات قليلة نتيجة لإصابتها بالسرطان. لم تستطع نات أن تتحدّثَ بالسوء عنه أمام أبويها، بل ولم ترَ أن لها حقًا في الإتيان بهذه الفعلة. صحيح أنها لاحقًا بدأت تتهرّب منه، لكنها ظلّت بطريقة ما تُكِنُّ له مودَّة معينة. هل لعب كل هذا الأمر لاحقًا دورًا في جنسانيتها؟ لا تعتقد نات أن هذا هو ما حدث، رغم كل ما يُقال بخصوص الحالات التي تشبه حالاتها وموضوع أثر الطفولة الذي لا ينمحي. لو أن الأمر فعلًا هكذا؛ لو أن هذا الرجل قد حولها حقًا إلى مخلوقة لا مبالية وعديمة الإحساس، فإن كل الأمور قد تغيرت الآن، بصورة غير متوقعة، بفضل رجل آخر.

يتصل بيتر بها بإلحاح. في البداية اعتادت أن تقول له إنها مشغولة. بعدها بدأت تقول إنها متوعكة، أو إن رأسَها يؤلمها كثيرًا، كحال عُنُقها وظهرها، فأن يجلس المرء وقتًا طويلًا ليترجم ليس أمرًا جيدًا في نهاية المطاف. إنها أعذار حمقاء وتخلو من الكياسة. تدرك هذا. ستشرح له المسألة لاحقًا، لكن تمر الأيام دون أن تجد فرصة ملائمة لفعل الأمر.

ذات مساء، بينما هي على وَشْك الخروج، يحضر بييتر إلى باب بيتها. يقول:

- يا لسعادة عينيّ برؤياك!

ينظر إليها من قمة رأسها إلى أخْمَصِ قدميها مبتسمًا، وفي الوقت نفسه بجبين مقطب، كأنه يفُكّ شفرة لغز ما. يسألها إن كان وقتها يسمح بتناول جعة. إنه ذاهب إلى بيتاكاس لقضاء بعض المشتريات. أيمكنها أن ترافقه ليشربا شيئًا معًا. كيف يبدو لها الأمر؟

تتأخر نات في الرد. فجأة، يبدو لها الرد على مقترح بمثل هذه البساطة والاعتيادية أمرًا شديد الصعوبة. تهُزُّ رأسها رافضة قبل أن تقول: «ربما لاحقًا، في يوم آخر». يضحك بييتر ويسأل: «يوم آخر؟» لقد مَرَّ عليها أكثر من مرة ولم يجدها. ما هو الشيء المهم الذي عليها أن تفعله؟ إنها متأنقة ولا ينقصها سوى حقيبة يدها. ليس عليها حتى أن تجلب نقودًا، فالدعوة عليه. أم أن الأمر يرتبط بكونها ذاهبة إلى مكان آخر؟

- كنت ذاهبةً لأحرّك قدميَّ. لا أكثر أو أقل.

- إذن فلتُحرّكي قدميكِ معي!

- لا. حقًا، لنؤجّلها إلى يوم آخر. أفضِّلُ أن أكون بمفردي!

يرفع يديه في إشارة سلام ويقول لها أن تهدأ، فهو لا يسعى إلى إزعاجها. لم يَسْعَ قط إلى إزعاجها. فكّر في أن حصولها على بعض الصُّحبة قد يكون أمرًا جيدًا، خاصة بعد الألم الفظيع الذي تقول إنها عانت منه في الأيام الماضية. أم أن لديها صُحبة أخرى؟ ربما في نهاية المطاف لم تكن وحيدة جدًا.

- ليس عليكِ أن تخفي أيَّ شيء عني.

يفسح القلق مكانًا لنفسه داخل نات. لم يتحدث بييتر بنبرة تأنيب. على العكس، فعلها بِلُطف وكياسة، عند ذلك الحَدّ الماكر الذي يستفز فيه الأصدقاء بعضهم. تقف فكرة الالتزام الأخلاقي في خلفية كل هذا: لا

يجب على نات أن تكذب على شخص عاملها بصورة جيدة جدًا. تعتذر منه. تعترف أنها تدين له ببعض التفسيرات وتؤكد أنها ستمنحها له، حين تسنح الظروف. يقرّب بييتر يده إلى ذراعها، كبادرة صُلح ويقول إنه لا توجد مشكلة، ثم يمُدُّ أصابعه لمداعبتها. تتراجع نات إلى الوراء، ودون أن تعي لا تسمح له بلمسها.

تكرر عبارتها:

- عليَّ أن أذهب، حقًا. سأحكي لك كل شيء. أعدك بهذا.

- على أي حال، المهم هي التفاصيل.

- ماذا؟

- أقول إنني أنتظر منكِ التفاصيل، أما الأمور الأساسية فأنا على علم بها.

- الأمور الأساسية بخصوص؟

- بخصوصك أنتِ والألماني.

ينعقدُ لسان نات، بينما يبتسم بييتر بسخرية. ما هي الأمور الأساسية؟ هل يتحدث عن زياراتها إلى أندرياس؟ هذه الزيارات الخاصة والمتكررة التي وصلت إلى مسامعه؟ أم هل يتحدث عما وراءها؟ عن صفقة القراميد؟

يراقبها «سيسو» من على بُعد عدة أمتار في وضعية جامدة، بأذنين منتصبتين وعينين منتفختين. تفكر بتشوُّش في اسم أنوبيس. ربما عليها أن تدعوه أنوبيس، ابن آوي المحنّطين. إنه إله غريب، لكنه في نهاية المطاف إله. ينتزعها بييتر من شرودها. تكتسي الجدية وجهه الرزين رائق المزاج. يُداعب لحيته كأنه يفكر قبل أن يتحدث، ليبرز أهمية ما سيقوله.

- عزيزتي.. نحن في لا إسكابا. مجرّد حفنة من المنازل وسط العدم. ما الذي توقعته؟ أن أحدًا لن يدرك؟ كل ما يهمني أن تكوني بخير.

- أنا بخير.

- هذا هو ما أودُّه. بما أنكِ بخير، فليس لديَّ أي رأي. انسي ما تحدثنا عنه في المرة الأخيرة.

- ما الذي تقصده؟

- المرة الأخيرة.. حينما سألتِ عنه وأبديتْ عدم ثقتي فيه. كنتِ تسحبينني من لساني دون أن أعرف، أليس كذلك؟

يتضرج وجهها خجلًا، لكن بييتر يسارع مرة أخرى لتوضيح أنه ليس منزعجًا، فهو يفهم كل شيء وليس لديه شيء ليعترض عليه ما دامت بخير.

ما هو غرضه من هذه الجملة الأخيرة؟ هل ثمَّة تحذير وراء هذه الكلمات؟ تودعه نات بقلق لا يُذكر ويكاد أن يفتقر إلى أيِّ أهمية، لأن تعجُّلَها الرحيل ورغبتها فيه في تلك اللحظة أكبر من أي شيء آخر.

لكن هذه الذرَّات البسيطة من انعدام الثقة، ستبدأ لاحقًا في التضاعف، واكتساب ثقلها.

- هل كنتُ أُعْجِبُكَ منذ البداية؟

يجيبها أندرياس بالنفي. لا ملمح للشَّكّ في ردّه، بل ولا يحاول أصلًا تصنُّعَه. نفيه حاسم وقاطع، بل ويزيد عليه بقوله إنه في الواقع لاحظ وجودها بصعوبة. كان يراها في الطرقات أو المتجر، لكنها لم تثر فضوله. إنه شارد على الدوام، ويحدث له هذا الأمر مع كل الناس. تشعر نات بألم يشق طريقه وسط حنجرتها. إنه ألم خشن وحاد ومحكم ولا تفسير له. تبلع بعدها ريقها بصعوبة.

- إذن بخلافي أنا، كان من الممكن أن تصبح واحدة أخرى.

لم ينتصف العصر بعد، لكن الضوء الداخل إلى غرفة النوم عَكِر، كأنَّ الليل بدأ يحُلّ بالفعل، لهذا يكاد كُلٌّ منهما ألا يرى وجهَ الآخر. يفكّر أندرياس

لبضع دقائق، ثم ينظر بعينيه إلى السقف.

- كان الممكن أن تصبح واحدة أخرى غيرك. كان الممكن أن يصبح واحدًا آخر غيري. هكذا هو الحال دائمًا.

- لكن لو أنني لم آتِ بحثًا عنك بعد... بعد المرَّة الأولى، هل كانت كل هذه الأمور ستحدث؟

- لا، على الأرجح.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- سماعك تقول هذا الأمر مؤلم جدًا.

يبتسم أندرياس بِسَهْو ويقول:

- ليس عليه أن يؤلمك. في النهاية، ها أنتِ ذي وها أنا ذا. هذا هو المهم.

تودُّ نات أن تسأله ما الذي تعنيه بالنسبة إليه. تودُّ أن تسأله لو أن كل شيء بدأ بصدفة - بصدفة شديدة التفاهة والسخافة كتسريبات سقف البيت- فلماذا يستمرَّان في مقابلة بعضهما بعد إبرام الصفقة. تعرف أنه أمر سخيف، لكنها في أعماقها، تود أن تكون المُختارة؛ أن تكون قد تعرَّضت للإغواء بعد تخطيط طويل. تود أن تسمع أندرياس يقول إنه لاحظها منذ اليوم الأول، وقع في غرامها رويدًا رويدًا، ونسج خططه للاقتراب منها، وحين رأى فرصة أمامه انقضَّ عليها غير مهتم بالمخاطر. تودُّ أن تحُلَّ القصة الرومانسية محل القصة.. الإباحية؟ لكن أندرياس لا يقول شيئًا من هذا. ينظر إليها فقط بجدّيّة، كأنَّ الألمَ -أيّ ألمها- لا وجود له؛ وكأنَّ كُلَّ ما عليه فعله على أقصى تقدير، هو أن يتعاطفَ معها، قبل أن يتجاهلَها بالكامل.

يسألها في النهاية:

- هل لاحظتِ أنتِ وجودي أصلًا؟ أليس نفس الشيء؟

تلتفت نات في اتجاه الحائط، لإخفاء دموعها. تفكّر: لقد بدأَ كُلُّ شيء في هذا الفراش، حينما طلب إليها أن تُعرّي نِصْفَها السُّفْلي فقط، لو أن هذه

هي رغبتها. لقد استغلَّها لأن عاهراتِ بيتاكاس بائسات، كما قال بنفسه. كيف له أن يعرف أمرًا كهذا؟ هل لجأ إليهن في مَرَّات أخرى؟ هل جعله إرهاقه من بؤس العاهرات يقرّر أن الاقترابَ منها خيارٌ أفضل؟ أي نوع من الأشخاص هو؟

يقترب منها أندرياس. يداعِبُ ظهرها، يُقبّلها فيما بين رقبتها وكتفها ويسألها ألا تكفيها الوقائع؟ الوقائع الموجودة أمام عينيها؟ لِمَ هي في حاجة إلى تفسير كل شيء؟ ما الذي تسعى إليه؟ لا تجيبه نات، لأنها وهي راقدة على جانبها، وذراعاها معقودتان فوق صدرها، تحاول طرد الشيطان الذي يستحوذ عليها.

تستيقظ يوم السبت على أصوات جيرانها في الحديقة. وصلوا على الأرجح في المساء السابق ويبدون منشغلين إلى حد السُّعار بالتجهيز لحفل ما. تسمعهم نات يتحدثون عن شرائح اللحم، الفحم وأقراص الإشعال. يتشاجر الطفلان على لُعبة بصرخاتهما الصغيرة الحادّة الحانقة. تغطّي نات رأسَها بالوسادة. لقد عادت الليلة السابقة من بيت أندرياس في وقت متأخر للغاية، منتظرة أن يطلب إليها في اللحظة الأخيرة أن تبيتَ معه، والحق أنها كانت تنتظر طلبه لترفضه. الآن مع كل هذه الضوضاء لن تقدر على النوم لفترة أطول. تنهض لكنها لا تقرر أن تفعل شيئًا محددًا. الترجمة موجودة فوق الطاولة، حيث تركتها، عند صفحة تتحدث عن الصمت. تقول العبارة: «وفي صمتنا، على وجه الخصوص، ثمة صمت من نوع خاصّ»[1].

لكن، لو أن الصمت يعني غياب الكلمات، فكيف يمكن تفسير وجود صمت «خاصّ»؟ ألا يجبُ أن تكون كل أنواع الصمت واحدة، كما هو الحال مع اللون الأبيض؟ من الواضح أن ما يميز جميع أنواع الصمت هو ما يحيط

(1) وردت في النص الإسباني مكتوبة بالفرنسية. (المترجم).

بها، بداية بأسبابها. هل صَمْتُ أندرياس بعد الانتهاء من الجنس هو نفس صمتها؟ تخمّن نات أن الإجابة هي لا وأن صمته له قوام آخر.

تسمع «سيسو» ينبح، تخرج إلى مدخل البيت المسقوف، وترى بيتر قرب السياج. إلى جواره، تُحرّك كلبته الرائعة ذيلها بحماس. لقد اختار كلاهما نوعًا «خاصًا» من الصمت، إذ لم يعودا إلى ذِكْر أندرياس من جديد. صحيح أنها وعدته بأنها ستحكي له الأمر بالتفصيل، لكن أي تفاصيل قد تقدّمها له؟ الأمر ليس ضروريًا، بل وربما يأتي بعكس المراد منه.

يرفع صندوقًا من الزجاجات ويقول:

- سآخذه إلى «إل شاليتيتو». أراكِ هناك.

- هناك؟ ما الذي تقصده بهناك؟

- إنه حفل الخريف. حفل الـ...

يضع الصندوق على الأرض، يفكّر، ويُتمتم بينما يفرك جبهته. إنه أمر غريب. هل لم تتلقّ نات دعوة؟ ينظم جاراها سنويًا حفلَ شواء ترحيبًا بالخريف والأمر -كما يشرح لها- بات عادة في لا إسكابا. ربما نسي جاراها إخبارها.

- هل ترغبين مني أن أذكرهما؟

تحرك نات برأسها رافضة بِجِدَّة:

- ولماذا قد أهتمُّ بهذا الحفل؟ ليس لديّ أيُّ دور هناك.

يبدو بيتر مستاءً من الأمر. يصر على نوايا الوساطة. من المُهم أن تكون علاقة الجميع جيّدة في هذا المجتمع السكني. حينما يقول كلمة «المجتمع»، يرفع حاجبيه بوقار.

- حسنًا.. بكل تأكيد لستُ الوحيدة التي لم تتلق دعوة. أنا متأكدة من

أنهما لم يوجها الدعوة إلى الغجر أو روبرتا. ليسا مجبرين على دعوة العالم كله. أليس كذلك؟

- انتظري.. الأمر ليس سيَّان!

- لا، بل الأمرُ سيَّان، ولو لم يكن كذلك، فهو أسوأ، ومعه ستَقِلُّ رغبتي في الذهاب.

المسألة حقيقية. لا تشغل نات بالَها بِجَارَيْها تقريبًا. تزدريهما حينما تراهما يتصرّفان كأن «إل شاليتيتو» جميل حقًا؛ كأنه مزرعة ريفية بديعة، وتسخر كذلك من الطريقة التي يُجبران بها نفسيهما وأولادهما على إبداء سعادتهم طوال الوقت. مع ذلك، ثمَّة جزء داخلها -وهو جزء لزج كالبرمائيات أو الزواحف- يشعر بالحيرة من مسألة إقصائهما لها. ما السبب؟ ما الذي فعلته كي ينزعجا منها؟

تتصنّع اللامبالاة أمام بيتر. تُكرّر نفس التصرُّف بينما تحكي الأمر لأندرياس في نوبة ثرثرة لا تتمكن من السيطرة عليها. تؤكد أن المسألة لا تُشعرها بالإهانة، لكنها مندهشة من إقصائها بمثل هذه الصورة. ربما يرفضان طريقة حياتها. لا بد أنهما لا تروقهما مسألة أن تعيش هنا بمفردها، بلا زوج يقُصُّ لها العشب، أو كونها تخطَّت سِنَّ الثلاثين دون أن تُنجِبَ أو أن تخطِّطَ حتى للإنجاب، وكذا عدم انشغالها بنظام الصرف الصحي في لا إسكابا أو مدى صلاحية المنظومة التعليمية التي تحدَّثا بخصوصها مع أصدقائهما في المرة السابقة. من شبه المؤكد أنهما قد أدركا مسألة أندرياس؛ مسألة... صداقتها معه. لقد تردَّدت حتى وهي تبحث عن الاصطلاح المناسب. من المؤكد فعلًا، أنهما يستنكران أمرًا كهذا.

يقاطعها أندرياس:

- أليس من الممكن، بكل بساطة، أنهما نسياكِ؟

تشعر نات أنها مُتّهمة بشيء ما، إلا أنها لا تعرف ماهيته. هل تُبالغ؟ هل تلعب دور الضحية؟ هل تظن أن العالم كله يدور حولها؟ تُصِرُّ على أنها لم ينسيا دعوتها. إنه أمر مستحيل. إنهم جيران في نهاية المطاف وباحة منزل كل منهما تلتصق بالأخرى. لقد وجّها إليها الدعوة في مرّات أخرى بالفعل. لا بُد من تقبُّل أنها لا تروقهما ونقطة.

- لكنهما أيضًا لا يروقانك، أليس كذلك؟

- بالتأكيد. لا يروقانني.

- لو أنكِ في مكانهما، هل كنتِ ستوجّهين إليهما الدعوة؟

- لو كنت مكانهما، لَمَا أقَمْتُ حفل شواء أصلًا.

يبتسم أندرياس:

- إذن، ما الفارق؟ كل طرف منكما يتحدَّث بلغة مختلفة.

تعرف لا إسكابا كلها قصتها مع أندرياس. لقد أخبرها بييتر أن التظاهر بأن القصة ليست على ألسن الجميع سذاجة، خاصة في مكان شديد الصغر؛ في «مجتمع» ضئيل جدًا كهذا. تلاحظ، حين تذهب إلى المتجر، كيف تُعاملها الفتاة بطريقة مختلفة، أكثر جفاء، وكأن أحدًا قد أهانها. ينطبق نفس الأمر على أُمِّها، التي اعتادت سابقًا أن تخرج من غرفة المتجر الخلفية لتحيّتها، لكنها الآن تتفاداها بوضوح ببقائها في الخلف والتظاهر بانشغالها بشيء ما. كذلك، بات عليها أن تواجه دمدمة ونظرات فِرَق عُمّال البناء من بيتاكاس التي تتفقّد جسدها خلسة في «حانة الرجل السمين». تنخفض معنويات نات. لِمَ كُلُّ شَيءٍ عَدَائيٌّ ومُعقّدٌ بهذه الصورة؟ حتى صاحب البيت، يبدو كأنه يعرف شيئًا أو ربما هي من يتخيل أنه يعرف شيئًا. يقرَعُ باب البيت بقوّة، في اليوم الذي جاء فيه للحصول على الشهرية، ثم يشيرُ إلى المِزْراب بسخرية قائلًا:

- من رَكَّب هذا يعرف جيدًا ما يفعله.

تمرُّ داخل رأس نات -وكأنها ظل- احتمالية أن صاحب البيت لا يعرف فقط بشأن علاقتها بأندرياس، بل أيضًا بالمعايير التي نشأت عليها، كل سلسلة مسبباتها وعقباتها، التي إن تجَسَّدت في صورة كلمات، ستبدو مصطنعة، بل وسخيفة. لكن صاحب البيت لا يقول شيئًا آخر، ولا يذكر حتى احتمالية خصم أي مال من الشهرية مقابل الإصلاحات. كذلك، لا يوجّه إليها أيَّ شُكر. يقتصر ما يفعله فقط على أخذ المظروف والسؤال عن «سيسو»، إذ يقول: كيف حال الوحش؟ «الوحش». لقد ظهرت هذه الكلمة مؤخرًا أمام نات بينما تترجم، لكن المعنى هنا مختلف. المعنى هنا مهين.

- إنه في خير حال.

- فعلًا؟ عليَّ أن أصدقك، لأنني لا أراه أبدًا.

- هذا لأنه يختبئ.

يضحك صاحب البيت مقهقهًا.

- يختبئ؟ يحدث الآن أنه يختبئ؟ ومن الذي يختبئ منه؟ مني؟ الأمر يبدو ظريفًا.

- لم أذكر هوية من يختبئ منه. أقول فقط إنه يختبئ. إنه كلب منعزل ويمضي في الحياة وَفْقَ مزاجه.

«وفق مزاجه». إنه تعبير حاسم، ينُمُّ عن العِزّة، ويضفي نوعًا من الكرامة على الكلب. ربما الأنسب، والأعدل، هو قول إن «سيسو» صعب المَعْشَر وشَكِس، لكن هذا سيعني أنها ستقدم تنازلًا جديدًا أمام صاحب البيت في النزاع الدائر بينهما على مستوى آخر: مستوى الكلمات وما ورائها.

- وهل هذا هو السبب؟ هل مزاجه هو السبب الذي يجعلك تقيدينه ليلًا؟

يشحُبُ وجه نات. كيف له أن يعرف شيئًا كهذا؟ هل يتجوّل هنا ليلًا؟ لا

تتمكّن من الرد عليه دون أن يرتعش طرف ذقنها، وهي الطريقة التي لطالما اكتشفوا بها أنها تكذب إبان طفولتها.

- أقيّدُه لأنني لا أرغب في أن يتشاجر مع الكلاب الأخرى، ففي الفجر، يمسُّها الجنون وتنبح جميعا مرة واحدة.

- الجنون؟ ما الذي تقولينه يا فتاة.. إنها كلاب! ماذا تنتظرين منها؟ تنبحُ الكلاب لأنها كلاب ونقطة! أسوأ شيء يفعله المرء لكلب هو تقييده. يجب أي كلب أن يتجول، أن يضاجع، وأن يبحث عن إناث. إن لم تَفُكّي قيده، سيمسُّه الجنون فعلًا.

«أن يضاجع ويبحث عن إناث». هل هذا هو ما يفعله بنفسه حينما يتجوّل في لا إسكابا ليلًا؟ تشعر نات بفراغٍ ينفتح في معدتها وبِوَهَنٍ في ساقيها. ليتها تجد القوّة الضرورية لطرد هذا الرجل من هنا في التوّ واللحظة، لكنها ليست لديها، لهذا تنتظر بوداعة أن يرحل بنفسه.

تُحلّل سلوكَ أندرياس بتمعُّن: النبرة التي يتحدّث بها معها، الطريقة التي يجلس بها إلى جانبها، أو المساحة التي يتركها في الأريكة بينهما. تُدوّن، كمن يتولى جرداً مُشددًا، عدد المرات التي يلمسُ فيها يدَها أو ينظر إليها -حتى ولو بسرعة- وكذلك الاهتمام الذي يوليه إليها حين تقُصُّ شيئًا ما، وتغييرات نبرةِ صوتِه، بحثًا عن اللُّطف أو نفادِ الصبر. يبدو لها الأمرُ غيرَ كافٍ على الدوام. على سبيل المثال، يبدو لها أنه ينفصِلُ عن جَسَدِها سريعًا وهما في الفراش قبل أن يناما، أو أنه يعانقها لفترة قليلة للغاية، قبل أن يستدير على الفور وينامَ بِعُمق يُقصيها من المعادلة بالكامل. تراه نائمًا وتفكّر: كيف يُمكنه أن ينام بهذا العمق؟ كيف يمكنه أن ينسى وجودها إلى جواره؟ نوم نات متقطع، مُجرّد بضع دقائق بسبب إنهاكها، قبل أن تستيقظ فورًا لتتحَسَّسَ إلى جوارها، فتتيقن مغمومة من أنهما لا يتلامسان، وأن كُلًا منهما فوق جانبه

في الفراش، دون حتى أن يمسَّا بعضهما.

يحدثُ الأمرُ أيضًا مع الطعام. ثمَّة عقدة في حنجرة نات تمنعها من ابتلاعه، بل يشُقُّ عليها أن تمضغه، أما هو، على النقيض، فتراه يأكل بشهية، كأنها غير موجودة في اللحظة التي يغرس فيها شوكته أو يستخدم فيها سكينه، وكل تركيزه منصب على أدوات المائدة والطبق. تتساءل نات عَمَّا يدور في رأسه في تلك اللحظات. هل ينساها؟ هل يدفعه جوعه إلى إهمالها؟ التناقض يبدو لها متوحشًا، فهي لا يمكنها الاستغناء عنه ولو لثانية واحدة.

تشعر أحيانًا بالغضب. لقد طُردت شخصيتها منها كي يحتلَّها هو بالكامل، بعد أن «تركته يدخلها» بكل خضوع. لكن هو؟ أيُّ تغيير قد طرأ عليه؟ يبدو منيعًا أمام كل شيء. لا يترك شيئًا يمسُّه. لو حَكَت له شأنًا شخصيًا، يسمعها في صمت، بلا تعليق أو سؤال عن التفاصيل أو أي تفسير للأحداث. إن هذا السلوك المحترم، الذي تشتاق إلى وجوده في الأخرين، يبدو لها مع أندرياس أمرًا مُحبطًا. هل يتعلق الأمر بكينونته شديدة الحرص والتحفُّظ؟ ربما لا يوَدُّ أن يبدو كمن يُقحم نفسه في شؤونها؟ أم أنه أصلًا ليس لديه أدنى اهتمام بالأمر؟ بالنسبة إليه، فهو يتحدث قليلًا، وحين يفعلها، يرتبط الأمر فقط بأمور خارجية، ليس لها أهمية، وبعيدة عنهما هما الاثنين. تشعر نات مع طريقة التعامل هذه التي لا اسم لها أنها مُهانة بأغرب الصور؛ كأنها تلاحق أحدًا لا يوَدُّ أن يعرفَ شيئًا عنها؛ كأنها تهرول بسخافة وراء شخص يسير أمامها ولا يعي أصلًا وجودها.

ثمة مَرَّات أخرى، تترك نفسها تنقاد وراء الثُّمالة اللذيذة للحظة، فتعتقد أنها ستنفجر من فرط السعادة، إذ تشعر، ويَدُ كل منهما تُعانق يد الآخر في دوختهما وتعافيهما من فرط النشوة، بأن إعصارًا قد سَحَبَها ونقلها إلى عالم مغاير. حين ينهض أندرياس، تغطس بوجهها في الملاءات لتتعقَّبَ عَرَقَه،

وهي توشك على البكاء، بينما تتمتم باسمه مرة تلو الأخرى، وتقول في نفسها إنه لا يوجد اتحاد بين شخصين أكبر من ذلك الموجود بينهما. ربما هو محق. ربما عدم التوغل ومحاولة فهم اللغز، هو التصرف الأفضل، لكيلا ينتهي السحر.

تحومُ فكرة غَمُّ السعادة حولها الآن باستمرار. إنه ذلك النوع من السعادة التي تحتضن بين ثنياتها بذرة دمارها.

ذات يوم تسأله نات عن اسم القطة. يجيبها: «لي». «لي»؟ «لي» فقط؟ بالطبع. «لي». لام وياء. هل من المفترض أن تمتلك اسمًا ولقبًا؟

تُصِرُّ في سؤالها:

- لِمَ «لي»؟ هل من سبب؟

- لا. على الإطلاق. لماذا قد يكون له معنى؟

تتمتم:

- إنه جميل.

تقول الجملة فقط لتقول شيئًا ما، ولتفادي إحساسها بأنها قد ارتكبت خطأ، رغم أنها تجهل ماهيته.

التقدُّم في أي محادثة مع أندرياس أمر مُعقّد. حينما تسأله عن شيء ما، تبدو كُلُّ واحدة من إجاباته نهائية، وكأنها تحدد مسبقًا عدم ملائمة الاستمرار في طرح الأسئلة. ربما ما يُميّز طريقةَ حديثه ليست الطريقة التي يَدْهَسُ بها مقاطع الكلمات، وإنما -كما تفكر نات- تلك النبرة الحاسمة، الكافية بذاتها، والقابعة أسفل طريقة نطقه لها.

تنظر إليه بطرف عينيها، في رقوده على بطنه ليرتاح فوق الفراش، بعينيه المغمضتين. حينما ينام في النهاية، تستند إلى كوعها لتراقِبَه بصورة أفضل، بِنَهَم. تبحث في ملامحه عن أثر لأجيال سابقة، تركية أو ألمانية. إنها واحدة من

تلك الأمور التي تجهلها لأنه لم يأتِ قطّ على ذكر ماضيه. تقرأ قَسَمَاتِ وجهه وتكتشف فيها أثرًا لجلال ما. تفكّر في أن وجْهَه كما يجبُ أن يكون وليس هناك طريقة أخرى قد يتشكّل بها. تفتقر ملامحه إلى الجمال، وجسد كل منهما بعيد عن الآخر، بل إنها تبدو سوقية: أنفه المفلطح، شفتاه المنكمشتان أسفل شاربه الخشن الشائب، الظلال الوردية التي يبرز معها مَحْجِرا عينيه بصورة أكبر، رغم أن مجمل وجهه يُخفيها.

لا بُدّ من النظر إلى وجهه بهذه الطريقة، كما تفعل هي، كي يتمكّن المرء من الوصول إلى ذلك العُمق الذي لا يصل إليه الآخرون. إنه وجهٌ مستديرٌ، صلبٌ، ومليءٌ بالأسرار. إنه وجه مُقلق، أما الوصول إلى ما وراء جفنيه فأمر مستحيل.

مؤخرًا، أهمل أندرياس البستان. حتى نات، التي لا تعرف شيئًا عن المزروعات قادرة على رؤية الأمر. من الممكن أنه لا حاجة لريّه في ظل وجود الأمطار، لكن الثقة في الأمطار فقط ليست تصرفًا صائبًا، فجزء كبير من الخضروات يذبل بالفعل بسبب الإفراط في الماء. ثمَّة شجيرات مغمورة بالماء، براعم متعفّنة، فروع متنامية وملتوية بصورة فوضوية، وأماكن محفورة في الأرض من قِبل القطط التي تدخل لِسَرقة طعام «لي»... هذه هي حال البستان الآن. منذ باتا معًا، يقطف أندرياس الخضروات فقط للاستخدام الشخصيّ ولا يوزّع شيئًا منها في الحي، على حَدّ علمها على الأقل. حينما تسألُه عن الأمر يلوّح بيده. إنها إيماءةٌ قد تنُمُّ عن عدم انشغالِ البالِ أو رُبّما الإهمال. يقول بعدها إن البُستانَ ليس أهمَّ شيء، فعاجلًا أم آجلًا، كان سيفكر في تركه.

– سيكون الأمر مؤسفًا لأن كل ما تزرعه جيّد جدًا.

يومئ أندرياس برأسه. يقول لها نعم، الأمر كذلك، أو أنه كان كذلك،

لكن حانت اللحظة لتكريس نفسه لأمور أخرى. أمور أخرى؟ تعتقد نات أنه في البداية يشير إليها -إلى الوقت الذي يقضيه معها- لكن حدسها على الفور يمضي في الاتجاه المغاير، وتبقى متأهبة.

بينما يلُفُّ أندرياس سيجارته يشرح لها أن صديقًا -قبل أن يُصوّبَ كلامه ويصفه بأحد معارفه- أنشأ العام الماضي شركة طوبوغرافيا في بيتاكاس. في البداية، كان يديرها بمُفرده، لكنّ الآن باتت معه حزمةُ عملاء معقولة ويحتاج إلى مساعدة المزيد من الأشخاص، لهذا سيعمل معه كطوبوغرافي، بل إنه سيبدأ العمل معه بالفعل خلال الأسبوع المقبل. إنها مسألة أيام. ما من تطلُّعات كبيرة لديه بخصوص الموضوع، لكن مهما تصاغرت أحجام القرى، فلا توجد واحدة منها لا يتفاخر مجلس بلديتها بالمشروعات الحضرية والأعمال العامة. ببساطة، يرتبط الأمر بهذه الأعمال. سيبدو الأمر كتسريب مستمر يُنقط تكليفات صغيرة. يَزُرُّ عينيه ويبقى صامتًا وهو يدخّن. لقد أنهى كلامه بكل وضوح.

تُنصت نات إليه بفم مفتوح، مندهشة من سماع مصطلحات وتعبيرات لم تتخيّلْ خروجها قط من فمه مثل: «حزمة عملاء معقولة» و«المشروعات الحضرية». أليس أندرياس مجرّد رجل ريفي؟ الآن، فجأة، بات يُفترض أنه حصل على تأهيل، ودراسات، وقدر من الثقافة. إنه أمرٌ لم تتوقّعه. تتبرعم داخلها شكوكٌ لا حصرَ لها وأسئلة تودُّ أن تسألَه بخصوصها، فتتراكم من وراء أسنانها؟ ما الذي يفعله الطوبوغرافيون؟ هل يقيسون البروزات؟ يَرْسُمُون الخرائط؟ ما هي نوعية الأدوات التي يستخدمونها؟ أشرطة، موازين، بوصلات، أجهزة «جي بي إس»؟ مع من يتعاونون؟ مع موظفين حكوميين؟ مع عُمّال بناء؟ مع رجال أعمال؟ يشق عليها تَخَيُّل أندرياس وهو يتعامل مع وثائق رسمية ويصيغ تقارير. الاحتمالية المجردة لاستخدامه

لحاسب آلي تبدو لها غريبة جدًا، لأن بيته لا يوجد فيه جهاز، كما أن هاتفه المحمول بدائي بصورة مُلفتة للنظر.

ينبثق سؤالها فجأة وعنيفًا بصورة غير متوقعة:

- لكن.. هل درست كي تفعل كل هذه الأمور؟

يرفع أندرياس نظرته. يتأملها بجدية. يتجعَّدُ ما بين حاجبيه بينما يجيبها: «بالطبع نعم». لقد درس الجغرافية في كارديناس منذ عدة سنوات تفوق تصوُّراتها. هل يُفاجئها الأمر؟ كيف يبدو الطوبوغرافيون في ظنِّها؟ هل حقا كانت تعتقد أن فائدته في الحياة هي زراعة الحَسّ؟ يضحك، لكن ضحكته تأتي من بعيد، من مكان قد طُردت هي منه بالفعل. تعتذر نات. تخرج عند الباب، تنحني، وتنبُشُ الأرض مترددة. لم يَحْكِ لها بيتر شيئًا عن هذا. كل ما قاله هو إن أندرياس «صنايعي رديء». لقد قالها بازدراء. هل هو على دراية بالأمر؟ أم أنه تظاهر بأنه يجهله؟ ثمّة فكرة، لكنها فكرة شريرة غير مناسبة، تداهمها: «هل يحاول أندرياس أن يتهرَّب مني؟ هل كل ما يقوله كذب ومجرد عذر ليتخلَّص مني؟» هل سيصل الأمر حقًا إلى أن تحضر إلى بيته ولا تجده؟ هل سيقضي ساعات وساعات في الخارج، في عمله المزعوم، بينما تلُفُّ هي وتدور في انتظاره، والرغبة تتأجَّجُ داخلها. تستمِرُّ في نَبْشِ الأرض إلى أن تُمْسِكَ بين إصبعيها بدودة حمراء، لامعة، ورطبة. إنها مرتبكة إلى درجة أن الأمْرَ لا يُثيرُ اشمئزازَها، لهذا تتركها تتسلَّق يدها.

بسبب هذا العمل، لم يعودا يلتقيان كثيرًا. يقضي أندرياس أوقات الصباح في الخارج، لكنه أحيانًا -وهي أحيان آخذةٌ في الارتفاع- يقضي أيضًا المساء بأكمله. لا تزال نات تذهب لزيارته في نهاية اليوم، حينما يحُلُّ الليل. يرقدان معًا، يتعشيان، ثم تذهب لتنامَ في بيتها، ملتزمة تمامًا بالقاعدة التي أرست نفسها بينهما. يحكي لها أمورًا قليلة عن بيتاكاس وهذه الوظيفة الجديدة، إلا

أنها أيضًا لا تسأله، فهي لا تَوَدُّ أن تبدو غير رزينة أو أن تُبرز جهلها، لذا يدفعها نوعٌ غريبٌ من الحذر -لكنه حذر مفهوم- إلى تفضيل الصمت. يتجاذبان أطراف الحديث. هذا أمر صحيح، لكن عن أمور أخرى. يفعلانها عادة وهما في الفراش، أو بينما يجهّزان العشاء، لكنها محادثات تتقدّم ببُطء؛ باللف والدوران. بمرور الأيام، يعتادان على تناوُل العشاء أولًا ومن بعده الفراش. تلاحظ نات التغيير بإحباط وألم خفيف لكنه حادّ، لأنه إشارة على فُقدان عجلة الرغبة المُلحّة والمتوحشة جدًا، التي كانت موجودة بينهما في البداية ولم تقبَلْ قَطّ أيّ تأجيلات. تفكّر نات أن جوع الأكل الآن بات أكبر من جوع جسديهما.

يُضنيها بُعْدُ أندرياس كثيرًا إلى درجة تظن معها أنها غير قادرة على تحمُّله. تتحوّل ساعاتها الميّتة إلى مرعى للريبة، في ظِلّ عجزها عن الترجمة. لتفادي الأمر تعرِضُ تقديم يد عون إلى العجوز خواكين في رعاية زوجته وبيته. يتوصّلان فورًا إلى اتفاق: ستقضي نات النهار في بيته مرّتين أسبوعيًا، وستضطلع أيضًا بمسألة المشتريات اليومية. في يومي العمل، سيساعدها خواكين في تحميم روبرتا، على أن تنظّف الأرضيات وآنية المائدة، تغسل ملابسهما وتطبخ لهما. لا يمكنهما أن يدفعا لها الكثير، لكن وجودَ شيء أفضلُ من لا شيء.

تذهب أيضا إلى بيت بييتر لتُلهي نفسها. يستعيدان دفء البدايات، لكنهما يتجنّبان موضوعات بعينها، ويلوذان إلى التفاهات والتسلية بمشاهدة الأفلام أو ألعاب الكلمات، وهو نوع من الخِفّة التي تستمتع بها نات حقًا، كطفلة. على عكس توقعاتها، لم يؤنبها بييتر على تخليها عن وظيفتها الفكرية؛ أي تنازلها عن الترجمة -التي لطالما أثنى عليها بسببها- مقابل عمل آخر أكثر نفعية ولا بريق له، كالاعتناء بزوج من العُجُز، بل إنه دعم قرارها لأنه يُقوّي

فكرته عن «المجتمع». لا تعرف نات إن كان رأيه صادقًا أم هل يسعى فقط إلى إرضائها، لكنها تعي أن عائلتها وأصدقاءها في كارديناس، لن يطيقوا رؤيتها هكذا: مجرد عاملة نظافة، أو «خادمة»، كما اعتادت أن تقول أمها بازدراء. سيقولون: هل درستِ لتفعلي هذا؟ انتظار رجل لا تعرفه تقريبًا ككلبة في موسم التزاوج، تحميم امرأة نصف مجنونة، النوم بمفردها ومعها كلب لا تزال عليها أن تقيّده ليلًا. ما هو نوع الحياة الذي اختارته؟ هل هذه هي نهاية كل تمردها المفترض؟

ذات يوم تترك نفسها تمضي مع التيار وتسقط بخفَّة، كأنها تتدحرج، في بئر الاعترافات. تحكي لأندرياس نفس ما حكته لبيتر في أول ليلة تناولت العشاء في منزله: قصة العمل الذي تركته، السرقة غير المبررة، رفضها للرحمة، العفو، وعِزّتها غير المثمرة. يدفعها صمت أندرياس، في تناقض مثير للسخرية على الأرجح، إلى الاستمرار، فتستخدم كلمات تزايَدَ انعدام دقتها مع مرور الوقت مثل: «ذنب»، «غياب»، «ارتباك»، «ودوار». لا يجيبها أندرياس، فتواصل حديثها، تائهة في تجرُّدها، وهي راقدة فوق ظهرها، بنظرتها الثابتة فوق المصباح عديم الإطار الذي تحفظه عن ظهر قلب؛ المصباح المترب وسلكه الأسود.

يتجلّى ثِقَلُ الصمت فقط حينما تُنهي حديثها؛ ذلك الهواء الفارغ الذي لا يقطعه إلا خرخرة «لي» أسفل قدميها. تلاحظ نات بطء أنفاس أندرياس وسكونه إلى جوارها. فجأة تبدو لها كل الأشياء غير واقعية: غرفة النوم، القطة، وجسدها نفسه، وكأنها محبوسة داخل لعبة ضئيلة غير مهمة. يصل الأمر إلى درجة ظنها أنه قد نام، لكن المسألة ليست صحيحة، لأن عينيه مفتوحتان، بيد أن التعبير المرتسم على وجهه خاوٍ، ولا يمكن سَبْرُ أغواره. تسأله:

- ما رأيك في كل هذا؟

- في ماذا؟

- ما قصصته عليك. أنت صامت أكثر من اللازم. ما الذي تفكر فيه؟

يعتدل أندرياس. ينظر إليها بقسوة، بكآبة جديدة على عينيه، كأنهما عينان زجاجيتان أو عينا ميت. نبرة حديثة الآن جافّة وحادّة بشكل مفاجئ:

- هل تسألين لمجرد السؤال أم أنكِ حقًا تودّين أن تعرفي رأيي؟

تظنّ نات للحظة أنه يمزح، لكنها تتفهّم فورًا، حينما تنتبه إلى جُمُود عينيه وعدم انفكاك تكشيرته المرسومة حتى طرف ذقنه، أن الأمر ليس كذلك، على الإطلاق.

يقول لها:

- هل توقفتِ ولو لمرة واحدة للتفكير في حياة الآخرين؟ في المخاوف الحقيقية الموجودة لدى الناس؟

- لا أفهم. ما علاقة هذا بـ...

- له علاقة. بالطبع له علاقة.

وكما يحدث حين يُؤْمَر طفل بتكرار ما شرحه أحدٌ ما له للتو، يكرّر أندرياس على مسامعها القصة التي حكتها له، لكنه يفعلها بالطبع بصوته، بكلماته، فتبدو كل الأمور تافهة وليس لها معنى إلى حَدّ الاشمئزاز: وظيفتها كانت جيدة، سرقت شيئًا دون أن تعرف السبب، وهو شيءٌ لم تكُن في حاجة إليه بكل تأكيد، وعلى الرغم من خطأها، سامحوها، لكنها مع ذلك قرَّرت أن تترك عملها وتأتي إلى لا إسكابا، حيث وجدت بعد كل هذا عملًا آخر، إذ تذهب الآن إلى بيت العجوزين اللذين يدفعان لها مقابل عملها، أليس كذلك؟

تقول نات ببرود:

- صحيح. تقريبًا.

- وهل تعتقدين أنكِ لديكِ حق في التذمُّر؟

- التذمُّر؟ الأمر ليس هكذا.. أنت لم تفهمني.

- ألا تعرفين أن هناك أشخاصًا يسرقون بدافع الحاجة؟ أن هناك أشخاصًا يفقدون أعمالهم يوميًا دون أدنى تفسير؟ أن هناك أشخاصًا يتعرضون للفصل من أبسط خطأ ممكن؟ لقد عفوا عنكِ، ورغم ذلك تتذمَّرين؟

- أنا لم أتذمَّر. أنا أتحدَّث عن أمر آخر!

- ما الذي تتحدثين عنه إذن؟

تعجز نات عن الرَّدّ. الرجل الراقد إلى جوارها، الرجل العاري الذي كادت أن تنفجر إلى جواره للتو من فرط المتعة، بات الآن مجهولًا مُسلحًا. ها هو، هذا الرجل، أندرياس، الذي لا يثور أبدًا، يتحدّث بعدها عن أُمّه، كأن انزعاجه قد حَرَّكه للكشف عن خصوصيته. يحكي لها أنها كانت كردية، من شمال العراق. وهي في شبابها وجدت نفسها مجبرة على الفرار من الحرب -وهي واحدة من حروب كثيرة- ثم لجأت إلى تركيا، بعد أن سارت طيلة أيام وليال ورضيعها بين ذراعيها. إنه هو هذا الرضيع. بعدها عانت الجوعَ ومشقّاتٍ جمَّة في ألمانيا وبؤسًا سيعفيها من سماع تفاصيله، لكن أُمَّه، كما يقول، لم تسرق شيئًا قط. كانت امرأة طيّبة، سخيّة، وشجاعة. ولم تخرج من بين شفتيها أي شكوى قط.

تهمس نات:

- آسفة.

- ما الذي تأسفين عليه؟ معاناة أمّي أم تذمّرك بلا سبب؟

- آسف لما حدث لأمك، لكن يبدو أنك تلقي بالذنب عليَّ. قِصّتي لا ترتبط بقصتها.

- لا أحد يتحدث هنا عن ذنوب. إنها مسألة تتعلق بالامتنان. الأمر أنك حينما تتشبثين بشيء ما، تبدئين بعدها بالتشبث في شيء آخر.

- ما الذي تقصده؟

- أتحدث بوجه عام. هكذا هي طبيعتك.

- أنت لا تعرفني بالصورة الكافية. كيف يمكنك أن تقول شيئًا كهذا؟

- أنتِ أردتِ معرفة رأيي. قلت إنك تودين أن تعرفيه. حسنًا.. هذا هو رأيي. لا تفهميه كهجوم عليكِ. في نهاية المطاف، إنه مجرد رأي.

تكاد نات أن تبكي. متذمرة؟ ناكرة للجميل؟ هل هذه هي صورتها عند أندرياس؟ هل هي طبيعتها ولم تدرك الأمر من قبل؟ تندم أشد الندم على أنها تحدّثت بغرض الحديث فقط. إنها خطوة للخلف، تخصم من رصيدها. لقد اكتشف أندرياس الآن جانبًا فيها يثير نفوره، ولهذا السبب، ستخسره.

من مكانها فوق حاشية الفراش، تلاحظ نات الآن كيف تنفتح هُوّةٌ جديدة بينهما.

يصعدان إل غلاوكو، في شاحنة أندرياس. كان هو من اقترح هذه النزهة، فهو يوم الأحد، عطلته الأسبوعية. تفسّر نات هذا المقترح على أنه اعتراف بوجود شيء ما بينهما يمتدُّ بعيدًا عن جُدران غرفة النوم. بالنسبة إليها، الخروج معه في الهواء الطلق أمر غريب. فجأة، يبدو السير إلى جواره تجربة أكثر حميمية من النوم إلى جواره أو التعرّي أمامه. إن شعورها به إلى جوارها، وهو يقود السيارة، يُثير داخلها اضطرابًا كبيرًا، إذ تختلج من فرط الرغبة، في كل مرة تراه يبدّل الغيارات، مع يَدِه المُمْسِكة بالمقبض وأصابعه التي تلمسها الآن بطريقة أخرى. تتأمل، بطرف عينيها، مظهره الجانبي،

نظارته الساقطة، وأنفه المرسوم، بعبوس وشموخ. تترك نفسها منقادة ببهجة متوحشة جشعة، لكنها تحاول كبحها في نفس الوقت، لأنها باتت قادرة على معرفة أن هذا النوع من البهجة يفضي في النهاية إلى الغم، فالأمر، كما تفكر، يبدو مثلما يحدث لساقيّ المرء حينما تتوقفان عن الاستجابة له، بعد الركض كثيرًا.

الطريق الذي يمضيان فوقه بالشاحنة ترابي، ضيق جدًا، وينتهي بمرقب. يتركان السيارة جانبًا ويصعدان سيرًا خلال المنعطف الأخير عبر منحدر بارز وزلق تحوطه أجمات شائكة تعلق بملابسهما مع كل خطوة. تخمش نات رَبْلَتي ساقيها، تشعر بحشرات صغيرة ترفرف حول رأسها، بأزيزها المستمر والمستفز، وبالمثل بنقص الهواء والإرهاق. لا يمُدُّ أندرياس يَدَه إليها في أيّ لحظة. يتقدّم أمامها بنحو مترين بِحَسم، دون أن يلتفت وراءه. تتبخّرُ بهجةُ نات بالكامل وتتساءل الآن عمَّا فقداه. لم يكونا ليُفكّرا، في زمن آخر، في الخروج من الفراش أو إهدار ساعاتهما بهذه الصور. هل باتا الآن حقًا في حاجة إلى التنزُّه؟

لكنّ الأمرَ يستحقُّ الجهد المبذول. تتأمّلُ نات من الأعلى إطلالةً لم تتخيّل وجودَها للحقول التي تحيط بلا إسكابا المزينة ببيوت صغيرة بيضاء وضاربة إلى السُّمرة، بأكواخ، مزارع، ومجرى مائي متقطع يلمع في بعض نقاطه. تفكر نات: إنه جَمَالُ البُعد، وتترك نفسها تشمل برائحة الجبل، الأشواك، الزعارير البرية، زهور الخمان وإكليل الجبل. يقبّلان بعضهما، يداعب وجنتها، ويقول لها:

- أنتِ جميلة.

تنظر إليه نات، بدهشة وامتنان، لكن عينيّ أندرياس تغيبان من جديد، في بُعدهما وراء نظارته، ويستمِرُّ الأزيز حولهما، كأنه ينطلق من منتصف

مُحّها. تُحلّق بعضُ عصافير العواسق فوقهما، فيصُبُّ أندرياس تركيزه على النظر إليها ويقول: «إنها تصيد. إنها قادرة على البقاء هكذا، معلّقة في الهواء، لدقائق ودقائق، إلى أن تلمَحَ فريسة»، لكنه يقول الأمر كأنه يقوله لنفسه، كأنه يتمتم به. يقفان ليُطِلّا على حافة منحدر شديد الوعورة وتفكر: نحن وحدنا، قد يدفعني، يُسقطني، ويتركني هنا وسط العدم، مصابة بشدة، بلا فرصة للعودة، ودون أن يعرفَ أحدٌ وجودي هنا، أو أن يفتقِدَني. تهاجمها هذه الفكرة بخشونة، كأنها لا تنبع منها. ربما لهذا السبب تحديدًا: لأنها تهاجمها من الخارج، تبدو مُرجَّحة وقريبة جدًا.

يعرض أندرياس عليها ماءً من قارورة ويقول:

- إنه بارد. سيكون مردودُه عليكِ جيدًا.

هل لاحظ خوفها؟ تشعر نات بالامتنان وتشرب، وبينما تفعلها تشعر بأنها تتطهر؛ بأن الماء يسحب عبر حنجرتها سُمّية الريبة. تكاد أن تعتذر إليه، لكن لماذا تودّ أن تعتذر؟ إنه أمر لن يفهمه أبدًا.

يحضر صاحب البيت بعد أن كانت قد نسيته بالكامل. ينظر إليها كالمعتاد بغرس عينيه في جسدها، في نهديها تحديدًا، متباهيًا بسلطته وبسوء تربيته. المال ليس مع نات نقدًا. تسحبه دائمًا من ماكينة صرف في بيتاكاس، لكنها نسيت هذه المرة. تعتذر. تقول له إنها انشغلت كثيرًا بالعمل، وإنها لم تنتظر حضوره مبكرًا بمثل هذه الصورة، وإن الوقت يمضي سريعًا. ينظر إليها بطرف عينيه ويَزُمُّ شفتيه.

- حسنًا.. صديقك يذهب إلى بيتاكاس يوميًا. كان بإمكانه أن يسحَبَ لك المال.

صديقك. إنها إشارة جانبية، مسمومة، تعجز نات عن إبداء رد فعلها بخصوصها. لا شيء من هذه الأمور كان سيحدث لو سمح لها بالدفع عن

طريق التحويلات البنكية، كما يفعل العالم بأكمله، أو لو أنه على الأقل أنذرها قبل حضوره، وليس كما يفعلها هكذا، فجأة والفواتير بين يديه، كأنه لا يوجد شيء يشغلها في دنياها سوى انتظاره بمظروف يضم المبلغ المطلوب بالتمام والكمال. لكن كل هذه أمور ستتذكّرها لاحقًا، فالمهم هو التعبير المرتسم على وجهه الآن. شفتاه المتضائلتان إلى تكشيرة، لمعة نظرته، وذراعاه المعقودتان فوق صدره، بتبجُّح.

تعتذر منه نات مجددًا وتطلب إليه أن ينتظرها لحظة. تبتعد وتتصل ببيتر لتطلبَ إليه أن يجلب لها المال الناقص، ورغم تحدُّثها بصوت منخفض، إلا أن صاحب البيت ظل يسمع المحادثة ويتمتم:

- كلهم يشربون من بين يديكِ.

يقول بيتر إنه جاهز. سيأتي بنفسه بالمال على الفور، لو أن هذه هي رغبتها. تتردّد نات بضع لحظات. لا تَودُّ أن يشهد الطريقة التي يتعامل بها صاحب البيت معها، وكيف يفرض شروطه المُهينة. تقول له قبل أن تنهي المكالمة:

- لا. لا تُزعج نفسك. سآتي بنفسي إليك.

بعدها، بينما تحاول أن تُطمئن نفسها، تطلب إلى صاحب البيت أن يعُودَ بعد بُرهة. إنها مجرد ربع ساعة أو ثلث ساعة، على أقصى تقدير. تقول:

- لن أتأخَّرَ كثيرًا.

- من الأفضل أن أبقى هنا. هكذا، سأشعر بالراحة.

تحاول نات أن تنطق ولو كلمة واحدة، لكنها لا تنجح. يبدأ رأسها في الدوران. يضحك صاحب البيت.

- ما الأمر ألا تثقين بي؟

يجلس إلى الأريكية وثمَّة ابتسامة صغيرة على وجهه، بينما يراقب كل شيء من حوله، كأنه يسعى إلى أن تلاحظ ما يفعله. لا تعترض نات وتخرج

راكضة بينما تكرر:

- لن أتأخّر على الإطلاق.

لا تزال ترتعش حتى بعد عودتها. يعُدُّ صاحبُ البيت المال بتلذُّذ، يضعه في جيب قميصه، بينما يثني الأوراق ببطء. تشعر نات أن البيت بات متشبّعًا برائحته. إنها رائحة لاذعة، كريهة، وتطفو باستمرارية في الهواء. حين يرحل، تتفقد البيت كي تتأكّدَ أنه لم يَلْمس شيئًا. كل الأمور تبدو في مكانها، ربما باستثناء بعض المجلات التي لا بُدَّ أنه قد تفحَّصَها. شَرَاشِفُ الفراش مُجعّدة، لكن ربما كانت كذلك من قبل وهي لا تتذكر الأمر. تلقي المجلات في القمامة، وتضع الشراشف في الغسالة على حرارة ستين درجة وتقضي بقيَّة الصباح في التنظيف بعد أن فتحت كل نوافذ البيت للتهوية.

رغم الاهتمام القليل الذي باتت توليه له الآن، إلا أن «سييسو» تغيّر كثيرًا. توقفت نات عن تقييده ليلًا، فأصبح يرد ثقتها بالولاء والنوم قريبًا منها، إلى جوار الفراش. تفكر في أنه ربما يجب عليها تغيير اسمه. مهما بدت نيتها ساخرة، بل وودودة، حينما سمته «سييسو» فَمَعَاني هذه الكلمة هي: «ثقيل الظل»، «المكفهر»، «الممل». سبق وحذرها الطبيب البيطري: الحيوانات لا تفهم السخرية.

تفكر نات من ناحية أخرى، أن الأمر لا يستحِقُّ العناء. لا أحد يعرف هذه المعاني. تستخدم كلمة «Sieso» في مناطق ونطاقات أقل بكثير مما ظنَّته في البداية. لقد ظنَّتها معروفة لأنها تعرفها، وشائعة لأنها تستخدمها دائمًا. لم تُلاحظ مدى محدوديتها، إلا حينما تحقّقت من أن بيتر يجهل معناها، بل إن المعجم نفسه لا يظهر فيه مفهومها باللغة العامية، وإنما فقط ذلك العلمي، وهو مفهوم كريه بصورة تتخطى الحدود: «كلمة مشتقة من لفظ sessus اللاتيني أي مَقْعَدَة ومعناها فتحة الشرج والجزء السفلي من المستقيم». حتى

ولو أن هناك أحدًا يعرف هذا المعنى الأخير، فأي فارق قد يصنعه الأمر؟ إنه مجرد اسم لكلب.

تلُفُّ «لي» وتدور في البيت، بقلق، بِمُواء مختلف، حادّ يكاد يشبه البكاء. تراقبها نات وتلاحظ أن وزنَها قد ازدادَ كثيرًا في الأيام الأخيرة. تُفكّر: هل هي حُبلى؟ تسأل أندرياس عن الأمر لاحقًا، فيضحك بصوت خفيض.

- لن تُصبحَ أول مرة. حينما تركتها زوجتي السابقة، أكَّدَت لي أنها مُعقَّمة، لكن ها أنتِ ترينها بعينك مرة أخرى وقد ازدادَ وزنُها.

تتحجّر نات في مكانها. زوجته السابقة؟ هل سمعت الأمر جيدًا؟ تضربُ الرياحُ دِرَف النافذة، كأنها تنذر بعاصفة. تنقر قطرات المطر الأولى سقف البيت، وإذا بِعَتَمَةٍ مفاجئة تحوطها. لا يجب عليها أن تسمح لهذا الصوت والضوء -لهذه الذكريات- بأن تفسد، فما يعني شيئًا بات يعني شيئًا آخر الآن.

يُصلح أندرياس وصلات التلفاز؛ التلفاز العتيق الذي باتا يشاهدانه الآن أحيانًا وهما يتناولان العشاء، وتتراقص خطوط على شاشته لتشوّه الصورة. تتجرأ نات، ربما لأنه لا ينظر إلى وجهها أو لأنه يصُبُّ تركيزه على شأن آخر وراء ظهرها، على المضي قدمًا في أسئلتها.

- لكن «لي» ليست قطتك؟

يجيبها دون اهتمام:

- حسنًا، حتى يومنا هذا، لا يبدو أن أحدًا سيأتي بحثًا عنها.

- لم أعرف أنك كنت متزوجًا.

يُمسك بمِفَكّ البراغي ويقول:

- بالطبع. وكيف كنتِ ستعرفين؟ كانت صغيرة للغاية، الفارق كان كبيرًا بصورة بلهاء. أكثر من عشرين عامًا. كانت ترغب في أشياء لم أقدر

على تقديمها لها.

- أشياء مثل ماذا؟

- أشياء. لا أعرف. أتحدّث بوجه عام. السفر والأبناء وأشياء من هذا القبيل. أشياء لا تهمني. هكذا، مَلَّت من الأمر وغادرت.

تجلس نات إلى الأريكية وتُداعب «لي» بينما تراه يفُكُّ التلفاز. «لي»؟ لو أن القِطّة ليست قطته وإنما ملك زوجته السابقة، لا شَكَّ إذن في أنها هي من اختارت اسمها. تفهم الآن لِمَ أخبرها أندرياس أن الاسم لا يعني شيئًا، رغم أنه في الواقع يعني كل شيء. لماذا لم يَحْكِ لها في تلك المرة الحقيقة؟ يُشعرها وخز الغيرة المفاجئ وغير المنتظر بالخجل. لطالما ظنَّت أنها محصّنة أمام هذا الشعور البائس، ومع ذلك، فمن الذي يتحكّم الآن في خيوط معاناتها؟ من الذي قرّر أن شيئًا مثل هذا -مثل ماضي رجل تكاد ألا تعرفه أصلًا- يجب أن يُؤلمها إلى هذا الحد، بل وأن يتخطّى كل قناعاتها وأفكارها؟

تشعر نات الآن وسط ارتباكها أنها قد تعرَّضت للاحتيال. نظرتها إلى أندرياس هي ما دفعها إلى قبول صفقة القراميد، لكن هذه النظرة تبخّرت الآن بالكامل. لقد جذبتها الصورة التي شيدتها عنه، أو ربما تلك التي وَدَّ أن تأخُذَها عنه لأنه قال بنفسه إنه لم يكن مع امرأة. إنها صورته كرجل فقد القدرة على الإغواء - لو أنها كانت لديه يوما ما- وكونه مُجبرًا على اقتراح هذه المقايضة كمن يعيش في قرية بدائية ويجهل القواعد الأساسية لأصول الكياسة. إنها صورته كرجل لن يغادر لا إسكابا على الأرجح، ولو فرضنا أنه سيفعلها، فسيكون الأمر لنقل صناديق الخضروات التي يزرعها بنفسه. إنها صورته كرجل فظ غير مثقف، يعيش في الريف منذ طفولته ويتأقلم غريزيًا على أي أرض ككلب مهجور؛ والأهم من هذا صورته كرجل طلب إليها فقط بتواضع وحماقة، كمن يتسوَّل أمام باب أن «تتركه يدخلها». كان انعدام

خبرته، يُعَظِّمها ويُقَوِّيها، وحاجته إليها هي ثروتها.

مع ذلك، تبيَّنت أن هذا الرجل، درس في الجامعة، عاش في المدينة سنوات؛ سنوات كثيرة جدًا، وتزوَّج. كان متزوّجًا من فتاة شابة، وغالبًا جذابة، ثم تطلق. لقد سار على نهج الحياة الطبيعي والتقليدي. إذن، لماذا طريقة ارتباطه بها غير طبيعية؟

ترعد السماء لأول مرة. تنظر إلى قفاه الرطب، والطريقة التي يتعامل بها مع أسلاك التلفاز. تبلَعُ لُعَابها، إلا أنها لم تقُلْ شيئًا آخر. ما الذي ستقوله؟ فهو لا يبدو مستعدًا جدًا للشرح.

تصُبُّ تركيزها للسيطرة على الأفكار المتنامية داخلها، وعلى محاولة بَتْر أطرافها قدر استطاعتها. منذ تعَرّفت إلى أندرياس، تخرج كل الأمور عن السيناريو المتوقع. يسبر أندرياس أغوار عجزها، مُفكّكًا أحكامها المبدئية واحدًا تلو الآخر، فيستخرج سبائك وسبائك من الثقة. بينما تتصاغر هي بمرور الوقت، يكتسب هو مزيدًا من القُوّة. تزداد تبعيتها، أما هو فتزداد حريته. لن تقدر نات على تحمُّل أي مفاجأة أخرى. لهذا، تخشى أن تتحدث.

هذا أول يوم ستعجز فيه عن النسيان عبر الاحتماء برغبتها. ستكون هذه أول مَرَّة تُضْطَرُّ فيها إلى التغلُّب على أفكارها، حينما يتعريان. ستُضْطَرُّ إلى أن تبذل جهدًا لكيلا تنهارَ؛ لكيلا يتأخر جسدها في الاستجابة؛ وإلى أن تبالغ في الاستمتاع، ليتحول الجنس إلى شيء حزين، مر، ومبتذل.

ينزع بيتر الآن سدادة زجاجة النبيذ، ويصُبُّ لها بعضه، لكن نات تتأخر في الإمساك بالكأس، مُنغمسة في ذاتها، كأنها لا تفهم ما هو الموجود في هذا الكأس ومعنى إمساكها لها. يمزح بيتر، محاولًا أن يسحبها إلى أرضه، إلا أن قواها خائرة. ما كان مرحًا جدًا في البداية -أي تلك المزحات التافهة التي كانت تجد فيها ملاذًا للفرار- بات الآن ماسخًا وغبيًا. لِمَ هي موجودة هنا؟

في هذا البيت؟ لِتَزْجية وقتها قبل أن تذهب إلى بيت أندرياس؟ يتفحَّصها بييتر ويسألها: «هل كل الأمور بخير؟» فتقول نات إن كل الأمور بخير. تُكرّر عبارتها مرة أخرى، لكن توتّرَ ابتسامتها، يُكذب كلماتها.

تفكِّرُ نات في أن الاعتراف بانزعاجها سيبدو إقرارًا بحقيقة تَكَهُن لم يتشكَّل فعلًا على أرض الواقع، أو أنه قد تشكَّل خفية، وهي مسألة ستُعقد بشكل أكبر احتمالية دحضه. لو أخذت بالحقائق وحدها، دون تفسيرات موازية، فما من سبب أصلًا لتشكو منه. ما الذي ستقُصُّه له؟ أن أندرياس كان متزوجًا في الماضي؟ أنه يعمل الآن في بيتاكاس؟ أنه ذات يوم -ذات يوم واحد فقط- اتَّهمها بأنها ناكرة للجميل حينما طلبت رأيه؟ سيجعلها الكشف بصوت مرتفع عن ألمها- ألمها السخيف- أكثر عرضة للخطر، ورغم ذلك، فإن عدم التحدث، أو الصمت التام، لن يجعل الألم يزول.

يجلسان عند مدخل البيت المسقوف، محميين بحاجز الباب الزجاجي. تتلاشى هيئة إل غلاوكو وسط الليل الذي يَسْدُلُ ستاره. سريعًا، سيبتلعه الظلامُ بالكامل. تحدّقُ نات فيه؛ في الجبل الذي صعدته مع أندرياس منذ فترة ليست بالبعيدة، محاولة ألا تفقِدَه من أمام نظرها. يضع بييتر فوق الطاولة بعض السلمون المُدخَّن، لوحًا يضُمُّ أنواعًا مختلفة من الجبن ومستحضرات اللحوم، وسلطة جِرِّيفَة موضوعة في آنية مختلفة الألوان. إنه صاحب ضيافة ورهيف على الدوام! لم يُحْضر أندرياس قط عشاء مثل هذا لها. لن يحضر عشاء مثل هذا لأي أحد، ولا حتى لنفسه.

تفقد نات السيطرة وتتحدث بعصبية:

- هل علمت أن أندرياس كان متزوجًا؟

- أنا؟ وكيف لي أن أعرف! هذا الرجل نصف متوحد! لا يحكي شيئًا لأحد. كيف تعرفين أنتِ الأمر؟ هل حكاه لكِ؟

– أتى على ذكره ذات يوم، بالصدفة.

– أشكُّ كثيرًا في أنه قد يفعل أو يقول شيئًا بالصدفة. قال لكِ هذا الأمر لسبب ما، أو سعيًا وراء شيء ما.

تصمت نات. تفكر أنه من الأفضل أن تُنهي المحادثة، قبل أن يبدأ بييتر في إلقاء سِهامه غير المباشرة، لكنه الآن لن يفلت طرف الخيط بسهولة، بعد أن قبض عليه بفمه.

– ما الذي حكاه لكِ؟

– القليل. قال إنها كانت فتاة أصغر منه بكثير. أصغر منه بنحو عشرين عامًا أو شيء من هذا القبيل.

يُصفر بييتر ضاحكًا:

– عشرون عامًا. يا لحلاوة الألماني!

تؤلم صافرة بييتر نات بصورة هائلة، ولتُخفي الأمر، تغرق في كأسها بتجرُّعه على مرة واحدة. لم يكن عليها أن تتحدث، لكن الرجوع إلى الوراء غير ممكن. الطريقة الوحيدة لتقصير المحادثة هي اختراع أي عذر لتنهض وترحل.

– ما الأمر يا نات؟ هل انزعجتِ؟

تنفي أكثر من مرة وتُمسك يده كي تُثبتَ الأمر، وتؤكّد له أنه ما من مشكلة. لكن، والعشاء؟ هل سترحل دون أن تتذوقَ أيَّ شيء؟ أيا كان ما ستقوله، فليس من الطبيعي أن ترحل هكذا فجأة.

تعرف نات أن ما يقوله صحيح. تعرف أن سلوكها خاطئ، ينُمُّ عن سوء التربية، وغير مفهوم إن نُظر إليه من الخارج؛ أو ربما العكس: إنه سلوك شفَّاف أكثر من اللازم. لكن لا يمكنها أن تتوقف. لديها قناعة أنها قد بدأت مرحلة هبوط، وأن الاستمرار فيها هو كل ما يبقى لها.

تستيقظ في منتصف الليل فجأة وتعجز عن النوم مجددًا. تتذكر كلمات أندرياس، التي تبدو، الآن وسط الصمت، مسنونة أكثر وأكثر. الفارق كان كبيرًا بصورة بلهاء. كانت ترغب في أشياء لم يقدر على تقديمها لها. أشياء مثل السفر والأبناء. أشياء لا تهمه.

لقد ظنَّتْ نات أنها قوية أمام أندرياس. كان التفكيرُ في أن شبابَها يُغريه -لأنه أكبرُ منها باثني عشر عامًا- ممتعًا. إنها مسألة رفعتها وزادت من قيمتها في السوق، لكن مرة أخرى، تبيَّن أن ما حدث كان خطأ حسابيًا.

لطالما افترضت، كحقيقة لا تقبل النقاش، أن الرجال مهما كان عمرهم ينجذبون إلى النساء الأصغر سنًا، لكنها حتى تلك اللحظة لم يسبق لها قط تفسير الأمر كتهديد. لقد تبينت الآن أنها مهما كانت صغيرة، فهناك دائمًا من هُنَّ أصغر منها. لم تفكّر قط انطلاقًا من معايير تنافسية، وهذا هو ما تفعله الآن. لهذا السبب تحديدًا تُفكّر في فتاة المتجر.

يُوصلها أندرياس أحيانًا في شاحنته إلى بيتاكاس، حيث يُفترض أنها تستغل وقتها لجلب الطلبيات أو أخذ البضائع الناقصة. فتاة المتجر صغيرة جدًا. لا تزال مراهقة تقريبًا، لكن بالنظر إلى الوقائع، فَسِنّها ليس مانعًا، بل حافزًا. تتذكر نات الحرارة التي يشعها أندرياس بينما يقود، الرغبة القادر على توليدها بالفعل المُجَرّد لتبديل الغيارات، ساعِدُه المشدودُ وقبضته القوية الممسكة بعصا الغيارات، ونظرته القافزة من المرآة الأمامية، تلك النظرة القوية التي لا تتمكّن أبدًا من سبر أغوارها. خصوصية الشاحنة، هواؤها الكثيف، دخان سيجارته المتشارك. فتاة المتجر ليست جميلة، لكن تنبعث منها جرأة مغرية، والأهم، أنها تكاد تموت كي تفر من لا إسكابا، فهي ملول، وشغوفة بتجربة الأمور الجديدة. هل من الممكن، أن تكون قد حانت اللحظة التي سيطلب فيها إليها أن «يدخلها لبرهة»؟ بل هل من الممكن أنه

قد طلب الأمر إليها قبل أن يطلبه إلى نات؟ لو أن كل ما احتاجه أندرياس هو بعض الدفء الأنثوي، ألم تكن هي الأخرى تصلح؟ أليست هي أفضل أصلًا؟ هل كبح نفسه لكونها قاصرًا؟ لو أنها ليست قاصرًا، هل كان سيطلب الأمر إليها؟

لا تفهم نات لِمَ يعرض أندرياس توصيلها إلى بيتاكاس. هو، البعيد عن كل العالم، لديه استثناء مع هذه الفتاة، كأن مسؤوليته هي توفير الإمدادات للمتجر الملعون. تخلُصُ نات إلى عدة أمور وتشعر بالبرد. إنه برد حاد ينبعث من داخلها، من نقطة واقعة بين عظم القَصِّ في صدرها وعمودها الفقري. لِمَ أندرياس موجود معها؟ لأنه لم يحصل على شيء أفضل؟ لأنه لم تكن هناك واحدة أخرى في متناوله؟

لماذا حين ينهار يقين ما، تنهار كل أشكال اليقين الأخرى معه؟

لقد اكتست نظرتُها بالريبة ولم تعُدْ قادرةً على ترويضها. تُتمتم: لقد مَسَّني الجنون، وتنظر فيما حولها، بعينين مُتّقدتين وسط عَتَمَةِ غرفتها، وهي مساحة خاصَّة لا تحميها، وإنما تنقلب ضِدَّها لتُهاجِمَها غدرًا.

تتذكر ذلك الحُلمَ المُتكرّرَ الذي يدخل فيه رجلٌ البيتَ بينما هي مُقيّدة وعاجزة عن الدفاع عن نفسها. ربما هذا الرجل الذي لم تتمكن من رؤيته قط لا يمثّل صاحب البيت، كما ظنّت آنذاك. ربما هو نبوءة شؤم عمَّا كان آتيًا. علاقتها مع أندرياس مسمومة منذ البداية. كانت بدايتها تحديدًا هو ما أسرها، قبل أن تستدير لتظهر حواشيها المُنفّرة.

ليس الأمر أنها قبل ذلك كانت بريئة وطاهرة، لكن على الأقل ثمّة أجزاء منها -أجزاء خبيثة ومريبة- كانت نائمة. لقد استيقظت الآن، ليزداد أذاها ويتشَعَّب داخلها.

تعثر نات وهي تنظف غرفة المهملات في بيت العجوزين، على كراتين

مملوءة بالكتب: أدلة دراسية وكلاسيكيات أدبية على وجه الخصوص، وبالمثل روايات صغيرة يبدو أنها كانت رائجة منذ عِدّة عقود ولا يتذكّرها أحد الآن. يشرح لها خواكين أن روبرتا كانت مُدرّسة طيلة أربعين عامًا قضت أغلبها في إحدى مدارس بيتاكاس. يقول إن الكتب تخُصُّها، أو بالأصح كانت تخصها، فهي منذ فترة غير قادرة على قراءة ولو كلمة واحدة، لهذا قرّرَ إنزالها من أرفف المكتبة ووضعها في الكراتين، بعيدًا عنها، لكيلا تتعذّب.

تراقب نات روبرتا الهَشَّة جدًا، المُنغلقة في عالمها، وسط غموضها الشديد. يشق عليها تخيل أنها سابقًا كانت لديها حياة أخرى. هل كانت روبرتا تعمل مع الأطفال، وتشرح لهم دروسهم فوق السبورة؟ المبتدأ والخبر والجمع والطرح؟ تتصفح الكتب، المزودة بملاحظات، خطوط، وإشارات مرجعية مصنوعة من الورق المقوى والورود المطبوعة. هل هي من صنعتها؟ تشعر نات بقلبها ينفطر. ما الذي تفكّر فيه روبرتا؟ إلى أين تنظر حقًا؟ تبدو دائما مشغولة بشيء يحدُث في بُعد آخر، بعينيها المجعّدتين وشفتيها اللتين تتمتمان في صمت. من الذي تتحدث معه؟

أحيانًا تنكسر التعويذة، وتخرج روبرتا من نفسها، فتكتشف حينها أنها ليست بمفردها وتجتهد لتتحلَّى باللُّطف مع الأشخاص الموجودين حولها. قد يصلُ الأمر وهي في أفضل حالاتها إلى أن تقول أمورًا غير متناسقة أو إلى أن تجتهد في محاولة جعل من حولها يفهمونها، لكنها عمومًا امرأة مهذبة ولا تثير جلبة على الإطلاق.

ذات يوم تستقبلُ مكالمةً تحملُ نبأ مشؤومًا: أحد أقاربها، ابن أحد أشقائها، يحتضر. هذا هو ما تستنتجه نات حينما تسمعها تتحدث، بنظرة مكسورة، وهي تعقد سلك الهاتف حول أصابعها. تقضي بعدها عِدَّة ساعات غارقة في أفكارها، ترفع السماعة وتضعها من جديد في مكانها، دون أن يدُقَّ الهاتف.

حينما تسأل نات خواكين، يهزُّ رأسه ويقول إنها قد اخترعت كل شيء. لا وجود لقريب مريض يحتضر. يشير إلى أن هذا الأمر يحدث كثيرًا، إذ تَعْلَق في أشياء كئيبة سبق وحدثت. تلاحظ نات أن استسلام العجوز فيه أيضًا شيء من الإحباط. ما الذي سيحدث حينما لا يصبح خواكين موجودًا ليرعاها؟

خواكين بدأ يُصاب بالعمى. يعترف لها بالأمر، باكيًا ورأسه بين قبضتيه، أثناء جلوسه قرب طاولة المطبخ. تندهش نات من رؤية رجل يبكي؛ من رؤية رجل يبكي وهو في هذا العمر.

خواكين وروبرتا شَرْخٌ في مجتمع لا إسكابا، لأنهما نوعًا ما معيبان وخارجان عن المألوف مثلها. رؤية هذا الأمر صعبة. إن النظر، فيما وراء الأمور، يتطلَّب كثيرًا من الجهد، وتنفيذ هذه المسألة ليس هينًا، لكن كل ما يحتاجه المرء هي خطوة واحدة فقط، كي يتوقّفَ عن تصنع البراءة.

إنها ظهيرة غائمة. الهواء راكد لا يتحرك ومشحون بكهرباء ساكنة. تحلّق النسور على ارتفاع منخفض، حائمة حول نات، التي تتقدم نحو بيت أندرياس، وهو اتجاه غير تقليدي في مثل هذه التوقيت، لأنها تعرف أنه غير موجود. لماذا سلكت هذا الطريق وليس غيره مسألة تجهل إجابتها، وشأن لم تتوقف بعد عن التفكير به، كحال السبب الذي دفعها إلى الخروج للتمشية، رغم وضوح أن المطر سينهمر في أي وقت. ربما هو حدس، أو هل هو اندفاع غريزي؟ هكذا ستتحدث مع نفسها عن الأمر لاحقًا، حينما تُراجع الوقائع والأحداث. الآن هي تسير فقط، ورأسها في غير محله، بنظرة غائبة، إلى أن تتضح أمامها معالم البيت ومن بعدها، قرب الباب شاحنة أندرياس المركونة. تتوقف. تستغرق بعض الوقت في تفهُّم الأمر، أو محاولة تفهمه. يقرع الدم طبوله في صدغيها، وإذا بحرارة مفاجئة تسري في وجهها. تستدير بعدها بخشونة في طريق العودة. من الأفضل ألا يراها أحدٌ هنا.

تصل إلى بيتها وتحاول أن تهدأ. لا بُد من وجود تفسير. تكرّر العبارة لنفسها: لا بد من وجود تفسير معقول. لقد عاد أندرياس إلى لا إسكابا بسبب أمر طارئ، ليبحث عن أداة أو غرض نَسِيَه. أو ربما شاحنته معطوبة وغادر هذا الصباح في سيارة أخرى مع شخص آخر يتوجّه إلى بيتاكاس. تضع لـ«سيسو» طعامه، تفتح لنفسها جعة وترقد. لكنها تنهض على الفور. التفسير قد يكون مختلفًا. ربما الآن، في التو واللحظة، أندرياس موجود مع فتاة أخرى في البيت؛ مع فتاة خدعها بنفس الحيلة التي انْطَلَتْ عليها.

تخرج مجددًا وتسير بسرعة في اتجاه المتجر، لكنها تفعلها الآن تحت المطر، بأنفاس مضطربة، إلى أن تصل إليه وتجد الفتاة واقفة وراء النضد، وهي تضغط على أزرار هاتفها. تشعر براحة ضخمة حين تراها إلى درجة تكاد توشك معها على الضحك، لكن هذا الارتياح أيضًا زائل: إذا لم تكن فتاة المتجر، فقد تكون أي واحدة أخرى. أو ربما أنه لا يوجد فتاة أخرى، لكن لو أن هذا الاحتمال صحيح، لماذا لم يتّصل بها على الفور، كما كان يفعلان في البداية؟ لماذا لا يشعر بحاجة مُلِحّة إلى رؤيتها؟ ألا تكاد الرغبة تقتله، مثلها؟

تقضي المساء بين ذهاب وإياب من بيتها إلى بيت أندرياس. لا تزال الشاحنة هناك، ثابتة في مكانها. كلما رأت بقعتها البيضاء من بعيد عادت أدراجها، وإذا بها تبدأ المسار من جديد. ينبض قلبها بإيقاع يفزعها. لم تفعل قط شيئًا كهذا أو حتى يشبهه من بعيد. لم تفعل قط شيئًا غريبًا ومُخزيًا كهذا.

ليلًا، حين يتصل أندرياس، تترك الهاتف يَرِنّ دون أن تجيبَه إلى أن يَملَّ من المحاولة. لقد وَدَّتْ ألا يملَّ بهذه السرعة، وأن يحاولَ بصورة أكبر، لكن عدمَ الردِّ على مكالماته يبدو لها طريقة مستترة للانتقام. تشعر في هذه اللحظات أنها انتصرت، لكنها لاحقًا تتساءل: في أي معركة؟

حينما يلتقيان بعدها، يتصرَّفان بشكل طبيعي، أو أنهما يتدبران أمورهما

بهذه الصورة: لا يسألها لماذا لم تُجِبْ على مكالماته، ولا تسأله لِمَ كانت الشاحنة طوال النهار مصفوفة أمام الباب. في غياب الأسئلة، لا توجد إجابات. يتنامى انعدام ثقة نات ملتويًا وماكرًا كحذر القطط. وماذا عن انعدام ثقته؟ إنها لا تعرف حقًا هل يمكنها أن تُسمّي الأمرَ انعدامًا للثقة أم انعدامًا للاهتمام.

منذ ذلك الحين، باتت معتادة على التجسُّس عليه. تظل تترصّده عند بيته وتراقب ذهاب وإياب الشاحنة وتغير مواعيدها، بل وتستقصي أي مؤشرات عن زيارات محتملة، ولأنها لا تجد شيئًا، تفكّر: «إنه حريص ويدمّر الأدلة». حينما لا ينظر أندرياس إليها، تتفقد كل ما يقع بين يديها: آنية المطبخ، الأدوية، والزجاجات، بل وتراجع عدد الواقيات الذكرية التي استهلكاها معًا حتى الآن وتحسبها. تتفحص الأوراق المبعثرة في كل أنحاء البيت: الفواتير، الإخطارات التجارية، ملصقات الدعاية، والوصولات. تعثر على بعض الأسطوانات المدمجة وتأخذها في الخفاء لتراها على حاسوبها في هدوء. كل ما فيها هو مخططات وتقارير طوبوغرافية، إلا أن قلقَها لا يهدأ وتواصل البحث. تكتشف في خزانة الملابس، قطعًا لها طابع رسمي أكثر من تلك التي يستخدمها عادة. لم تره يرتدي بدلة قط، لكن ها هي السترات وربطات العنق موجودة بصورة لا تقبل الشك. يثير اكتشافان آخران فيها قلقًا عميقًا: فاتورة محل ملابس للسيدات في كارديناس تعود إلى عامين كتب عليها «قميص سيدات بـ 39.90 يورو. الموظفة: باتريثيا»، وصندوق موسيقى يبدو كَعُلَب المجوهرات، فيه راقصة باليه ضئيلة تلُفُّ وتدور حين يُفتح لتتردَّدُ موسيقى «لا ڤي إن روز». تُغلقها نات لكيلا تنكشِفَ، رغم أن ما تودُّ فعلَه حقًا هو تدميرها.

البحث في هاتفه غيرُ مُجْدٍ، لأنه لا يستخدمه تقريبًا. الموجود فقط هي

الرسائل التي ترسلها إليه، أخرى دعائية، مكالمات واردة وخارجة من وإلى نفس الأرقام التي تخُصُّ شريكه في بيتاكاس أو أحد العملاء المفترضين. قد تعني مسألة ترك أندرياس للجهاز في مكان ظاهر دائمًا، دون أي وسيلة حماية، وصغر قائمة اتصالاته أنه لا يوجد شيء ليخشاه، لكنها قد تعني النقيض أيضًا: أن أندرياس يخفي أمرًا؛ أنه يحيك شيئًا ضِدَّها -كما تنسج هي شيئًا ضده- بمسح الأرقام والرسائل التي قد تكشفه، ووضع الهاتف المحمول في متناولها، فقط لإرباكها.

تختار نات دائما الأسوأ من بين كل التفسيرات المحتملة، بل إنها لا تنجو من نفسها حتى حينما تقتنع بأن أفكارها تخلو من أي معنى، إذ يجعلها أي تغيير، وأي نسق لا تتوقعه، تترنح، مهما كان صغيرًا أو بعيدًا. تتسلّل الغيرة إلى فراشها؛ هذا الوحش أخضر العينين بلسانه المُدبّب، وإيماءاته البذيئة. يتفحصها قبل أن يلتهمها، فيُفسد معنى تحركاتها ويصبغها بالقذارة والريبة. لماذا يغلق أندرياس عينيه وهو معها؟ هل يفكر في أخرى؟ هل يتذكر زوجته السابقة الشابة؟ كل الأمور التي أعجبت نات في الأيام الأولى وأثارتها: جفونه الداكنة، تعبيراته المركزة، الرعشة الخفيفة في رموشه، تُمثل الآن تأكيدًا لشكوكها. تبدأ نات في التخيل، لأنها باتت مُهددة بالبرودة الجنسية، فتتصور لقطاتٍ لرجال يطلبون إليها نفسَ ما طلبه أندرياس، ويفعلن بها نفس الشيء -نفس الشيء بالضبط- الذي فعله معها في أول مرة، أسفل نفس العَتَمَة، وفي نفس الصمت، بينما هي عارية بداية من خصرها إلى ما أسفله، دون أي مداعبات سوى الأيدي التي تمُرُّ فوق جانبيها ببطء. يتصرفون كأندرياس، لكنهم ليسوا أندرياس، لأنه هو نفسه لم يعُد كما كان في تلك اللحظة: إنه رجل مختلف، ويتصرف على الأرجح بنفس طريقتها، إذ يُبعدها حتى وهو يلمسها، ويطردها بعيدًا عنه، حتى وهو غارق في جسدها. حينما يفرغان، يصمتان، لكن ليس بخجل البدايات، وإنما بحزن. يسألها بينما يقرب لها

بطانية: هل تشعرين بالبرودة؟ تودُّ أن تجيبه: لا تعرف كم أشعر بها!، بينما تتذكّر أنه سابقًا كان يحوطها بذراعيه، وليس بتلك الكياسة الحمقاء الجارحة.

لم تعد تذهب إلى بيتاكاس إلا قليلًا. تذهب وتعود سريعًا لتسحبَ النقود من ماكينة الصرف، وكأن البلدة، العدائية أصلًا، صارت ممنوعة عليها منذ بدأ أندرياس يعمل هناك، لكنها ذات يوم تقرر أن تذهبَ بحُجَّة قَصِّ شعرها، بعد أن التهمتها الشكوكُ من الداخل. تُخبِرُ أندرياس بالأمر مسبقًا، كأنها تذكره لمجرد تذكيره، ولكيلا يخلُصَ إلى نتائج معينة حين يراها هناك. يرفع أندرياس عينيه وينظر إليها بطريقة تُشعرها بأنها قد انكشفت.

- لكنه جيّد. أقصِدُ شعرك. لِمَ ترغبين في قَصِّه؟

- عليَّ معالجته. لم أقُصَّه منذ عدة شهور.

- أراه جيدًا.

تفسّرُ نات هذا التعليق، الذي يُمكن اعتباره ثناء، كإشارة على اللامبالاة. لا يودُّ أندرياس أن تطأ بيتاكاس. لا يرغب في أن تكون بِقُربه، لكن لا يمكنها أن تتراجع. التراجع سيبدو أغرب. سيبدو اعترافًا متكاملًا.

تذهب مبكرًا وتَصُفُّ سيارتها في أوّل مكان تجده. تتجول، لأنها لا تعرف مكان صالون الشعر، وتتفادى الوحل المتراكم فوق الأرصفة. بمجرد وصولها إلى ميدان مجلس البلدية ترى أندرياس يتحدّث مع شخص ما. يهُزُّ ذراعيه بينما يتحدّث، كأنه في نقاش مُحتدّ. يرجع رأسه إلى الوراء وهو يُدخّن لينفثَ دُخَان سيجارته، في وقفته التي يُباعد فيها بين ساقيه. إنها إيماءات لا تتعرف عليها نات، بل إن جسده من بعيد لا يبدو لها مألوفًا. الرجل الذي يتحدَّث معه أندرياس أطول منه وأصغر سِنًّا. حينما تنظر إليه بتمعُّنٍ، يظهر أنه مُجرّد صبي، ما يُحوّلُ أندرياس إلى شخصٍ آخر يكاد يكون عجوزًا. تشعر نات للحظة بشيء يدفعها إلى التراجع والاختباء، لكنها تقرّر أن تسير نحوه.

حينما تقترب منه، تتبيّن أنهما لا يتناقشان، وإنما يتحدّثان كما يتحدّث الرجال أحيانًا، بتلك الطريقة التي تمتزج فيها السخرية مع الصداقة والخشونة. يلتفت، يراها ويبتسم. مع ذلك، لا تعني ابتسامته أنها مُرَحَّبٌ بها، لكنه ينفصِلُ على الفور عن مُحَاوره، كأنه لا يرغب في اقترابها أكثر من هذا، بل إنه لا يُقدّمها له أصلًا. يودّعه سريعًا، وإذا بابتسامته تبدأ في الزوال.

- ما الذي تفعلينه هنا؟

- سأقُصُّ شَعْري. ألا تتذكر؟

- آه. صحيح. إلى أين ستذهبين تحديدًا؟

- لا أعرف. لا أعرف أين قد أجد صالونًا للشعر.

- تعالي سأريكِ واحدًا.

يسير متقدمًا أمامها ببضع خطوات، بينما ينظر حوله كأنه يبحث عن شخص آخر، كأن وجودها لا قيمة له، أو كأنها غير موجودة. تتبعه نات مغمومة. لم يُقبّلها أندرياس بالطبع، بل إنه لم يقترب منها أصلًا ليلمسَها، رغم أنها رأته قبلها بلحظة يضع يده فوق كتف صديقه.

- انظري. هذا محل عملي.

تلمَحُ نات عبر الباب صغر المكان: إنه مكتب مزدحم بالأوراق، الأجهزة، الصناديق، ويضُمُّ حاسبين آليين، وطابعة ضخمة في وسطه. ينحني رفيق أندرياس -وهو رجل أشعث في نفس عُمْره ويرتدي بدلة رياضية- فوق عِدَّة خُطّطات تصل إلى الأرض من شِدّة ضخامتها، دون أن يُبْدي اهتمامًا بتجعُّدها أو اتّساخها. يُحيّيه أندرياس عبر الباب، دون أن يدخل أو يدعوها إلى الدخول. يرفع ذراعه ليُشيرَ إليها نحو شارع يؤدّي إلى صالون الشعر بعد مُرَبّعين سكنيين أو ثلاثة. نبرتُه حاسمة بصورة تؤكّد وضعيتها كدخيلة، أو أنها تبدو إلى نات هكذا. بينما يُودّعها، يشُدُّ على ذراعها وينظر إلى عينيها،

لكن هذا ليس كافيًا بالنسبة إليها.

في صالون الشعر، هي أيضًا غريبة. تَكْوِي الكوافيرة ذات الشعر الطويل والمُجعّد، القميص الضيّق والضحكة الرنّانة- شعر إحدى زبونتها في لحظة دخولها. تطلب إليها، أو بالأصح تأمرها، دون أن تفلت أدواتها أو تسألها عن رغبتها أن تجلس وتنتظر. هذا هو ما تفعله نات: الانتظار. تحاول أن تقرأ كتابًا أخذته معها. تسمع، وعيناها تكادان أن تلتصقا بالورق، المحادثة بين المرأتين اللتين تنتقدان شخصًا ما بكلماتٍ وألعاب مُضمرة. التواطؤ الذي تضحكان به يشعر نات بالانزعاج، كأنها تسخران منها أيضًا، بل وتفكر في أنها ربما تفعلان هذا الأمر فعلًا. من يعرف! حين يأتي دورها، تتفحَّصُها الكوافيرة عبر المرآة. تسألها كيف تفضل قَصَّتها، ورغم ذلك لا تستجيب لتعليماتها. تتفقَّد شعرها، برفع خصلاتها وتركها تسقط بعدها بإهمال، ثم تقول: «حالته لا تَسُرّ. علينا قَصُّ الكثير». لا تُبدي نات رأيها وتتركها تفعل ما لم تطلبه.

الآن، بعد تسريحة شعرها الجديدة، وضعت أعوامًا أخرى فوق عُمرها، إذ تبدو أشحبَ وأكثرَ معاناة من الهالات السوداء من ذي قبل، ورغم أنها قد أبدَتْ رغبتها في ألا تصنع لها قُصّة، أصبح لديها الآن واحدة مفتوحة من الجانبين، لكنها تبتسم وتدفع ما تطلبه الفتاة دون اعتراض.

قبل مغادرة بيتاكاس، تتوقف في سوق المؤن لقضاء مشتريات العجوزين. تراقب وهي في الصَّفّ، النساء الثرثارات وأصحاب الدكاكين سليطي اللسان، طريقة كلامهم الملغزة، السريعة والغريبة تمامًا عنها. ثمّة كلبان طليقان يتشمّمان الصناديق دون أن يُبعدهما أحد عن المكان. على المرء أن يكون متأهبًا جدًا، لأنه لو أهمل الأمر للحظة، قد يتسلّل أحدٌ ويأخذ أفضل البضائع. حتى الأطفال (ألا يجب أن يكونوا في المدرسة؟) يبدون ماكرين

ومُحبّين للخداع. بالنسبة إلى المراهقين، فثمّة لمعان متغطرس ومستفز في عيونهم.

تقول نات في نفسها: إن الأمر ليس فظيعًا بمثل هذه الصورة. الأمر يرتبط بها، بنظرتها المريضة. ليتها تغلق عينيها لكيلا ترى المزيد.

لم تفكّر نات في إسترّيا طوال كل هذه السنوات، لكن بعد واقعة الصالون، هاجمتها ذكريات تلك الأيام البَرّاقة، والطريقة التي تحولت بها إلى أيام حزينة وغير مفهومة. كان عمرها سبعة أو ثمانية أعوام تقريبًا، أما إسترّيا فتكبُرُها ببضعة شهور على أقصى تقدير، لكن بضعة شهور آنذاك مَثّلَتْ فارقًا ضخمًا وبالمثل ضمانًا، لأن صَدَاقةَ فتاة أكبر منها سنًا- أو التمتُّع بخدماتها- شرف كبير. لا تتذكّر وجهها أو صوتها، وإنما طريقة جلوسها خلفها لتُصفّفَ شعرها، فإسترّيا كانت تحلُمُ بأن تصبحَ كوافيرة، لكنّها -كما اعتادت أن تقول- لا تتدرّب مع أي واحدة، وإنما معها هي فقط: مع نات المحظوظة، المختارة من بين البقية: صاحبةِ أنعمِ وأطولِ وأجملِ شَعْرٍ بينَهُنَّ جميعًا. اعتادت أن تُضفّرَ شَعْرَها وتُصفّفَه طيلة ساعات، وأن تُدغدِغَها بينما تنفخ في قفاها بنعومة، لتغلِقَ نات عينيها وتتركَ نفسها لها.

ذات يوم بدأت تشُدُّ شعْرَها وتضغط على ضفائرها أكثر من اللازم. قالت لها: «شَعْرُكِ يتقصّف»، ثم ألقت بالفرشاة على الأرض وهي تنفخ. لم تفهم نات أين الخطأ ورَجَتْها أن تحاول مرة أخرى، مُتحملة دموعها في صمت كلما آلمتها إسترّيا. لم يستغرق الأمر سوى يومين إلى أن استبدلتها. هكذا باتت نات تراها تُصفّف المُختارة، وتُسَرّح شعرها بعناية شديدة، وتُزيّن كل خُصلة وضفيرة حول جبهتها بربطات ملونة -وهو أمر لم تفعله معها قط- قبل أن تمسكها من طرف ذقنها حين تنتهي لتتأمل النتيجة وتصفق مبتهجة. كانت الفتاة الجديدة تراقب نات من بعيد، ربما منزعجة بعض الشيء، لكن راضية

بشكل لا يُمكن دَحْضُه.

لم تعرف نات أي خطيئة قد ارتكبتها لتُعاقب بمثل هذه الصورة. حينما رأت في كتاب الدين لوحة لآدم وحواء بعد طردهما من الفردوس فكّرت: هذا هو ما حدث لي.

يُفرغ الجاران حقائب الطعام من السيارة العائلية، بينما يتسكّع الطفلان في الأنحاء وهما يجُرَّان وراءهما قَوْسًا وجُعْبَةَ أسهُم مُلوّنة. رغم البُعْدِ والضَّبَاب، لدى نات انطباعٌ أن جارتها حُبلى. يُحييها الجار برفع يده، فتجد نفسها مُجبرة على الاقتراب، كما تقتضي الأصول. يسألانها كيف كان أسبوعها. يشكوان من العاصفة، والضرر الذي ألحقته الرياح بتعريشة مدخل البيت المسقوف. يتعاملان معها بِوُدٍّ وحرارة مفاجئتين، كأنهما -كما تفكّر نات- لا يأبَهان لأمرها إلا حينما يتشمَّمان رائحة المشاكل؛ كأنهما يحدسان الخراب الذي حَلَّ بأحوالها ويسعدان به.

تُمسِكُها جارتها من ذراعها وتعترف: الأمر صحيح. إنها حُبلى. تُخبرها بالنبأ بعينين لامعتين، وهي تتشبَّث بها بتلك الحميمية الموجودة فقط بين الصديقات. تدعوها إلى تَنَاوُلِ العشاء في منزلها والاحتفال بالأمر. تنتحي بها جانبًا، قبل أن تتمكّن نات من الرَدّ، ثُم تغيّر نبرتها، وتخفض صوتها، وهي تداعب بطنها قائلة:

- الدعوة لكِ أنتِ فقط.

لا تفهم نات الأمر في البداية.

- أقصد.. نحن لا نوَدُّ أن يأتي الألماني.

- أندرياس؟

- أي نعم. أندرياس.

تومئ نات برأسها:

- بالطبع. لا توجد مشكلة.

تشعر نات بتيار بارد وقاطع، يكاد أن يكون مُطهرًا، يتصاعد حولها. إنه تيارٌ يقضي على أي فرصة للرَدّ أو على الأقل للسؤال، فتندفع المحادثة من جديد نحو مشكلة الطقس والإزعاج الناجم عنه، لكن داخلها، تتساءل نات: ما السبب وراء هذا المنع؟

يعني حضور العشاء أنها لن تلتقي بأندرياس الليلة، وقبول الدعوة سيُصبح بمثابة رسالة إليه؛ رسالة ضمنية لا تعرف نات أصلًا معنى مضمونها. تقرّرُ ألا تُقدّمَ إليه أي تفسيرات. تُخطره فقط بأنهما سيتقابلان صباحًا. هذا هو ما كتبته إليه.

لكن، كيف سيُفسّر غيابها؟ تعتقد نات أن أكثرَ شيء مُؤكّد هو أنه لن يُفسّره بأي طريقة.

ليلًا، في العشاء، الذي يحضره بييتر أيضًا، يعرض الجاران خططهما لإنشاء مسبح في الفناء. لقد أجريا حساباتهما والأمر لن يُكلّفهما الكثير. يودان أن يُنشآ مسبحًا طويلًا وضيّقًا يسمح بسباحة مريحة. سيؤدي وظيفته، حتى لو لم يَبْدُ جميلًا.

تقول نات:

- أسوأ شيء في المسابح، صيانتها. المسألة جحيم.

يومئا برأسيهما. لقد درسا كل الموانع، ورغم ذلك حَسَمَا قرارهما.

تقول نات:

- لا أعرف. لطالما فَكّرت أنَّ الأمرَ لا يستحق العناء. اعذراني، لكن أظن أن الأمرَ حماقة، في ظل الماء الذي سيهدر سنويًا.

- لا يهدر الماء في كل مرة. ثمّة منتجات للحفاظ عليه. منتجات وأغطية مشمعة.

– صحيح، لكنها منتجات كيميائية قوية جدًا.. لا تقنعني هي الأخرى.

تتمادَى نات. إنها تدرك الأمر. ليس لديها أدنى فكرة عن المسابح، لكنها رغم ذلك تسمح لنفسها بإبداء رأيها. ما الذي يحدث لها؟ هل تتجنّب بحديثها عن صيانة المسابح رغبتها في الرحيل فورًا والركض إلى بيت أندرياس؟ يمُدُّ لها بيتر يَدَ عَوْن ويغيّر الموضوع. تُركّز في طبقها وتتذكّر الكلمات التي قالتها جارتها، سلوكها، نظرتها المنخفضة، تَرَدُّدها بينما تتحدث، ويدها وهي تداعب بطنها: «لا نَوَدُّ أن يأتي الألماني». تدور كل التفسيرات المحتملة داخل رأسها. يخطر في بالها أن احتكاكًا ما قد وقع بين أندرياس والجارين، أو ربما بينه والمرأة وحدهما. ربما هو شيء خاص وحميمي، ففي نهاية المطاف هي من رَجَتها، مُستغِلّة عدم وجود زوجها أمامها. هل ترتبط المسألة بأنه طلب إليها هي الأخرى أن «تتركه يدخلها»؟ ينقبض وجهها مغمومًا. يراقبها بيتر، من على الطرف الآخر للمائدة. تقول في نفسها: لا. لا. الأمر غير ممكن. لقد استخدمت الجارة الجمع بينما تتحدث. قالت: «لا نَوَدُّ». مسألة أن السببَ يتعلّق بها وحدها غير مُمكنة. بإمكانها أن تسألَ أندرياس نفسه عن الأمر، وتمحو شكوكها بأسهل الطرق، لكنه أمر لن تفعله، لأن ما يظُنُّه الآخرون بخصوص أندرياس، لا يؤثر فيه ولو بأدنى درجة. لو حكت له ما حدث، سيقول إنه أمر غير مهم، بل إنه رُبّما لن يقول شيئًا. لن ينزعج أبدًا، حتى ولو عرف أنهم يتحدثون عنه بالسوء هنا وهناك، أو يُفلتون تلميحات كريهة بخصوصه.مكتبة .. سُر مَن قرأ

لا يوجدُ شيءٌ بعيد عن طبيعة أندرياس أكثر من الغضب. لم ترَه قَطّ يثورُ أو يُبالغُ أو يفقد أعصابه، كما فعلت هي للتوّ في موضوع المسبح، بل إنه في ذلك اليوم الذي تحدّث فيه عن أُمِّه لم يرفَعْ صوته. لا يتجادل أبدًا، وحينما يُعبّر عن وجهة نظره، فإنه لا يعرضها بنفس الاحتياج والقلق الذي تفعله

هي كي تُصبحَ مفهومة، والعجيب في هذه المسألة، أنَّ هذا السلوكَ يثيرُ في نات قلقًا أكثر من الطمأنينة، لهذا تتساءل أحيانًا إذا ما كانت هذه الحياديةُ أحدَ أشكال الهجوم الخفية.

تسمعُ مُواءَ «لي» وهما في الفراش. إنه مُواءٌ حادّ، طويل، كَبُكاء. تركض القِطّة في دوائر عبر المنزل، تدخل وتخرج من غرفة النوم، دون أن تتوقف عنه. نات غائبة وتخمّن أيضًا أن رأس أندرياس منشغل بأمور أخرى، لكن الضوضاءَ ليست هي السبب الوحيد. ثمّة شيء في جَسَدَيْهما توقّف عن العمل ولا يُمكن إصلاحه. يمضيان ببطء، ويتعاملان مع بعضهما بجمود، بلا مهارة. تفكر نات كيف كان الأمر مختلفًا منذ عدة أسابيع فقط، حينما كانا يتعانقان ويسيل وينساب كل شيء. تجعل هذه الفكرة -أو بالأصح المقارنة- الأمور تسوء. بعد كل هذه الأشياء، تأتي القطة المُتذمِّرة التي تستمِرُّ في المُوَاء كطفل يبكي. القطة التي يبدو مواؤها أكثر إحباطًا من طفل يبكي. تفعلها بلا توقف، بإلحاح، فيبدو مواؤها أعمق وأكثر إصرارًا من حالته الطبيعية. تتوقف نات.

- هل هي على وَشْك الولادة؟

يجيبها أندرياس:

- لا. إنها تبحث عن صغارها. ولدتهم أمس.

ترفع نات نفسها، لكنها لا تزال فوقه. تنظر إلى وجهه بدون نظارة، فيبدو شاردًا وبلا حماية.

- وأين صغارها؟

- أغْرَقْتُهم في طَسْت مملوء بالماء.

- أغرقْتَهُم؟

- ما الذي كنتِ تودّين أن أفعلَه؟ الأمر أفضل لهم هكذا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترتعب نات. لِمَ أغرَقَ صغار القطة؟ ألم يكن ثمّة خيار آخر؟ إنه لم يفكّر حتى في خيار آخر! لِمَ لم يُبْقِ على الصغار؟ لديه مساحة فائضة! لماذا لم يُهدِ الهررة إلى أحد؟ ألا يندم على قتلها؟ ألا يشعر بأدنى قدر من التعاطف؟ بينما تسأله عن كل هذه الأمور، ترتدي ملابسها، مُبدية كامل غضبها، لكنها في الوقت نفسه تعرف أن القطط الصغيرة الميتة ليست السبب الوحيد لانزعاجها. لا يُجيبها أندرياس، وإنما يُكرّس لها نظرة ازدراء طويلة، قبل أن يسألَها هل ستنتهي الليلة بهذه الصور؟ هل ستترك الأمور في منتصفها؟ وهل تقدر على الأقل على السيطرة على نفسها؟ فتردُّ عليه نات بتساؤلها إن كانت طريقةُ انتهاءِ الليلة تهمُّه حقًا، فهو أكثر شخص معدوم للإحساس عرفته في حياتها، وليس فقط لأنه قتل صغار القطة، وإنما بوجه عام، بل إنها واثقة من أنه سيُشغّل التلفاز كأن شيئًا لم يحدث، بعد رحيلها.

ينظر إليها رابط الجأش، فيبدو بؤبؤا عينيه خاويين. يرتدي ملابسه ببطء، ومن بعدها نظارته بحرص، قبل أن يتحدث. توحي كل واحدة من إشاراته بقرب النهاية: طريقة لفّه لرباط حذائه، أو ربط إبزيم حزامه الملفوف؛ وكذلك طريقة رفع نظرته نحو نات، التحديق فيها، وتكرار نفس الكلمات التي قالتها. «قتل الصغار». يا لها من حماقة! يقول لها إنها تعتقد أنها قادرة على الفهم، وأن لديها حقًا في إصدار الأحكام، لكنها لا تعرف شيئًا. عليها أن تصمت بعض الشيء؛ أن تنظر فيما حولها وتصمت. تعُضُّ نات شفتيها وتجيبه وهي تحاول احتواء دموعها:

– تتحدث مثل صاحب البيت، بنفس الازدراء. كلاكما يظُنُّ نفسَه في مكانة أعلى من البقية.

– هذا لأن صاحبَ بيتِكِ مُحِقّ. نتعامل مع الحياة هنا، وَفْقًا لقواعد أخرى، والمشكلة ليست أنكِ لا تتقبلينها، وإنما أنكِ لا تفهمينها. أنتِ غير قادرة على

فهمها.

- أي قواعد؟ أي قواعد تتحدث عنها؟ مقايضة اليد العاملة بالجنس على سبيل المثال؟

لا يمنحها أندرياس وقتًا للندم. لقد قالتها وأصبح أمرًا لا يُمكن إصلاحه. يُبعدها من جانبه بذراعه. ينظر إليها بقسوة. يتنهّد بِعُمق. بينما يجلس إلى الفراش، ويُصفّف شعره، يقول لها بهدوء تام، إنه يرغب في إنهاء الأمر.

تسأله نات بينما تختلج:

- إنهاء أي أمر؟

- إنهاء هذا الموجود بيننا أيًا كان مُسَمَّاه. إنهاء هذه العلاقة. قطعها.

- لم أعرف أصلًا أن ثمّة شيئًا موجودًا بيننا!

- فعلًا؟ وما هي إذن مسألة أنكِ تأتين في كل مساء إلى فراشي؟

- هذا هو ما أسأله لنفسي طوال الوقت: ما هي طبيعة هذا الأمر؟

- أنتِ لم تفهمي الأمر قط، أليس كذلك؟ إذن لماذا تتجسَّسين عليَّ وتتجوّلين حول المنزل لمعرفة إن كنت موجودًا أم لا؟ آه.. صحيح! أنتِ تفعلين كل هذا، لأنك لا تفهمين شيئًا.

- ما الذي تتحدث عنه؟

- أنتِ تعرفين ما الذي أتحدث عنه. انتهينا. لقد نَفِدَ صبري.

تسمع نات الكلمات لكنها لا تصل إليها. تلاحظ أصواتها، لكنها لا تلتقطها. ثمّة شيء قد تغيّر داخلها. يذوب غضبها ويُفسِحُ مجالًا لخواء يصعق صداه جسدَها كُلَّه. لقد سقطت في بئر وتغرق. تفرُكُ عينيها بقبضتيها، وإذا بها ترى أندرياس من مكان مختلف. يبدو لها صوتها -صوتها نفسه- بعيدًا

جدًا، كأنها تتحدث من مكان بعيد، كأنها تتحدث من خارج نفسها:

- لا. لا. لا.. أنت لا تتحدّث بجدية.

لا يُجيبها أندرياس. تُسيطر عليها حالةٌ من الجمود الهائل. أصبحت بالفعل خارج أرض المعركة. تظل ساكنة ومنتظرة لبعض الوقت، وهي جالسة إلى الأرض، بعد أن ارتدت فردة حذاء واحدة، ودون أن تُزَرّر بلوزتها. يقول لها أندرياس بعد مرور عدة دقائق:

- من الأفضل أن تغادري.

أو بالأصح يخبرها أن عليها أن تنهض وترتدي ملابسها لترحل. لن تتذكر الأمر لاحقًا، لأنها تتصرف الآن كمُسَرْنَمة. لن تتذكر أيضًا ما قاله لدى رحيلها، لو أنه قال شيئًا، ولا كيف مضت في طريق العودة، وكيف أنها بسبب الظلام تقدمت كعمياء بينما تتعثر. لن تتذكر كذلك الكيفية التي فتحت بها باب البيت، وإلقاءها لنفسها على الفراش لترقد فوق بطنها وتكبس جسدها فوق حاشيته، محاولة إخماد معانتها.

يقترب «سيسو» إلى حافة الفراش، يضرب وجهها برقة بِخَطْمِه ثم يفترش السجادة. إنها الآن باستثناء صحبة هذا الكلب -حارس الجثث- وحيدة؛ وحيدة بالكامل. لا يحوطها إلا الصمت؛ الصمت الخيالي الدائم. يخترق صوت محرك دراجة نارية رباعية الإطارات الهواء، ينبح كلبان من بعيد، وإذا بها ترى كلمتين جديدتين تقتربان منها وتتجليان بكل وضوح: «وقت العقاب». تنطقهما وكأنها تقرؤهما، كأنهما لا تنبعان منها، وإنما من بعيد، من بعيد جدًا.

III

تتّصل به في اليوم التالي، والذي يليه، والذي يليه، رافضة تصديق أنه سيستمِرُّ في تجاهلها. تَعِدُ نفسَها في كل مرة أنها ستكون المرة الأخيرة، بينما تدرك تمام الإدراك أنها هكذا ستضع نفسها بين يديه، وستركع أمامه بلا كرامة. مع ذلك، تُصِرُّ على الاتّصال وتكاد أن تتوجّهَ إلى بيته، بل وحتى إلى مكتبه في بيتاكاس، لو أن هذا هو ما يتطلبه الأمر. يرُدُّ أندرياس في اليوم الثالث على مكالمتها، لكنه يفعلها فقط ليُكرّرَ حُكمه: لا يجب عليهما أن يريا بعضهما مجددًا. ينطق عبارته بهدوء ويقين دون أن يثور أو يصرخ. لا يؤنّبها على كل المكالمات السابقة؛ هذا التحرش الصريح. لا يؤنبها على أي شيء. تتفهّم نات في ظل برودة أعصابه، أن قرارَه لا رجعة فيه.

لكن لا يمكنها أن تستسلم. ترجوه. تتضرّع إليه، فيَقْفِلُ السمَّاعة في وجهها. بداية من تلك اللحظة، لن يستقبلَ أيَّ مكالمة أو يرُدَّ على أي رسالة منها. تقول نات لنفسها إن حَسْم أندرياس، اتّساقه مع ذاته، يرتكز على أمرٍ واحد: عدم السماح لأحدٍ بِلَوْي ذراعه وإصراره على عدم التراجع.

يقودها يقينها إلى أن النهاية قد حانت إلى المَرَض حرفيًا، إذ تدخل الفراش وتظل فيه لعدّة أيام. تُبْقي الهاتف المحمول إلى جوارها، تنظر إليه كل خمس دقائق، تضعه أسفل وسادتها، وتبحث عنه في الظلام، مغلوبة أمام النُّعاس، لكنها لا تصل أبدًا إلى حالة النوم الكاملة. يتّقِدُ جِلدُها من فرط الإحباط، في ظَلّ عجزها عن الاعتراف بأنها خسرت أندرياس وجسده، وأن كل ما

كانا يفعلانه، لن يتكرّر أبدًا. تُراجع مرة تلو الأخرى ما حدث، الكلمات التي قيلت، وترتيبها. لقد أزاحها من جواره، دفعها، كاد أن يُسقِطَها فوق الأرض، وطردها من بيته. إنه أمر فظيع ومفجع يملؤها برغبة في الصراخ بذكراه المجردة.

يحضر بيتر ليطمئن عليها، في ظل قلقه من انغلاقها على نفسها. ما الذي يحدث لها؟ هل ذهبت إلى الطبيب؟ هل تحتاج شيئًا ما؟ تُبقي نات على تحفظاتها، فهي الأخرى لا ترغب في أن يلوي أحدٌ ذراعها. تطلب إليه فقط أن يشرح للعجوزين أنها لن تتمكّنَ من مساعدتهما لفترة، وأن يشتري طعامًا لـ«سيسو». تفكر نات: يا للسخرية! سيُضْطَرُّ بيتر إلى إطعام الكلب الذي يمقته.

لا بُدَّ أنه من أبلغ الجارين بحالتها، لأن الجارة بمجرد وصولها يوم الجمعة، تمرُّ لتلقي التحية عليها. تجلب معها كمية كبيرة من أكياس المشروبات العشبية المرتبة بعناية في علبة خشبية. كل كيس منها مُوضَّحٌ عليه نوعُ الداء الذي يُخفّف أعراضه. البابونغ، عشبة النحل، الزيزفون، السالفيا، الزعتر، الناردين، النعناع. كلها مشروبات سهلة التحضير لمواجهة تقلُّبات الجهاز الهضمي، الأرق، آلام العظام والدورة الشهرية، بل والحزن.

– هذه العلبة لكِ. يمكنكِ أن تحتفظي بها. إنها هدية.

تفكّر نات في أنها هدية خبيثة، كأنها إن عاجلًا أم آجلًا ستصيبها كل هذه الأمراض، لكنها تشكرها على مجاملتها، فتقول الجارة إنه أمر غير مهم، فهما هنا لتقديم العون، فهي تعرف جيدًا أن نات ستفعل نفس الشيء، لو انقلب الوضع. تنظر نات إلى بطنها البارز أسفل فستانها القطني النيلي. تنظر إليها كأنها أول مرة تراها، وتبدو لها جذّابة أكثر من أول مرة، بِشَعْرٍ أنعم، وبَشَرة أكثر شبابًا، وأناقة طبيعية تُشعرها فجأة بالانزعاج. تَجِدُ نفسَها تسألُ دون تفكيرٍ أو مُقدّمات:

- ما الذي يحدُثُ معكِ أنتِ وأندرياس؟ ما هي المشكلة؟

يبدو سؤالُها فظًّا أكثر مما تودُّه حقًا. يبدو مهينًا. تفكر نات في أن جارتها ستشعر بأنها تحت الهجوم ولن تُجيبَها، لكنها تميل برأسها، كأنها تدرس سؤالها. بعدها ترفعه وتنفي مبتسمة:

- لا. لا يحدث أي شيء.

- لكنكِ منعتني من أن أَجْلُبَه معي إلى منزلكما.

تحافظ الجارة على ابتسامتها، دون أدنى تغيير:

- المَنْعُ كلمة مبالغ فيها. لقد طلبت إليكِ الأمر فقط.

- لكن، لماذا؟

تتحسَّسُ بطنها مرة أخرى، لتوازنه:

- بلا سبب. الأمر أنني لا أعرفه تقريبًا. لا توجدُ ثقة بيننا.

يزورها الجار في المساء. يعرض عليها أن يوصلها إلى أي مكان توده وأن يفعل لها أي شيء ترغب فيه. هل مظهرها مُقلق إلى هذه الدرجة؟ أم أنهما يحدسان السبب الحقيقي ويتلذذان بعقابها؟

يكتسي صوت الجار بنبرة غير ملائمة ومفعمة بالأمل. هل تعرف زوجته أنه موجود هنا؟ هل أرسلته أم أنه جاء بمبادرة من نفسه؟ تنظر إليه بتمعُّن وتلاحظ كيف يبدو واهنًا، كأنه يرغب في قول أمر آخر غير الذي يقوله، بعينين كأنهما سائلتان أو مُسيلتان، فتمتدُّ لحظات الشك بصورة لها دلالتها. لا يبتسم الجار إلا وإيماءة الخداع منطبعة على وجهه، وإن لم يكن الخداع، فهي المُداراة. تفكر نات لبعض اللحظات في أن كليهما من نفس الطينة.

تعاني من كوابيس تُرهقها. يكفي أحيانًا أن تنعسَ لبضع دقائق، في أي ساعة، كي تظهر في أحلامها، مهما قصر الوقت، مجموعة من الكائنات: أشخاص لا وجوه لهم أو حيوانات ناطقة، فتمضي كلها نحوها، لتأمُرَها، وتحبسَها في أماكن مظلمة ومُحيِرة. حينما تستيقظ، تنظر فيما حولها وتبدو لها

غرفتها غريبة عنها بالكامل. لا تزال كل قطع الأثاث والأغراض في مكانها، ومع ذلك، ثمّة شيء ما قد تغيّر. المحسوسُ في هذه الأجواء يبدو كانخفاض مفاجئ في الحرارة أو بهتان ألوان صورة قديمة، كأنَ العالمَ قرّر أن يمضي قُدمًا ويتحوّل، تاركًا إياها وراءه، في الخلف، بصورة نهائية.

كم تكره هذا البيت! يا لفشل محاولاتها في تحسينه! لم ينفع مسعاها لترك أثرها، لا بتنظيفه ولا تزيينه. ممتلكاتها تبدو كأنها قد قُصَّتْ من مكان آخر ولُصقت هنا، كتمثيل رديء لفن الـ«كولاج». تنظر إلى الطاولة، أوراقها، الحاسوب، كتبها، الستائر التي حاكتها للمطبخ، الشمعدان النحاسي الجميل، وطبق الفاكهة الرخامي، فتجد أن كل الأشياء لها صريرها. كل الأشياء -كما تقول لنفسها- كان لها صريرها منذ البداية. إنها لا تنتمي إلى هذا المكان ولم تنتَمِ إليه قط.

مَرَّ أسبوعان كاملان. إنه الأحد مرة أخرى. حان دورها لتُحرك أوراقها. لكنها لا تعرف أي ورقة يجب عليها تحريكها وإلى أين.

تقرر أن تخرج للتمشية. تتوغّل في الطريق الترابي المُفْضي إلى بيت العجوزين المحاط بالبساتين، زرائب الخنازير والدجاج. تُميّز الاثنين من بعيد في جلوسهما أسفل تعريشة لا تزال ثمار العنب تنمو فيها. لقد هجرتهما. لم تمرّ لتسألَ عنهما. هل عليها أن تفعلَ الأمر؟ نعم. عليها أن تفعله، لكن تقول في نفسها أنها ستفعله لاحقًا. تنظر إلى أشجار البرتقال المثمرة. إنه شيء غير اعتيادي، كما شرح لها بيتر، فَمَرَدُّ الازدهار المتأخر هو دفء هذا الخريف غير التقليدي. لو أن الأمر بيدها، لن تتحدث عن الدفء، وإنما عن ركود الجو، كأنَّ الهواء قد توقّف عن الهبوب وتجمَّد تياره في نقطة المنتصف؛ لا عند القدمين أو الوجه، وإنما عند منطقة الخصر، فقط ليُعرقلَ تقدُّمها.

تمضي بِمُفردها. لقد سار «سييسو» وراءها بضع مئات من الأمتار، لكنه توقف في وسط الطريق. نظر إليها بينما تواصل السير، قبل أن يتجاهل

نداءها ليستدير ويمشي بعدها بطريقته العجيبة. تقترب نات الآن من أشجار البرتقال. تكتشف أن كثيرًا من الأوراق موبوءة بالأرقات [1]، بل إن بعضًا منها ذابل، ويلتفُّ فوق بعضه، وتغزوه الحشرات. السماء شاحبة. تكاد أن تكون قذرة، إذ يصفّرُّ لونُها بسبب عمود من الدخان يرتفع من بعيد. تمتزج في الهواء رائحة الدخان، زهر البرتقال وروث البهائم. بعدها بقليل يظهر بيت الشقيقين الفاحشين، بالكلمات المطلية بالأحمر فوق جدرانه: «عقاب الرب» و«عار». تطل نات برأسها عبر الفراغات الموجودة في النوافذ، التي انتزعت أطرها وتخلو من الزجاج. ترى دواخل البيت المليئة بالقمامة والبعوض. تدخل، رغم معرفتها أنه لا يوجد شيء جيّد لتراه، وإذا بيقين لا تُطيقه يُداهمها وسط هذه الجدران التي يتكاثف فيها الهواء: لا فائدةَ من وراء أي شيء ستفعله. لا أهمية لأي ورقة ستُحرّكها. لن يعود أندرياس إليها أبدًا.

لقد خسرته.

كان لها وخسرته.

يُمزّق هذا اليقين كلَّ واحدة من عضلاتها. تعتقد أنها ستموت من الألم، بل وأنها قد تموت هكذا، وحيدة، بين أنقاض هذا البيت. تكاد أن تسقط فوق ركبتيها، لكنها تتماسك، وتحاول في استنادها إلى الحائط، أن تتنفس بصورة منتظمة. تشعر أنها تتأمل المشهد الأخير في حياتها، وتفكر أن هذه حقًا هي المعاناة الحقيقية، وبالمثل أن شيئًا سيئًا بالفعل سيحدث لاحقًا.

بعدها بقليل، وهي عائدةٌ إلى منزلها، تُميز الجلبة القائمة: في البداية، بعض الأشكال المُبهمة، ثم أشخاص يتحرّكون حول شيء ما، فعاصفة تراب ترتفع من وراء سيارتين، إحداهما شاحنة الجارين العائلية التي تنطلق في تلك اللحظة تحديدًا، مع بعض الصرخات التي تصل إليها خافتة بسبب المسافة. تُسارع خطاها، وإذا بإحساس كئيب يتشكل داخلها. تتقدم دون أن

(1) طفيليات صغيرة تتغذى على عصارة النباتات. تعرف أيضًا باسم «قمل النباتات». (المترجم).

تفهم الأمر بالكامل، لكن الصرخات باتت تخُصُّ أشخاصًا معينين: الجارة وهي تصعد السيارة المنطلقة، وابنها الذي يزعق ويدُبُّ بقدميه فوق الأرض لأنهم سيتركونه بمُفْرده. أيضًا، ثمّة مجموعة قوامها رجلان أو ثلاثة. يُمسِكُ أحدهم عصا، أو غرضًا يشبه العصا، ويتجول بحثًا عن شيء حول بيتها. ابتعدت الشاحنة العائلية بالفعل ولم تَعُدْ هيئتها واضحة من وراء سحابة الغبار. تتساءل بينما تُسارع خطاها أكثر وأكثر عما يحدث، إلى أن يراها أحد الرجال، فيركض نحوها ويناديها، لكن نبرةَ صوتِه لا تعكِسُ أنه سيُعلمها بشيء، وإنما أنه سيوجه لها اتهامًا، كأنها أذنبت في شيء ما. يقول: «إيه؟» يصرخ: «إيييه!» وإذا بكل شيء بعدها يحدث بصورة سريعة. يقولون لها إنه الكلب، هذا الوحش المفترس، ويسألونها أين كانت طوال هذا الوقت؟ لقد دمّر وجه الطفلة. لماذا لم تُقيده؟ ألا تعرف أنه متوحش؟ أين هو هذا الشيطان الآن؟ يقولون إن عليها أن تسلّمه لهم ليصفّوا حسابهم معه. الطفلة المسكينة! عليها أن تراها فورًا، وأن ترى ما اقترفه كلبها. لا تفهم نات إلا قليلًا. تنظر إلى الطفل، الواقف أمام باب البيت ويديه فوق وجهه، بينما يخمش خَدَّيه بأظافره، ويصرخ برعب. ترى امرأة -وهي صاحبة المتجر- تُمسكه من ذراعيه وتأخذه معها قسرًا. يأمرها أحدٌ بأن تبتعد عن هنا فورًا، أن تذهب للبحث عن الوحش، أن تغرب عن وجههم لو أنها تودُّ ألا يقتلوها هنا في التو واللحظة، أن تختفي على الأقل حتى تطمئن المرأة المسكينة -الأم الحبلى التي تدمّر وجه طفلتها- إلى أن تلك الأخيرة ستنجو. على ما يبدو، فإن نات قد باتت الآن مسؤولة عن مصيبتها.

تحبِسُ نفسها في بيتها مجددًا، هذا إن كان بإمكانها أن تعتبره بيتها أو بيتًا أصلًا. لا يوجد مكان آخر لها. إلى أين ستذهب؟ أينما حلَّت وأيًا كان ما ستقوله، سيقابلها الرفض. الوحيد الذي يقترب لرؤيتها هو بيتر. ينظُرُ إليها بقلق ويُحاصرها بعينيه. تستلقي نات متقوقعة على ذاتها فوق الأريكة. نظرتها تائهة في الحائط وحَدَقَتا عينيها لا تتحرّكان. يحاول بيتر أن يرفعَ من

معنوياتها، لكنها لا تُنصت إليه باهتمام. يقول لها إن إصاباتِ الطفلة على ما يبدو ليست خطيرة جدًا. ستبقى بعض الندبات، لكن اللجوء إلى الجراحات التجميلية حَلٌّ قائم على الدوام. يشرح لها بييتر شيئًا ما عن الخدود، أو حول خَدّ معين. وجهه نفسه يبدو مقسومًا بفعل الظل. بينما يجلس أمامها، لا ترى نات إلا نصفَ وجهه. يبدو بييتر لها الآن أصغر سِنًّا، بلحيته غير المهذبة ووجنتيه البارزتين بفعل الظلال المشعشعة، أو ربما أنها هي من شاخت وتنظر إليه من حقبة أخرى. يستمرُّ صوته الخافت والمطمئن في شرح أمور لا تقدر نات الآن على تفهُّمها. تفكر مشوشة في أن الإنصات إلى أحد ليس لديه شيء ليضيفَه أمرٌ مرهق. هل هذا هو ما كان يحدث مع أندرياس حين تتحدث؟ هل هكذا كان يشعر كلما ثرثرت؟

- على أي حال، عليكِ أن تخرجي لتعرضي مساعدتك وتسألي عن الطفلة. عُمرُها سِتُّ سنوات بالكاد. يا لها من مسكينة!

تجيبه نات:

- بالفعل. إنها مسكينة، لكنني لست مذنبة في شيء.

يمسك بييتر بيدها ويضغط عليها:

- بالطبع. بكل تأكيد لستِ مذنبة.

- الكلُّ يكرهُني الآن.

- لا يكرهونك، لكن عليك أن تتعاوني. لا يمكنك أن ترفضي.

يعني التعاون تسليم «سيسو» بمجرد أن يظهر كي يذبحوه. لقد فَرَّ الحيوان الذكي ولم يخلِّف وراءه أثرًا. هل هو قادر على تفهُّم ما فعله واستباق عقباته؟

يقوم رجال لا إسكابا، في صحبة اثنين من رجال شرطة بيتاكاس المحلية، بجولات في المنطقة بحثًا عنه. وصلوا إلى إل غلاوكو وسيصعدون إلى قمّته لو استدعى الأمر. يترأّس صاحب المتجر البعثة. إنه أكثرهم غضبًا وتوحُّشًا،

كأن ابنته هي من تعرّضت للعَضّ. لا تزال نات قادرةً على سماع الإهانات التي وجّهها لها. الوحيد الذي دافع عنها في تلك اللحظة هو الغجري. «اتركوا الفتاة في سلام». هذا هو ما قاله، لكنه انضمَّ بعدها إلى بقيتهم لتمشيط الحقول. تتذكّر نات كل شيء وهي مشدوهة، وعاجزة تمامًا.

ترعبها فكرة التضحية بالكلب. تظن أن قتله سيُعَمّق المأساة. ليست مأساة الطفلة، ولا مأساة أبويها، ولا مأساتها هي، وإنما مأساة العالم عمومًا. سيُعَمّقها بصورة حتمية لا رجعة فيها، كأن التضحية بحيوان واحد -بهذا الحيوان- ستُغيّر وبصورة نهائية ترتيب كل الأشياء.

- ألا تُدركين أنه خطر؟ أنه قد يُكرّر نفسَ ما فعله لهذه الطفلة مع أطفال آخرين؟

- كانت هي من تَخَطّت السياجَ ودخلت دون إذن. لم يكن «سيسو» ليُهاجمها لو أنها لم تجتازه. أيضًا، أين كان أبوها وأمُّها؟ أليسا مسؤولين عن تركها بمفردها؟

ينهضُ بيتر من مكانه، يفتح عينيه، مفزوعًا:

- إياكِ وأن تقولي هذا! إياكِ وأن تقولي هذا لأحد! وإلا فإنكِ ستبحثين هكذا عن هلاكك.

- هلاك أكثر من هذا؟

- أنت متوترة ولا تعرفين ما الذي تقولينه.

تومئ نات برأسها. تتركه يدنو منه ويغطّيها بالبطانية.

-عليكِ أن تستريحي. سأعود لاحقًا.

في هذه المرة الصمت مختلف. له طابع مسرحي، كأن ثمّةَ مسرحيةً تعرض لها وحدها فقط، ولا هدف منها سوى خداعها. لا بُدّ أن الكُلّ نِيامٌ، لكن، بلا شَكّ، ما من أحد نائم. تتخيّل نات رجال لا إسكابا يبحثون عن الكلب؛ يبحثون عنه ببنادق الصيد والعصي، مترصدين ومستعدين لقتله كجماعة

واحدة، بمجرّد أن يعثروا عليه. هل سيقتلونه هكذا، بقسوة، ليرُدّوا له كُلّ الألم الذي تسبب فيه؟ تنعس وتسقط في رقاد محموم. تحلم بمشاعل، بنيرانها البرّاقة المختلفة البعيدة. تحلم أيضًا بأندرياس، بيديه، بلمستهما، بمداعبتهما لها، باختفائهما وظهورهما. حينما تستيقظ، تجد ضوءًا كئيبًا يتسلّلُ عبر الستارة المَعْدِنية. لا بُدَّ وأن عِدّة ساعات مَضَتْ، رغم أنها تبدو لها كدقائق. تسمع أنينًا عند الباب. إنه أنينٌ هادئٌ، ناعم، شبه بشري. ثمّة من يخدش الخشب. تنهض من قفزة واحدة وتفتح الباب. يقف «سييسو» عند عتبته، لكن نظرتَه أصفى من أي وقت مضى. إن وصولَه إلى هنا دون أن يروه معجزة. تكرّر قول الأمر لنفسها: إنها معجزة حقيقية. لِمَ قد يقتل أحدٌ مخلوقًا مثله؟

لا يُمكنهما الهرب، فبمجرد أن تنطلق السيارة سيعترضون طريقها، ويذيقونها الويل هي الأخرى. لو بقيت داخل المنزل طيلة أيام وأيام دون أن تظهر، سيكسرون الزجاج بمجرد سماعهم نباح «سييسو». سيحطمون الباب كما فعلوا مع الشقيقين الفاحشين، سيحاصرونها في الداخل، وستنقطع كل سبل الفرار. تفكر نات أنها موجودة هنا كحيوان محاصر؛ كـ«سييسو» نفسه، الذي لا يزال ينظر إليها ويئِنّ ببطء.

الحل الوحيد أن يساعدها بيتر. لا يزال بإمكانها أن تحاول. يمكنها أن تُقنعه، لو استخدمت الكلمات الصحيحة؛ لو جعلته يفهم أهمية إنقاذ الكلب بالنسبة للجميع؛ بالنسبة لـ«مجتمع لا إسكابا». تتصل به هاتفيًا. تطلب إليه أن يأتي في أقرب وقت، دون أن تشرح له سبب العجلة.

ينعقد لسان بيتر حين يدخل ويرى «سييسو». تتأرجح نظرته بينها وبين الكلب، مُترقبًا. تشرع نات في الحديث متسرعة. هل جلب السيارة؟ صحيح؟ يمكنه أن يأخذه في السر، فهُم لن يشكوا فيه، وأن يتركه بعدها في ملجأ للكلاب، أو أي مكان آخر، أو في قرية أخرى. ليقطع الكيلومترات الضرورية! لو بقي الكلبُ في لا إسكابا، سيُطحن بِعِصِيّهم.

يقاطعها بيتر:

- أنتِ مجنونة.

لكن نات تستمر في حديثها وتقول له أن يتخيّل لو أن الأمر يتعلق بكلبته؟ ألن يمنحَها فرصة الخلاص؟ حتى أكثر المجرمين خساسةً يحصلون على فرصة للدفاع عن أنفسهم؟ ألا يتذكّر ما قاله بنفسه حول الأفعى غليظة الشفتين؟ أن الأمر الوحيد الذي وجب فعله آنذاك هو إبعادها؟ تُمسكه من كتفيه وتهُزُّ جسده. لقد قال دائمًا إنه صديقها، صديقها الحقيقي. لقد قال لها أن تلجأ إليه لو احتاجت المساعدة، وهذا هو ما تفعله الآن، لماذا إذن لا يدعمها؟

- لأن ما تطلبينه حماقة، ليس فقط أنه لن يعودَ عليكِ بنفع، بل إنه سيضرك أيضًا. أنت مضطربة ولا تفهمين ما يحدث. مع مرور الزمن، ستشكرينني على ما أقوله.

تثور نات. هل سيرفضها هو الأخر؟ هل سيتحالف مع الآخرين لأنها باتت الآن أضعف قطعة فوق طاولة اللعب.

يضيف بيتر:

- الأمر يتعلّق بالأمان، وبالعدل. أنتِ غير قادرة على مواجهة الأمر.

تلتفت نات، تشيح بوجهها عنه، وتأمره بأن يرحل عن بيتها. يخرج بيتر بينما يجرجر قدميه. تفكر في أنه هنا ليس المحكوم عليه وتتساءل عن سبب طريقة سيره هذه. يا له من أداء مسرحي. لا بد وأنه راضٍ عن تحقُّق توقعاته. لقد قال لها إن هذا الكلب لن يجلب لها سوى المشكلات. بدا الأمر كلعنة وها هي النتيجة.

ربما لهذا السبب تحديدًا: لأنه قد أصاب في نبوءته المشؤومة، منح بيتر نفسه حَقَّ الوشاية بها. لا بُدّ أنه من وشى بها، خاصة وأنها تجد رجلي شرطة يقرعان بابها، بعد أقل من ساعتين من مغادرته. لا تنجح نات في تجنُّب أن

يأخذا الكلب. لم يعُدْ هناك أيُّ معنى للمقاومة بالفعل.

يطرقُ خواكين بابها، مغمومًا، بينما يلوي يديه. تدعوه نات إلى المرور، لكنه يُفضّل البقاء في الخارج وألا يعبر العتبة. يقول لها ناظرًا نحو الأرض إنه من الأفضل ألا تعمل لديهما لبعض الوقت.

يضيف:

- حتى تهدأ الأمور على الأقل.

يقول لها أيضًا إنه لو حدث العكس، فإن أحدًا لن يفهم الأمر. علاقتهما جيدة مع الجميع وتفادي أي نزاعات قد تضر بصحة روبرتا هو أفضل شيء. لا تدافع نات عن نفسها، بل وتقول إنه مُحِقّ. الكلبُ عَضَّ الطفلة، إنه كلبها، لهذا هي مذنبة. هذا هو العدل. لا يوجد شيء آخر قد تتحدث أو تتجادل بخصوصه.

يعتذر خواكين مجددًا وتتضرّج وجنتاه المليئتان بالتجاعيد بِحُمرة الخجل قبل أن يقول:

- ليس شيئًا ضدك. حينما يمُرُّ كل هذا، يمكنك أن تعودي.

ترى روبرتا في المساء ذاته، وهي ترتاح في مدخل بيتها المسقوف، جالسة إلى مقعد الاسترخاء المستهلك المخططَ الذي تستخدمه كلّما وَدَّت أن تشُمَّ بعض الهواء. تشير إليها العجوز كي تقترب. تتردد نات، فهي لا تَوَدُّ أن تؤذيها أو أن تعصي أوامر زوجها، لكنها في النهاية تستند إلى السياج، على مسافة كافية تسمح لها بالتحدث معها.

- ما الأمر يا روبرتا؟ كيف حالك؟

تُحدثها روبرتا باستياء عن ابنها. تقول إنه وعدها باصطحابها إلى إيطاليا، لكنه نسي وعده، بعد أن اشترت بعض الفساتين الجديدة للرحلة، لكنه -كما تكرّر- نسي وعده. تعرف نات أن للعجوزين ابنًا في الخارج لا يريانه ويأتيان على ذكره قليلًا جدًا، لكن ما تقوله روبرتا لا يبدو لها منطقيًا بصورة كبيرة.

تقول العجوز:

- لقد تاه في إل غلاوكو. تاه هناك وهو صغير، قبل أن تنبت لحيته. حينها، كان العشب يملأ ذقنه، وليس شعر لحيته.

- ما تقولينه يا روبرتا ليس مفهوما جدًا.

تشيح بوجهها، كأنها ترغب في تغيير الموضوع.

- الأمر ليس مهمًا.

شعرها رطب. لا بد أن خواكين غسله لها وتركها عند الباب كي يجف. شعرها يليق بها وهو مصفف نحو الوراء. تخبرها نات بالأمر:

- أنتِ جميلة جدًا يا روبرتا.

- لماذا لا تجتازين السياج لتجلسي معي لبعض الوقت؟ أشعر بالملل وأنا وحدي.

- ليس لديَّ وقت الآن، لكن لا بد أن زوجك سيسعد بقضاء الوقت والتحدث معكِ. اطلبي الأمر إليه.

- ها! إنه يتحدث بطريقة مختلفة. لا نفهم بعضنا. ألم تدركي الأمر؟

- أي أمر يا روبرتا؟

- هذا الرجل لا يفهمني.

- هل تتحدثين عن زوجك؟ إنه بالطبع يفهمك!

- لا. هنا، في هذا المكان، ما من أحد يفهم الآخر.

- حسنًا. إنه أمر شائع في كل مكان.

- وفي لا إسكابا بصورة أكبر؛ أكبر بكثير. ألم تري أنه لم يولد أحد هنا؟ الكل جاء من الخارج. كل واحد يتحدث بلغة مختلفة: بالإنجليزية، بالفرنسية، بالألمانية، بالروسية، بالصينية!

تضحك نات.

– ما هذا الذي تقولينه يا روبرتا؟ جميعنا هنا نتحدث نفس اللغة.

– لا! الأمور ملتبسة لديكِ جدًا! هل فهمتِ؟ أنتِ لا تفهمين ما أقوله الآن.

لم تنس أندرياس. لا يزال اشتياقها هائلًا، إلى درجة انتفاخ نهديها أحيانًا من فرط الرغبة، وشعورها بخدر في جسدها بالكامل من ذكراه المجردة، ومع ذلك، بدأت ملامح وجهه تتبخر من ذاكرتها. تغلق عينها وتحاول الإبقاء عليها، ورغم ذلك تتلاشى، إذ تتآكل ذاكرتها سريعًا من إحساس الفقد. ذات ليلة، تحلم به مجددًا، لكنه يظهر كرجل أطول وأكثر أناقة. ثمّة متعة سائلة في هذا الحلم، لهذا تجد نفسها تنغمس وتسبح فيها. تحرك ذراعيها بسهولة، وتتأمل أشعة الشمس التي تتخلل المياه، خُضرة قاع النهار والأحجار الفضية الموجودة فيه، لكنها حينما تستيقظ تفكر: لا. إنه ليس أندرياس.

ذات يوم، تظن أنها رأته من بعيد. يستحيل وصف ما تشعر به. ربما أقرب شيء لوصف شعورها هو النظر من نافذة تطل على مشهد من عالم آخر؛ عالم يبدو الآن بعيدًا، مؤلمًا، وغير مفهوم، لكن ألم يكن هذا هو حاله منذ البداية؟ ألم يكن بعيدًا، مؤلمًا، وغير مفهوم؟ تجيب على نفسها بنعم، لكنها قبلها كانت داخله، أما الآن فهي خارجه.

لم تعُدْ إلى التلصُّص عليه مجددًا. إن اكتشفها مرة أخرى تتجسّس عليه سيصبح الأمر قاتلًا! لكنها تراقب منزله من بعيد، وبابه مغلق في أغلب الأحوال، رغم أنه دائمًا كان يتركه مفتوحًا. الشاحنة في أغلب الأحوال ليست موجودة. أين يقضي كل هذا الوقت؟

ثمّة سكون غريب في المكان لا يتزحزح إلا بتغييرات ضئيلة: رفع وإنزال الستارة المعدنية، تغيير مكان عربة الجر اليدوية، أو ظهور الأحذية المضادة للماء إلى جوار الباب في يوم واختفائها في يوم آخر. يُفاجئها تحققها من كل

هذا، فتشعر كأنها قد ماتت.

ما رأيه يا ترى في كل ما حدث؟ في مسألة أن الكل نبذوها؟ هل سيشعر بالتعاطف؟ أم أنه سيظن مثل البقية أنها مذنبة؟

كل الأمور حدثت في وقت قصير؛ وقت قصير جدًا إلى درجة أنها تندهش حين تفكر في الأمر. لما وصلت إلى لا إسكابا، فتحت أنبوبة معجون أسنان جديدة. ظلت تستخدمها مرتين أو ثلاث مرات يوميًا، ومع ذلك، لم تنتهِ. لا يزال ثلثها باقيًا. تقول لنفسها إنه أمر لا يصدق: أن يتحرك كل ما في داخلها بالكامل، أن تهتز، أن تلُفَّ وتدور، أن تُكرّر نفس الأمر في فترة تقلُّ عن تلك التي قد يستغرقها المرء لاستهلاك 125 ملليلترًا من معجون الأسنان.

ذات يوم ترى «إل شاليتيتو» مفتوحًا. تتغلب على تحفظاتها وتقترب للسؤال. الجار بمفرده. يشرح لها أنه جاء ليتفقّد المنزل. يتأمّلُها بجدية، بتعبير يبدو أقرب إلى الفضول أكثر من اللوم. يقول لها إن الطفلة أحسن، وتتعافى. تسأله نات هل يشعران بالاستياء منها وإن كان بإمكانها أن تزورهما -أي الأم والطفلة- حين يصبح الأمر ممكنًا. ترغب في الاعتذار منهما شخصيًا. يأتيها رَدُّه بعد أن فكَّرَ لبرهة وداعب طرف ذقنه بإمعان، في إيماءة ترى نات أنها مصطنعة، إذ يقول لها إنهما لا يشعران بالاستياء منها. خطؤها الوحيد هو قلة حذرها. لا يصِحُّ أن يسيرَ المرءُ في أرجاء المكان ويجمع حيوانات نصف متوحشة. يضيف أيضًا أنه توجد أخطار لا يُمكن غَضُّ البصر عنها، ولا يحقُّ لأي شخص أن يخوضها لو لم يكن مستعدًا لتحمُّل عقباتها. ترغب نات في أن تقول له إن «سيسو» لم يكن نصفَ متوحّش، وإنه راقه هو نفسه، بل وإنها شاهدته ذات مرة يُدَاعِبُه. تود أن تدافع عن نفسها، لكنها تعرف أنها لا تمتلك هذا الحق.

حين ينظر إليها جارها، يهتز بؤبؤا عينيه بخفة، كأنه يتفقدها. إن أكثر ما آلمها فعلًا، كما يُخبرها، هو أنها عارضت التضحية بالكلب. لقد فقدا الكثير.

لقد فقدت طفلتها الكثير. لماذا كانت ترفض أن تخسر شيئًا هي الأخرى؟ عليها أن تفهم الأمر وفقًا لهذه المعايير.

– لكن دعينا لا نتحدث هنا. هيا بنا إلى الداخل. الجو بارد.

تدخل نات، لكنهما لا يأتيان على ذكر الموضوع في «إل شاليتيتو». يُحدثها عن أمور أخرى، بينما يفتح الأنوار ويشغل تكييف الصالون. يحكي لها عن تفاصيل مرتبطة بعمله. إنه إداري في شركة تأمين، لكنه ينوي أن يستقِلَّ بذاته ليفتتحَ مكتبه الشخصي. يقول إنه حين يصبح المرء مديرًا لنفسه ستكون نقلة هائلة. إنها الطريقة الوحيدة لكيلا يرفضَ أحدٌ طلبه لزيادة راتبه. يضحك على مزحته وبعدها يسألها عن أمورها، لكن دون أن يستمع إلى رَدّها. لا تعتقد نات أنه قلق جدًا بخصوص ابنته. تفكر في أن ما حدث لها على الأرجح لم يُزعجه كثيرًا، لأنه يتحدث بارتياح، بل ويبدو في عُمقه سعيدًا بهذه الجارة التي تروقه وباتت الآن بين يديه بسبب حادثة الكلب المؤسفة.

تكرر نات العبارة داخل رأسها: إنها بين يديه. أو بالأصح إن كلًا منهما في يد الآخر. أمامهما فرصة لبيع وشراء الغفران أو الدفاع وإعادة الشرف. إنه يحتفظ بسُلطة الضحية، وربما لهذه المزية تحديدًا هو الوحيد القادر على التوسُّط لأجلها، لكن لينجح الأمر، على نات أن تكفِّرَ عن ذنبها؛ أن تسلم شيئًا في المقابل. تتلذَّذ بضع لحظات بالفكرة. ولم لا؟ ألم تبدأ قصتها مع أندرياس بنفس الصور؟ بتبادل المنفعة؟ من الواضح أن الجار يشتهيها. لقد اشتهاها دائمًا والآن يُمكنه أن يحصل عليها بسهولة أكثر من أي وقت مضى. تتخيله نات يلعق شفتيه، بينما يقترب منها كذئب. يغلبها الاشمئزاز فجأة. هاتان الشفتان، هذا الجسد، وزنه فوقها، ملمسه العقيم والطريقة التي سيُحدّد بها الفارق بينه وذلك الذي كان لها ذات مرة ولا تقدر على نسيانه، بعد أن خسرته.

تشعر نات برغبة في القيء، يخلع الجار سترته، فتُزَرِّرُ هي سترتها، تُودّعه

وترحل.

تسود روح الوفاق لا إسكابا، متجسّدةً في أكاليل أعياد الميلاد التي يُعلّقها أصحاب المتجر فوق الأشجار، والمصابيح الصغيرة التي تضيء وتُطفَأ بإيقاع يُذكّر بأن العام انتهى وعلى الكل أن يصبحوا مواطنين حَسَنِي النية. لم يعُدْ أحدٌ يشيح بوجهه كُلّما مَرَّت، مستاء منها ومحتقرًا لها، أو أن هذا على الأقل هو ما تراه. في المتجر، تعود الفتاة لتتعامل معها، لا بطريقة البدايات، وإنما بصورة طبيعية كأنها نسيت أو تتناسى ما حدث. يعرض عليها الغَجَرُ جروًا من كلاب صيد الأرانب ويؤكدون لها أن حيوانًا مثل هذا لن يُسبّبَ لها مشكلات. ترفض نات بفزع الفكرة المجردة لمحاولة الأمر من جديد. يُلمّح خواكين إليها أن بإمكانها العودة إلى بيته وقتما يحلو لها. يخبرها بالأمر، بوجه متضرج، ونظرته فوق الأرض. حتى بييتر يعتذر. يعترف بأنه لم يتمكن من التعامل مع الأمر. يعرف أنه قد أحبطها، لكن العثور على حل لم يكن سهلًا، لأنها مشكلة شيطانية.

تأمل نات أن عودة الجارة والطفلين ستعني رجوع الوضع إلى طبيعته، رغم أن هذه الطبيعة لا تزال، في نفس الوقت، زلقة جدًا. ما من مُدانٍ يظفر بالغفران، إن لم يحصل على عقوبته، لكن انقطاع علاقتها مع أندرياس، كما تفكر، أدّى نفس الوظيفة بالنسبة إلى أهل لا إسكابا. ربما يظنّون أنَّ إخراجَها من حالة السعادة الثَّمِلة هذه عقابٌ كافٍ. على الأرجح، لم يكونوا ليعفوا عنها، لو وجدوها تتمرَّغ في الوحل مع عشيقها كخنزيرة، أثناء تلقي الطفلة العلاج. تعتقد أن هاتين هما الكلمتان اللتان كانوا غالبًا يستخدمونهما: «تتمرغ» و«خنزيرة». بفضل هذا - أنها لم تعد تتمرغ مع عشيقها- تتجرأ نات على الخروج وعدم الاختباء.

ترافق بييتر في ليلة عيد الميلاد إلى حانة «الرجل السمين» حيث يجلسان معًا للشرب. تمرُّ الليلة سريعًا، يأكلان بشهية، يمزحان، يفتحان زجاجة

شمبانيا، ويُنشِدان أغنياتِ عيد الميلاد. تثملُ فتاة المتجر وترقص واقفة فوق برميل جعة بينما تتلوَّى ببذاءة. يُجبرها أبوها، الثمل هو الآخر، على النزول، ميتًا من الضحك. تشعر نات كأن كُلَّ شيء مسموحٌ ومغفور في هذه الليلة، بما فيها الأحقاد القديمة بين صاحب المتجر و«الرجل السمين»، لهذا تنظر إلى ستارة الكرات المعلقة عند المدخل، وتلُفُّ رأسَها كُلّما سمعت أحدًا يدخل. يجعلها الكحول تثمل بالأمل المضطرب. وماذا لو ظهر أندرياس؟ تدفع هذه الاحتمالية المُجرّدة دقّات قلبها إلى التسارع. لكن، بالطبع، لم يظهر أندرياس.

تتبادل العناق مع المتبقين قرب الفجر، بارتباك وتأثر. إنها أحضان دافئة في وسط الليل. تعود إلى بيتها وتشعر بإغراء الاقتراب إلى بيت أندرياس، لتنظرَ إليه فقط لبعض الوقت. تقول لنفسها إن إشباعَ الفضول لا يضُرّ أحدًا. هل سيكون موجودًا أم لا؟ هل ستجد نورًا؟ هل ستسمع موسيقى؟ هل سيكون في صُحبة أحد؟

حينما تبدأ في قطع الطريق، تدفعها أطياف أشجار الصبار وسط العتمة، بأشكالها المشؤومة والمهددة كإنذار، إلى العودة.

بينما هي عائدة من قضاء مشترياتها، ترى جارتها تروي الأُصص عند مدخل «إل شاليتيتو». تتجمد في مكانها، مرتعشة، بالحقائب في يديها. حينما تبدأ في السير مجددًا، تشعر أن الهواء يتخلخل من حولها إلى درجة تُصعب من تقدمها. تعرف أنها يجب أن تتوجه إليها فورًا لإلقاء التحية، لكنها تسير ببطء، مُستبعدة الكلمات التي لا يجب عليها نطقها. تختار أنسب الألفاظ، بنفس الحرص الذي اعتادت أن تترجم به في الماضي، رغم أنها الآن تجهل أصلًا مفهوم النص الأصلي.

تستقبلها الجارة، بابتسامتها، وجمالها الذي يتزايد مع قميصها الصوفي الأسود، سروال الحمل الواسع، شعرها المعقوص في ضفيرة، ووجنتيها اللامعتين. تندهش نات من سلوكها، أو كما تقول داخل نفسها، من هذا

الاستقبال.

تتبادلان القبلات. ينكسر صوت نات حين تسألها عن الطفلة. تقول لها جارتها إنها أفضل جدًا. تناديها كي تراها، وتظهر الفتاة، مطيعة، من داخل المنزل. رغم طوله، إلا أن الجرح الذي يمتد بين جانبي خدّها، لا يُقبّح من قسمات وجهها، الرقيقة جدًا التي لم ترتسم بالكامل. ثمّة بقايا خدوش أصغر في ذقنها وعنقها، لكن أبرز شيء في وجهها هي جديتها، إذ تنظر إلى نات بعينين تخلوان من أي تعبير.

تشرح الأم:

– قالوا لنا إن الندبات لن تكون ملحوظة تقريبًا مع مرور الوقت. هذا هو الحظ الذي يصاحب كونها طفلة. سيتعافى جلدها بشكل رائع.

تدمع عينا نات وتعتذر منهما. تقول لهما إنها تتمنى لو أنها قادرة على الرجوع بالزمن للخلف. تشعر بألم كبير لما كانت سببًا فيه وتكرر لهما أسفها. تظل الطفل ثابتة على حالها. تضع الجارة يدها فوق ذراعها لتهدئتها وتفسح لها الطريق كي تعبر الباب. تدخل نات دون أن تُفلت حقائبها. تجلس دائخة إلى حيث أشارت لها الجارة، باحثة بنظرتها عن الجار والطفل الآخر. تقول الجارة دون أن تسألها نات:

– ليسا هنا.

تعرض عليها شرب القهوة. بينما تُجهزها في المطبخ، تظلُّ الطفلة واقفة إلى جوار نات في صمت. لقد فقدت نظرة الأطفال الذين لا ماضي لهم. تُحدّدُ عيناها، أكثر من ندباتها، وجود فترتي «ما قبل» و«ما بعد»، وذلك الفارق الزمني الذي يفصلهما. تحاول نات أن تتحاور معها، لكن الطفلة لا تُجيبها إلا بكلمات قصيرة. يتكاثف في تعبيرات وجهها حُكمها الخاص الذي لا يُمكن استئنافه. لقد أصْدَرَت هذا الحكم بالفعل، ويبدو أنه ليس في صالحها.

تقول لها الجارة لدى عودتها:

- إنها مُنغلقة على نفسها جدًا.

تتحدثان عن حملها وعن العيد. كيف كانت حفلة ليلة عيد الميلاد؟ هل قضوا وقتًا جيدًا في حانة «الرجل السمين»؟ كان عليهما، كما هو واضح، أن يقضوا العيد مع عائلاتهم؛ مع أبويها وحماتها. يشتاق الأجداد إلى حفيديهما، لكن الآن، في هذه الأيام، تُفضل هي وزوجها الاسترخاء في الريف وربما ترتيب نزهة. يمكنها أن تنضم إلى العائلة في هذه النزهة، لو أن الأمر يروقها. تشعر نات بالانزعاج. ما معنى كل هذا اللطف؟ يشق عليها التحدث كأن شيئًا لم يحدث، لكنها تُفكر في أن هذا هو الأمر المنتظر منها، لذا عليها أن تحاول. تتحدث الجارة الآن عن التكاليف. تكاليف مشروع المسبح، تعديلات المطبخ الذي يجب تغييره بالكامل، هدايا عيد الميلاد، التكييف، والنفقات الطبية.. تدرك نات الأمر. لم تخطر المسألة على بالها. لا تعرف هل هو تعليق جاء بالصدفة أن الجارة دفعت به إلى المحادثة عن قصد. تبلع ريقها وتسأل:

- هل كَلَّفكما الأمر مالًا.. كثيرًا؟

تسارع الجارة بتوضيح كلامها: «أوه لا!» إنها تشير إلى النفقات الطبية المرتبطة بالحمل، فهي تتابعه مع طبيب مشهور جدًا؛ نفس الطبيب الذي تابع حَمْلَيْها السابقين، فمثل هذه الأمور لا تستوجبُ البُخل. مسألة الطفلة، تكفّل التأمين بتغطيتها. لحسن الحظ -كما تقول الآن- ليس على نات أن تقلق بخصوص أي شيء. ما حدث، قد حدث. تقترب بشكل أكبر، تنحني، وتُخفض صوتها. بينما تتحدث، تمرر طرف إصبعها فوق حافة الفنجان، لتأخذ وقتها قبل أن تنطق كل كلمة.

- لو أننا كنا نَوَدُّ أن نُضاجعك، لأبلغنا عنكِ.

تتجمَّد نات، عاجزة عن إبداء رد فعل. تبدو طريقة الحديث هذه، فجأة، كصفعة فوق وجهها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ماذا؟

- الإبلاغ عنكِ. أقصد أننا كان بإمكاننا أن نبلغ عنكِ لكننا لم نفعلها. لو أننا كنا نود أن نُفسد حياتك: أن نضاجعك كما يجب لفعلنا الأمر، وأنتِ كنت ستخسرين كل شيء. لكن، كما ترين بنفسك، ليس لدينا أي نية لرَدّ الصَّاع، عليكِ أن تسترخي.

تومئ نات برأسها باضطراب. لا تعرف هل ابتسامة الجارة تُؤكد أم تُخفّف حدّة كلماتها. إنها ابتسامة متوترة تكشف عن بنية أسنانها الرائعة بالكامل. تبحث بنظرها عن الطفلة التي جلست إلى الأرض، في أحد الأركان، لتلعب بأحد أجهزة تشغيل الألعاب. تبدو ظاهريًا منعزلة، لكن نات تظن أنها لم تفقد خيط المحادثة الدائرة بالقرب منها. تُغير الجارة الموضوع، وإذا بابتسامتها تفقد توترها بصورة سريعة جدًا. تتحدث الآن عن زوجها. تقول إنه ذهب إلى بيتاكاس لقضاء المشتريات، إذ كلما مَرَّ الوقت بات من الصعب عليهما العثور على كل ما يحتاجانه في المتجر. ما قالته منذ عدة دقائق يبدو الآن نتاجًا لخيال نات، ومع ذلك فهي تعرف أن الأمر ليس كذلك؛ أن هذه المفاجأة جزء من إعداد مسرحي أو سيناريو مدروس بعناية ويُنفذ بحذافيره، نقطة تلو الأخرى. لم تعد نات تنصت إليها. ترغب في الرحيل في أقرب وقت، لكنها لا تجد طريقة لإنهاء المحادثة. تثرثر الجارة، وتستند مرة أخرى إلى المقعد بظهرها. في بعض الأحيان، تحول الطفلة نظرتها من جهاز تشغيل الألعاب إليها، وتُحدّق فيها بجدّيّة، قبل أن تواصل اللعب. يخطر لنات عُذرٌ ما. تتمتم: الموقد. لقد تركت الموقد مشتعلًا. من الأفضل أن ترحلَ، فهو من طراز قديم، وقد تشتعِلُ النيران في أي لحظة.

بينما هما عند الباب، تمكسها الجارة من كتفها، لكن في هذه المرة تنطق اسم أندرياس. لا تقول لقب «الألماني» كما اعتادت، وإنما تقول اسمه هكذا، مباشرة: أندرياس.

- أنا سعيدة لأنه تركك.

تلمع عيناها حين تقول الأمر. تودُّ نات أن تعترض، أن تسألها من أين تأتي بمعلوماتها، لكنها تبتسم. إنها ابتسامة المهرجين الحمقاء. تفكر: إصابة الطفلة تمنح أمها حقًا لتتصرف بالطريقة التي تتصرف بها، بل وشرعية الاستمرار في ملاحقتها، كمن يقتحم بيتًا غير بيته. تقول لها إن أندرياس رجل كئيب، متلاعب وقذر. إنها تعرفه جيدًا. تكرر عبارتها: «جيدًا جدًا». تتعملق هاتان الكلمتان وتشكلان لغة كاملة وحدهما، بل وعالمًا خاصًا وسِرّيًا لم تعد نات تمتلك مدخلًا إليه. تكاد نات أن تُذكرها بأنها سبق وقالت ما يناقض كلامها الحالي، حينما أخبرتها أنها لا تعرفه جيدًا، لكن تتغلّبُ عليها حاجتها إلى الفرار والابتعاد. تُمسك بالحقائب، تبتسم مجددًا، وتغادر دون أن تنظر خلفها.

بينما تفرغ المشتريات في الثلاجة تكتشف بعض البيض المكسور وأن عبوتين من الزبادي قد فُتحتا وأُفرغ ما فيهما. متى جرى الأمر؟ من فعلها؟ لا تتذكر أنها أهملت الحقائب في أي لحظة. هذا الأمر -مسألة البيض المكسور والزبادي- يُقلقها الآن أكثر من بقية المشهد.

يحضر صاحب البيت في الثلاثين من ديسمبر، بمزاج سيئ. أول ما يقُصُّه لها، مُتمتمًا بوجه محني، أنه اضْطُرَّ إلى دفع ضعف المبلغ المعتاد لشراء جدي. يقول لها إنهم يستغلُّون أن كل العالم -كل الأغبياء- يبحثون عن شيء خاص لعشاء نهاية العام، لكنه فاض به الكيل من كل هذا التبجُّح. يكرر مسألة الكيل. تتظاهر نات بأنها لا تبالي وتذهب لتجلب النقود، وصاحب البيت مستمر في تبرُّمه؛ فأيُّ فارق يصنعه نهاية العام؟ يقول إنه لو كان الأمر بيده لأكَل فقط طبقًا من البطاطا المقلية، وشرب زجاجتين أو ثلاثة من الجعة، لكن المسألة تتعلق بالنساء، فهن من يُعقِّدْن كل شيء، برغبتهن الدائمة في الاحتفال بالتواريخ الخاصة، الذكريات السنوية لأي شيء، أعياد الميلاد، والتباهي بالطعام، كأن الطعام لن يتحول في النهاية إلى غائط. ينظف بعدها

لعابه بِكُمّ قميصه، ويوجه لنات ابتسامة ساخرة قبل أن يسألها ضاحكًا عن الكلب:

- ساءت أمورك كمن اصطاد ضفدعة [1]، أليس كذلك؟

يقول لها إن الذنب ذنبها لأنها لم تعرف كيفية التعامل معه. الكلاب ليست مُعقّدة. كل ما على المرء أن يفعله هو أن يعاملها بقسوة. لقد أفسدته بتدليله، وحماقة اصطحابه إلى الطبيب البيطري. هل تعتقد أنه لا يعرف مسألة الطبيب البيطري؟ من ناحية هناك مسألة التدليل، ومن الناحية الأخرى تقييده في الوتد. ليس مندهشًا من أن الجنون قد مَسَّه، لكن على أي حال، فقد ولّى وقت الندم، فكل خنزير له عيدٌ يُذبح فيه. يبحث في جيوبه، بينما هو جالس، ثم يناولها الفواتير المثنية والمجعدة.

- والآن ما الذي تفعلينه هنا؟

لا تُجيبه نات. تتمنى فقط أن يغادر.

- أقول تحديدًا: بما أنكِ الآن لا تضاجعين أحدًا هنا، ما الذي تفعلينه هنا؟

ينفجر شيء داخلها، كأنه كيس من الهلام البارد، وإذا به ينتشر عبر كل أطرافها، ليُرخي عضلاتها ويهزمها، قبل أن تتراجع خطوة واحدة للخلف.

- أو ربما أنكِ تضاجعين أحدًا بالفعل. حينما لا يكون شخصٌ ما موجودًا، فيُمكن لشخص آخر دائمًا أن يحلّ محلّه، أليس كذلك؟ أي شخص قد يصلح.

يقترب منها، فتتراجع نات إلى حافة الطاولة. تُحاول أن تُفلت بنفسها، أن تبتعد لكنه يُمسكها من ذراعها، ويهمس:

---

(1) وردت في النص الإسباني «te salió rana» وهو تعبير بالعامية الإسبانية، يشيع استخدامه في الريف على وجه الخصوص، ومعناه أن يقابل المرء حظًا سيئًا بعد مجهود كبير، كأن يذهب المرء لصيد السمك ويقضي وقتًا طويلًا، ولا ينجح إلا في صيد الضفادع. (المترجم).

- تعالي هنا. ألا ترغبين في أن أُضَاجِعَكِ أنا أيضًا؟

تودُّ نات أن تصرخ، لكن الفزعَ يمنعها، وقبل أن تتمكّن من فعلها، إذا به يضع يدًا فوق فمها، بينما يستمِرّ في جذبها بيده الأخرى، بقوة أكبر. يُقرّب رأسه منها ويُحدثها في أذنها:

- لا تصرخي. لا أحد سيأتي لمساعدتك.

تحاول أن تُفلت منه، فتدفعه بكل قوتها، لكن صاحب البيت يُظهر مقاومة مدهشة، بمحاصرتها والضغط عليها، بجسده المتعرق المتأجج، الصلب، السيئ الرائحة. يستمر في ضغطه إلى أن يدفعها نحو الحائط، وهو يلوي ذراعها. يُهددها بعدها بأنه سيُقيّدها ويُكمّمها إن لم تتصرف جيدًا. يقول لها:

- هيا بنا. لا تتصنَّعي الشرف. لقد ضاجعتِ الألماني والهيبي وجارك الصغير، وربما أيضًا قد ضاجعتِ العجوز الذي تنظفين منزله. هل أنا لا أستحق شيئًا مثلهم؟

يجذبها من شعرها ويدفع رأسها إلى الخلف، ليُثبتها إلى الحائط. تشعر بوخز الألم، وأيضًا بلعابه فوق رقبتها، على نهديها، وبزمجرته وهو يُخضِعها. تصرخ، لكن ما يخرج من فمها المكتوم، لا يبدو كنداء استغاثة. صوتها المخنوق، المحروم من الإنسانية، ليس سوى نعيق طير قبل ذبحه. يلصق نفسه بها أكثر، يدهسها بوزنه، ثم يتراجع فجأة، يبصق إلى جواره، ويضحك مُقهقهًا:

- أنتِ محظوظة يا فتاة. لقد زالت رغبتي فجأة.

تقاوم نات شعورها بالغثيان. تزعق في النهاية. تصرخ في وجهه قائلة إنها ستتصل بالشرطة، ستبلغ عنه، وتحكي لكل العالم على الفور ما فعله.

- فعلًا؟ وهل ستحكي الأمر لجاريك؟ هل تظنين أنهما قد يدافعان عنكِ؟ ما السبب وراء وجودي هنا في رأيك؟

تبكي نات، بألم وارتباك. تفرك رقبتها وذراعها المرضوضة. تأمره بأن يرحل.

- بالطبع سأرحل. ظننتِ أنني سأغتصبك حقًا، أليس كذلك؟

يُخبرها بعدها أنها تثير اشمئزازه، وأنه سيفضل أي امرأة عليها، بل بقرة أو نعجة، خاصة في ظِلّ تصرفاتها كآنسة من المجتمع الراقي، بهذه النهدين المسطحين، وهذا الوجه الذي يشبه حَبّة الفول. لتذهب لتبلغ عنه، لو أنها تجرأ. لن يُصدقها أحد. لا وجود للشهود. لو أبلغت عنه، سيفعل جاراها نفس الأمر معها. هل تظن حقًا أن مسألة الكلب قد انتهت؟ لا يزال هناك وقت أمامهما للإبلاغ عنها، لو رغبا في الأمر. عليها أن تهتم بشؤونها وألا تتذمَّر كثيرًا.

يمرر إصبعيه المشدودين -السبابة والوسطى- فوق حافة الطاولة، محدقًا فيها بعينيه. يظل هذا التواصل البصري طافيًا في الأجواء حتى بعد رحيله، وانطلاقه بسيارة الدفع الرباعي، ويستمر على هذه الحال بعدها بفترة، كأنه قد تجلَّط في الهواء.

لا تتصل نات بالشرطة. لا تتصل بأحد أصلًا. تجلس إلى الأرض وتشرب مباشرة من زجاجة ويسكي أهداها لها بيتر ذات يوم. تبحث عن هُدنة من الفزع، لكن منبتَ شعرها يؤلمها بسبب الشَّدّ الذي تعرَّضَتْ له، في حين لا تتوقف يداها عن التشنُّج.

تستيقظ بألم حاد يضرب رأسها كالمطرقة وتشعر بأن الضوء نفسه يجرح حدقتي عينيها. تتساءل كم من الوقت نامت. ترمش بقوة عدة مرات محاولة إدراك أبعاد الغرفة واللحظة، بل وأبعاد نفسها. تنهض مترنحة لتتعثرَ في قطع الأثاث. يبدو الأمر، إن نُظر إليه من الخارج، وسط هذا الهدوء الزائف، كأن أحدًا ما يصورها. هي الممثلة الصامتة، الدخيلة، صاحبة أتفه دور يُمكن لأحد أن يحصل عليه في عالم خيالي، كأنها ديكور من البلاستيك أو الحجر.

تشرب بقلق، لكن الماء لا يروى عطشها. تتحدث بصوت مرتفع لتتغلب على بُحَّةِ صوتها. تسعل. تشتعل حنجرتها. الجو بارد. ترتدي سترتها وتخرج. الشمس في أوج عُلُوّها، لكن لا حرارةَ لها. تقول في نفسها: ها هي المزيد من الخُدَع البصرية. شمسٌ مرسومة. شمس درجة ثانية. تبدو السماءُ مشدودة فوق محيط جبل إل غلاوكو ويمتَدُّ الطريق أمامها، محددًا الاتجاه الذي يجب عليها أن تمضي فيه.

شاحنة أندرياس ليست في مكانها، لكن نات هذه المرة لا ترضى بالنظر من بعيد. تقترب وتجلس إلى الأرض، إلى جوار الباب. تظل هناك طيلة ساعات، غير مهتمة بأن يراها آخرون، وبما قد يُقال عنها من شائعات أو اتهامات، أو حتى الأخطاء التي قد تُتهم بارتكابها؛ بل وغير مبالية نهائيًا، ولو بأدنى درجة، بكرامتها، أو ذلك الشيء الذي سَمَّته في زمان آخر كرامتها، وتحوّل الآن إلى مجرد كلمة تافهة. تتبوّل في نفس المكان، بين الأجمات. تتكوّر داخل سُترتها وترقد قدر استطاعتها، بل إنها تنعس في بعض الأوقات.

تقضي النهار كله هناك.

بينما تتسحّب بداية الليل، تسمع صوت محرك يُخرجها من نعاسها. تُميز الشاحنة ومن بعدها أندرياس أثناء نزوله منها. تنهض وتسوّى شعرها. ينظر إليها، بقسوة لا يُمكن الجدال بشأنها، دون أن ينطق. يشقُّ عليها أن تتعرّف عليه. هل هكذا كانت عيناه؟ هل هكذا كان جسده؟ ألم يكن أطول بعض الشيء؟ أو أقصر بعض الشيء؟ هل كان مَحني الظهر هكذا؟ هل كان بهذه النحافة؟ تقترب منه، تضع كف يدها فوق صدره، دون أن تضغط عليه. إنها مجرد ملامسة، لتتحقق فقط من وجوده. تنبعث حرارة من جلد أندرياس، من أسفل نسيج قميصه، حرارة حقيقية ولا ريب فيها، لكن حتى هذه الحرارة غير قادرة على إبعادها عن المشهد؛ عن إحساسها بانعدام الواقعية.

– لماذا أتيتِ؟

- لا أعرف.

الأمر حقيقي. إنها لا تعرف السبب.

يتأملها بفضول. يحدق في رقبتها المرضوضة. ربما يستنتج أمرًا ما. يقول لها:

- لا يقول وجهك إنكِ بخير. تعالي. ادخلي.

لا يزال البيت يحتفظ بحرارته الفاترة ورائحته التي تبدو كالحطب. تجلس نات إلى الأريكة وتنظر إلى محيطها، الذي لا يزال نصف مظلم، غارقة في ذلك المزيج المُربك من الامتنان والغرابة. تقترب منها «لي» وهي تُخرخر لتفرك نفسها في ساقها. الآن، كلاهما فقد تركيزه: لا تعرف نات ما هي الخطوة التالية التي يجب أن تقطعها، أما أندرياس، فينتظر بكل تأكيد شيئًا منها: أن تقول شيئًا أو تفعل شيئًا، وإلا فَلِمَ أتت أصلًا؟

لكن من الواضح فعلًا أن نات ليس لديها ما تقوله. تنظر إليه باهتمام، كمن ينظر إلى شخص غريب. يُخرج هو عُلبَةَ سجائره من جيبه، يُشعل واحدة منها ويدخّن في صمت. من هو هذا الرجل؟ لماذا ظلَّت تنتظره عند باب بيته طيلة ساعات؟ ما هي أهميته إن كانت الآن عالقة وسط هذه البرودة التي تصيب بالشلل؟

لقد طلب إليها منذ عدّة شهور أن «يدخلها لبرهة». يبدو الوضع الآن كأنها تطلب إليه الأمر نفسه، بطريقة أخرى. أمامها رجل أشعل داخلها شيئًا. إنه شيء عظيم، مجهول، مُحيِّر ولا ينفد، إلا أنه في نفس الوقت رجلٌ لا يشعر بشيء. تراءت لها في عينيَّ أندرياس رسالةً فسرتها كأنها مدخل إلى قوة أو معارف لا يصل إليها آخرون، وكل هذا قد تبخَّر الآن.

ربما ما حدث حقًا هو أنها تركت نفسها تنقاد بغرور التشبُّث بأشياء لا تخُصُّها. ربما هي فعلًا ناكرة للجميل. كادت أن تلامس السماء، ومع ذلك، لم تكتفِ.

يكسر أندرياس الصمت، بهدوء، ودون أي عواطف. إنه يعرف كل ما حدث لها مؤخرًا. تسأله نات: «كل شيء؟» فيجيبها: «نعم، كل شيء» ويؤكّد لها أنها ستتخطى الأمر سريعًا. ليس عليها أن تعذِّبَ نفسها بما يُقال عنها. تشعر نات في كلماته بثقل البُعد.

– هل تعرفين؟ اضطررت إلى الذهاب إلى كارديناس منذ قليل. كان هناك رجال شرطة مسلحون في كل الشوارع. كل شيء مُطوّق مع مروحيات تحلّق في الهواء. ينتظرون وصول شخص مهم. رئيس وزراء أو رئيس حكومة على حد ظني. أو شيء من هذا القبيل. الأمر يتعلق بقمة دولية حول أمر لا أعرفه. لم أدرك الأمر جيدًا، رحلتُ حين استطعت. الأمر مفزع.

لا تبدي نات رَدّ فعل. إنها لا تفهم ما يقوله أندرياس. ما الذي يشير إليه؟ هل يسعى إلى مواساتها أم إلى تحذيرها من خطر ما؟ هل توجد رسالة خفية في كلماته؟ أم أنه يحاول ببساطة إلهاءها؟ يبدو غير حقيقي، كأن شخصًا آخر يتحدث بالنيابة عنه، أو عَبْره.

في الواقع، يبدو سوقيًا، أحمق، غير مثقف، كما بدا لها في البداية، حينما كان بعيدًا عنها، ولم يتعدَّ كونه مجرّدَ قطعة أخرى إضافية إلى هذا المشهد كَكُل، لا أكثر أو أقل. إنه «الألماني»، الرجل العادي، كأي رجل آخر، الذي أصرَّت –كما تفكر– على ترجمته واصطحابه إلى عالمها. يا له من مسعى سخيف! لو أن الأمر لم يكن سخيفًا، لبدا مسليًا.

يسألها الآن مندهشًا:

– ما الذي تضحكين منه الآن؟ لا أحد قادرٌ على فهمك.

تدرس فكرة البقاء لفترة، لكن ينبض داخلها شيء له ثقله يدفعها في الاتجاه المعاكس: اتجاه الرحيل. ليست في حاجة إلى تفنيد أي شيء، مناقضة أحد، أو الإشارة إلى نفسها، لكنها ترغب في ألا تستسلم، أن تنهي ما بدأته وتركته في منتصفه. كالترجمة المسرحية، على سبيل المثال، ضمن أمور أخرى.

في النهاية، تُقرر الذهاب إلى بلدة أخرى قريبة. تؤجر منزلًا قديمًا، بمبلغ أقل من ذلك الذي كانت تدفعه إلى صاحب البيت في لا إسكابا. تدعك أرضيته، تفرك موقد مطبخه، تمسح، تنظف، وتلمّع خشبه القديم. تصنفر القيشاني بكَشّاطة، وتقُصُّ الفروع الجافة. لا تفسّر تكرار هذه المهام في مكان جديد، كركود، وإنما كتقدم. يمر بييتر ليراها بين الحين والآخر. يجلب لها بعض الهدايا. يوليها اهتمامه، كما حدث في البداية، أو ربما أكثر. لا تنزعج من هذا الاهتمام وتقول في نفسها إنهما يشبهان بعضهما أكثر مما تظن، لكن بييتر على الأقل، شخص يتحدث.

تشعر أنه ما من أحد قادرٌ على إيذائها، بعيدًا عن الأحكام المسبقة. إن منبع حصانتها هو الخروج من الزمن الذي تحيا فيه، كأنها صعدت سُلّمًا لا نهاية له، وسقطت نحو الفراغ من فوق درجة مكسورة، فتركت بقية الخلق في الأعلى دون أن يلاحظ أحدهم شيئًا.

حينما تفكر في أندرياس، يثورُ شيءٌ ما داخل أحشائها، كآثار الثمالة. قد تغلق عينيها أحيانًا وتتشبَّث بصورة يديه وهما تتحسسان جانبيها، ملمس أصابعه لأول مرة فوق خصرها، ذلك القميص الذي كانت ترتديه، وأبرز عُريها الباقي بشكل أكبر، الظلام الذي رسم هيئة جسديهما، وقطرات المطر التي نقرت السطح وتواثبت فوقه. تفكر في أن لحظة واحدة -هذه اللحظة على سبيل المثال- كافيةٌ لتبرير حياة كاملة، لأنه يوجد أشخاص لم يحظوا بشيء مثل هذا على الإطلاق. لقد فقدت الذكريات الأخرى صلاحيتها بالفعل، لهذا تستبعدها واحدة تلو الأخرى، كي تبقى فقط، مع ذلك اليوم الأول.

لقد تضاءلت ذاكرتها. إنها الآن ذاكرة صغيرة إلى حد تكاد معه أن تَضُمَّها في قبضتها. تقول نات لنفسها إن الرُّفَات العاطفية لا تستحق الخلود.

ذات يوم تأخذ سيارتها وتعود إلى لا إسكابا كي تصعد إل غلاوكو. تصُفُّها في نفس المَرْقَب الذي ترك فيه أندرياس شاحنته حينما ذهب معها.

تقطع نفس المسار الذي قطعاه معًا بالضبط. لا تفعلها لاستعادة الأحاسيس ذاتها، وإنما لِمَحْوها، وكتابة أحاسيس جديدة فوقها.

تجلس إلى صخرة وتتأمّل المشهد الطبيعي الزجاجي المُلبّد بالغيوم والألوان الذائبة الممتزجة. تتنفّس ببطء. يُطهّر الهواء البارد أنفها، ويحرقها بعض الشيء. ها هي تضع الخطوط الأولى لوداع حميمي، دون أن تقصد.

تشعر في يدها بدغدغة. إنها نملة. تكتشف بعدها صَفًّا من النمل يتقدم على الصخرة التي تجلس إليها. الصَّفُّ كلُّه منتظم باستثناء تلك النملة التي تسلّقت يَدَها. النملة المتمردة، العاصية.

تراقب النمل باهتمام ويُشَقُّ عليها المواءمة بين اتساع مشاهد القمة وهذا العالم الصغير.

الكبير والصغير، الاثنان معًا، في نفس الإطار العقلي. تصل إلى نوع ما من السلام. إنه انكشاف. فجأة، تكتسب السرقة التي ارتكبتها في الماضي، معناها الكامل. إنها شيء يُمكنها الآن أن تقرأه. تتفهّم أن المرء لا يصل إلى الهدف المرجو، إلا وهو غافل عنه، بعد مَرّات ومَرّات من الترنُّح، واللفّ والدوران، وتقريبًا بالصدفة.

ترى بوضوح أنَّ كُلَّ شيءٍ كان يؤدي إلى هذه اللحظة، حتى تلك الأمور التي بَدَتْ أنها لن تُفضي إلى أيّ مكان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تدور أحداثُ رواية "حب" في لا إسكابا، وهي قرية ريفية صغيرة انتقلت إليها نات، المترجمة الشابة عديمة الخبرة. صاحب البيت الذي استأجرته سيُظهر قريبًا وجهَه الحقيقي بعدما منحها كلبًا كإيماءة ترحيب.

رواية مليئة بالصمت والإثارة، التحيزات والنزاعات المفرطة، المحظورات والتجاوزات، الحب هنا موجود لكن بشكل ضمني، واللغة يتعامل بها ليس كشكل من أشكال التواصل، ولكن للإقصاء والاختلاف.

سارة ميسا كتبت نصّها بأسلوب سردي ذكيّ، موجز ورشيق، يُقرأ بالسرعة التي نربطها بالمتعة. لكن، ما إن نغلق الرواية حتى نشعر بأنفسنا عاجزين من جديد.

"روايةٌ قويّةٌ جدًّا. كتابةٌ هادئةٌ ونابضةٌ بالحياة في الوقتِ نفسِه "

جريدة إل بايس الإسبانية

"جلبت سارة ميسا صوتًا سرديًّا جديدًا إلى المشهد الأدبي بإمكانه أن ينقل الرواية الإسبانية لمستوىً آخر في القرن الحادي والعشرين."

صحيفة الموندو الإسبانية

"سارة ميسا. لا تنس هذا الاسم، عندما تجد كتبها اقرأها، انشرها، تكلم عنها، افتح الكتاب وابدأ القراءة. لن تكون قادرًا على تركه".

ملحق كتاب اليوم الإسباني

telegram @soramnqraa

SBN 978-603-91686-2-1
786039 168621

لوحة الغلاف للفنانة:
فيفيان الصائغ

أثر